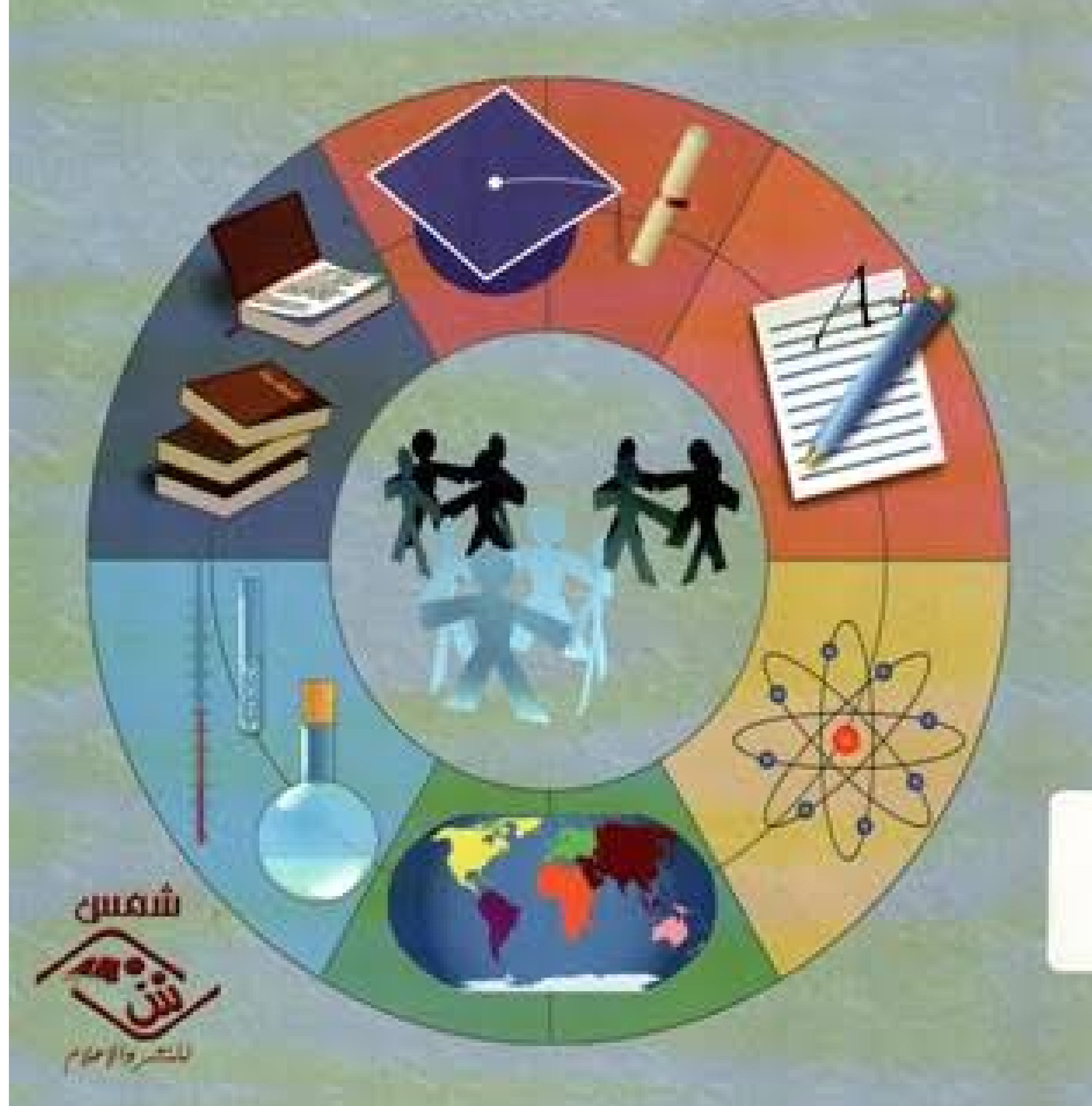
وديع العبيدي

في علم اجتماع الفرد

خمسون حديثا عن الواقع واللامعقول واللغة



وديع العبيدي

في علم اجتماع الفرد

خمسون حديثًا عن الواقع واللامعقول واللغة

الكتاب : في علم اجتماع الفرد

المؤلف : وديـع العبيدي

الطبعة الأولى : القاهرة 2017

رقم الإيداع : 7661 / 2017

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

27 ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي.
القاهرة

ت فاكس : 27238004 (02) ، 01288890065 (02)

www.shams-group.net



وديع العبيدي

Wadi Ubaidi

في علم اجتماع الفرد

The Sociololgy Of Individual Being

خمسون حديثًا عن الواقع واللامعقول واللغة

محتويات الكتاب

القسم الثالث :

القسم الرابع :

القسم الخامس :

القسم السادس :

القسم السابع :

مـدخـل

لدينا فكرة خاطئة، أن كل كمية من البشر على قطعـة محـددة مـن أرض تمثِّـل مجتمعًا، شعبًا أو دولة. واقع الحال أنه لا يوجد ما يربط هؤلاء البشر ببعضهم، أو يربطهم بالأرض.

لذلك كان الصراع داخل جماعة البشر تلك هو الحالة السائدة، بدلاً من الاتحـاد وتنظيم المتطلبات وتوحيد الخطـاب والغايـة لبنـاء مجتمـع سـياسي قـادر عـلى حمايـة نفـسه والأرض الموجـود عليهـا. حالـة الـدفاع عـن المجتمـع أو الأرض لم تعرف تاريخيًا وفي طابعها الوطني.

وعلى العموم تتحدث المجموعات البشرية من المحيط إلى الخلـيج لغـة واحـدة ولهجات متقاربة، ولكن تشخيص علاقتها باللغـة وعلاقـة اللغـة بـالأرض، يبقـى أمرا فوق طاقتها. بل أن اختلاف الأفراد والعوائل داخل اللغة والـلـهجة والقرية والمدينة، أمر واقع ومدمِّر، وعصي عن التفسير أيضًا.

في هكذا محيط يُولد الفرد العربي ويجد نفسه مجـبرًا عـلى التكيـف والانـسجام طوعا أو عنوة، متجاوزًا الأسئلة؛ أو يجد نفسه عاجزًا عـلى الانـسجام مكابـدًا ألم التناقضات اليومية العائلية والمحلية من غير أجوبة فكرية حاسمة.

واقع الحال أن الاغتراب هـو الـصفة الأكـثر شـيوعًا في الـشرق الأوسـط... ولـيس العنف اليومي؛ اللفظي والفيزيائي، الاجتماعي والسياسي، المعيشي والديني، غـير نتيجة من نتائج الاغتراب وغياب الانسجام والتكيف الفكري.

ثمة إشكالية تاريخية تتعلق بعلم الاجتماع السياسي في منطقة الـشرق الأوسـط.

هذه الإشكالية لم تُشخَّص وتُدرس بعقلية أكاديمية وموضوعية، وقد حاولتْ مصادر الإعلام السياسي والأيديولوجيات الحزبية تجاوزها، في صياغة مجانية بما يخدم أفكارها وأغراضها، ليجد الفرد نفسه أمام طوباويتها، وعجزها عن الاستجابة لمتطلباته وأسئلته مع الزمن. وقد ساعدت الدولة الوطنية القومية في القرن العشرين حتى ما قبل السبعينيات، في توفير غطاء سياسي ثقافي، سرعان ما أعاد انهيارها اللاحق، العرب إلى المربع صفر.

هنا وجد الفرد نفسه؛ وهو على عتبة القرن الحادي والعشرين، أمام أسئلة الأرض والانتماء واللغة والقومية. وإزاء انهيار مؤسسة الدولة ككيان سياسي، تحولت منطقة الشرق الأوسط إلى سوق مفتوحة تعج بالأُطر السياسية والمنظمات الحزبية والدينية والمليشيات المسلحة على اختلاف أجنداتها، ناهيك إلى عودة مشوهة للتقسيمات القبلية والطائفية، تتحكم بها موازين الصراعات الإقليمية والدولية.

لماذا أصبحت مسألة الانتماء الوطني والقومي هشَّة ومهزوزة في شرق المتوسط، وصار الفرد عاجزًا عن تأكيد أو تبرير علاقته بالأرض والشعب واللغة؟ فإذا عنى له أن يجد إطارًا اجتماعيًا يدعمه أو يدعم رؤيته، وجد نفسه في وحل الطائفية أو الحزبية أو العشائرية، وكل هذه ترتبط بأجندة حزبية إقليمية ودولية تضمن مصالحها الفردية والفئوية، على حساب الوطن والشعب والدولة!.

الحرب الأهلية في لبنان السبعينيات والثمانينيات كانت كارثة قومية تاريخية بكل معنى الكلمة. الكارثة حصلت بعد موت عبد الناصر وانتهاء مرحلة سياسية ثقافية راسخة ومميزة في التاريخ العربي المعاصر. لتبدأ مرحلة نقيضها، ممثلة في عهد الانفتاح الساداتي في مصر، وتهشيم الهويات الوطنية وإشاعة

حرب الطوائف السياسية والمكونات المسلحة بدء من لبنان. لبنـان البلـد الجميـل والأصيل والأبعد عن الأيديولوجيات والمهاترات والصراعات الـسياسية، لكنـه أيـضًا البلد الأصغر والأضعف عسكريًا وسياسيًا ، أُختير ليكون أنبوبة الاختبار التجريبية، وساحة لتصفية النضال الفلسطيني وتأجيج النعرات الدينية والأيديولوجية.

ولا أحد يقتنع اليوم أن تلك الحـرب التدميريـة كانـت شرارتهـا حـادث شخـصي مفتعل بين طرفين، تمَّ أدلجتها وتسييسها وتهويلهـا لـصراع طـائفي، بـدل حلهـا سلميًا ووديًا باسم العقل والأخوة.

نفس شرارة أيلول الأسـود في الأردن، أعيـد تجربتهـا في بـيروت ونجحـت نجاحًـا ساحقًا، وكما أخرجت المقاومة من الأردن، قادت إلى إخراج المقاومة من لبنان.

إن نجاح عملية تصفية التهديد الفلسطيني، دفع باتجاه تمرير حلقات تالية من المشروع، هي تصفية الحزام الأمني والدولة الوطنية، وصولاً إلى تصفية التهديـد الإسلامي وإشاعة تجريمه عالميًا ، وهـي المرحلـة المـستمرة والـدائرة حلقاتهـا في شرق المتوسط.

هذا السيناريو المتواصل بحلقاته المـستمرة مثـل المسلـسلات المـصرية والتركيـة بأجزائها المتعددة وبكـل تفاهتهـا، اسـتهدفت تحطـيم معنويـات الفـرد العـربي وتهشيم الأسس والقواعد الفكرية والماديـة التـي كانـت تـدعم وجـوده وكيانـه وخطابه، وبشكل يجرِّده من كل مقوماته الإنسانية الطبيعية ويتركه على قارعـة الفهلوة والصعلكة وعضوية المليشيات أو الهجرة.

حالة الفرد العربي اليوم هي الأسوأ بلا نظير تاريخيًا، وقد عدمت أرضية الإصلاح وغاب خطاب إعادة البناء، ولا توجد قوة أو خطاب محلي وطني راسخ لمقاومة الانهيار.

فما هو الضمان الذي تقدمه العائلة لطفلها الوليد في هذه البيئة المضطربة والعنيفة؟.

أسئلة تستحق الطرح والمناقشة والبحث عن أجوبة وتفسيرات...

•

من ملامح الحياة العصرية، ارتباط حياة الفرد بالنظام العالمي وسياساته العابرة للحدود. وبعدما كانت الصلة ضعيفة، والانعكاسات الدولية محدودة وغير مباشرة في النظام العالمي السابق، فهي تنعكس اليوم مباشرة على حياة الفرد، وتكاد تتناول كل تفاصيل حياته الخاصة والعامة، الجزئية والكلية.

وبعدما كانت الدولة في القرن العشرين تشكِّل حاضنة اجتماعية واقتصادية وسياسية للفرد، وحارسًا مرشدًا في حمايته التربوية والقانونية والمحافظة على خصائصه الثقافية والوطنية، من خلال برامج التنمية الاجتماعية والبناء الاقتصادي، وتشكيل خط حماية دولية في وجه التأثيرات الأجنبية وفلترة السياسات والثقافات الخارجية بما ينسجم مع الهوية المحلية ويخدم المشروع الوطني، تراجع دور الدولة في هذا المجال، وتحولت إلى مجرد هيكل إداري أجوف، ووكيل لترويج منتجات السياسة والاقتصاد والثقافة والإعلام العالمي وتسهيل تطبيقاتها في المجتمع المحلي والإقليمي.

النظام العالمي الراهن الساري منذ ربع قرن تقريبًا، تقترن فعاليته باختزال دور الدولة وتحجيمها بشكل يجعل منها مجرد فرع لوكالة دولية في المجتمع المحلي ، يتقاضى ساستها عمولات ومكافآت بنكية وسياسية بحسب مدى مساهمتهم ونجاحهم في تمرير السياسات الخارجية وتسويق منتجات السوق العالمية.

•

"عارٍ عن الأهل، صفر الكف، منجردٌ   كالسيفِ جردَ متناهُ من الحللِ"

الفرد اليوم، بلا غطاء حماية أو سقف وطني/محلي، يجد نفسه عاريًا ومجردًا في عراء صحراء العالم المكتظة بالتيارات والعواصف والأجندة والمسميات الضبابية. الفرد العالمي هو مستهلك يتبضع في سوق عملاقة تعج بما لا نهاية ولا حدود له من سلع تتجاوز حاجاته المحدودة وإدراكه، مسبوقة ومقرونة بإعلانات مغرية ودعايات محفزة وتسهيلات مزعومة، بما فيها العينات المجانية، وبشكل يحاصره ويجعل من الصعوبة عليه البقاء خارجها.

مصطلح "الفرد العالمي"(•) نفسه يعود إلى القرن الثامن عشر، عندما أعلنت الجالية اليهودية في هولندا براءتها من المفكّر "باروخ سبينوزا" جراء توجيهه

• سعى الإنسان القديم إلى التقارب من أشباهه البشر والتعايش في جماعات صغيرة تطورت بالتدرج لإنتاج مجتمعات متباينة، اشترطت لبنائها وحماية نفسها إلى جملة قواعد وضوابط تتفاوت في درجة شدتها ومرونتها، على أن المجتمعات القديمة عمومًا تنتمي للحالة العبودية التي تحكم على المخالف بالحرمان من الحماية والرعاية وأحيانًا الموت. وهذا هو الإطار الذي ذهب ضحيته أفراد كثيرون عبر الزمن خالفوا بيئاتهم الاجتماعية في قليل أو كثير. وقد اتخذ الصراع بين الفرد والجماعة مستوى مميزًا في القرن السادس عشر الأوربي وما بعده، عشية بدء تشكل الهويات الأوربية البلدانية وظهور كيانات سياسية وطنية. لكن أول حالة مشخصة ارتبطت بالفيلسوف الهولندي من أصول يهودية "باروخ سبينوزا" عندما حرمته طائفته جراء إدخاله تفسير ديني مغاير للتعليم الكهنوتي. وقد جرى وصفه بالفرد العالمي تعبيرًا عن فقدانه الانتماء الطائفي/ (القومي على أساس الدين). وواقع الحال أن العديد من المثقفين والعلماء من أصول يهودية كانوا علمانيين لا يلتزمون بتعاليم وضوابط حواضنهم الاجتماعية. فعلماء مثل ماركس وفرويد وأينشتاين تنكروا للضوابط اليهودية وبعضهم انتقدها بشدة. وقد استخدم ألبرت أينشتاين اصطلاح (مواطن إنساني) لوصف نفسه ورفض ترشيحه رئيسًا لدولة اسرائيل. أما الدنماركي سرن كركجورد فنحت اصطلاح (الفرد الوجودي) الذي تطور لدى روسو إلى (الفرد الحرّ/ الواعي) ثم (المثقف الملتزم)، وانتقل لدى كولن ولسن إلى (اللامنتمي/ Autsider) ، واعتبر شخصيًا مصطلح (الغريب Stranger/) الأكثر تخصيصًا ووضوحا بين ذلك، وكانت شخصيات مثل عزرا باوند وفرانتز كافكا أفضل ممثليه. لكننا لا ننسى هنا تطور اتجاه المصطلح على يد كارل بارث بإضافة سمة (الاغتراب) عقب الحرب العالمية الثانية ودخول عناصر ثقافية جديدة لم يألفها الجيل السابق، فولد اصطلاح (إنسان مغترب) للشخص غير المنسجم مع ثقافة زمنه أو محيطه الاجتماعي. واليوم يظهر اصطلاح (توحّد/ Autisim) القريب من مجال البحث وأكثر تخصيصًا في علم نفس الفرد. وبشكل عام يكشف التدرج والتطور والاهتمام الملحوظ هنا، عن تعاظم الشقة بين الفرد والجماعة جراء تعقد المستحدثات القيمية الجديدة المقترنة بالتطورات الرأسمالية والإلكترونية الراهنة. والفرد الإلكتروني ليس غير نموذج لشخص مغترب منفصم عن محيطه المحلي محلق في محيط أثيري وهمي، يمنحه الاشباع من خلال التراسل الذهني [state of mind] وهو مجال لم يفت كولن ولسن في روايته [طفيليات الذهن]. واستمرار البحث في هذا المجال سوف يحقق نقلة نوعية فكرية اجتماعية تنقل الثقافة البشرية من مجال نظرية الحواس الأرسطية إلى مجال التصور والتركيز الذهني.

انتقادات لجوانب من العقيدة. وقد جعلته تلك البراءة نوعًا من الـ-لا منتمـي- لهوية ثقافية أو جماعة محلية.

إن الفرد العالمي، هو أيضًا فرد -لا منتمي- لإطار محلي أو وطنـي. وقـد يحـاول البعض اعتبار الانتماء للإنسانية عامة، هوية بديلـة للانـتماء الـوطني/القـومي/ المحلي، ولكن ما هي صورة الحضانة الاجتماعية الحميمية والسمات الخصوصية لهذا الانتماء؟...

هل وجدت حتى الآن حالة ثقافة إنـسانية حقيقيـة أو حـضانة إنـسانية تغنـي المرء عن خصائصه المحلية وحاجاته النفسية؟...

هل بلغت ثقافة هذا الفرد مستوى عابرًا للحدود والثقافات يتجاوز بـه نزعاتـه الفردية ومحيطه الحيوي وعائلته، وتعويضها في بدائل غير محلية؟.

حتى الآن لم يتحقق هذا الحلم، وأشك ـ شخصيًا ـ في واقعيته!

هنا نجد أنفسنا أمام حالة من الانفـصام والعجـز عـن الانـسجام والتكيـف مـع محـيط مغـاير في سـماته ومنتجاتـه للمحـيط التربـوي والثقـافي الخـاص للفـرد، تعارف عليها علماء النفس بالاغتراب. وما يسمى بالفرد العالمي، هو فرد مغترب ، فاقد لبيئته المحلية، ولا يجد بيئة حميمية بديلة.

في مراحل عمرية أو نفسية معينة -كالمراهقة-، قد يجد الـبعض نفـسه منـساقًا وراء نزعات وتيارات، يعتقد أنها تـساعده في تحقيـق اسـتقلاليته وكيانـه الـذاتي الخاص. ولكنه ما يفتأ يصحو على نفسه، بعد تجـاوز تلـك المرحلـة، ويجـد أنـه أحوج ما يكون لدفء محيطـه العـائلي الأول، وحميميـة العلاقـات الاجتماعيـة والطفولة الأولى.

لم يولد للآن إنسان منقطع عـن المـاضي. فالانقطـاع عـن المـاضي يعنـي انعـدام

الذاكرة. ومن غير ذاكرة تستحيل آلية التعلم والحفظ والخزن. بمعنى آخر، أنها عودة لمرحلة ما قبل ظهور الوعي والإدراك التي سبقت ظهور الإنسان النياندرتال قبل أكثر من مليون عام.

•

تمثل الشبكة الإلكترونية ومواقع الاتصال الاجتماعي ميدان تطبيق النظام العالمي الجديد وتداول منتجاته وظواهره وتسويقها. جمهور الإنترنت هم في العموم من فئات الناشئة والشباب الباحثين عن المستقبل وإمكانية بناء كيانهم الشخصي وتحقيق استقلاليتهم المادية والاجتماعية، وغالبيتهم ضحايا للضياع والقلق والتوتر. ينطبق عليهم القول المأثور:

"ألقاه في اليم تكرارًا وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء"

بناء المستقبل والكيان المادي يحتاج إلى أرضية ثابتة ومحيط مستقر آمن، ولا يكون رقمًا أثيريًا عائمًا في مهبِّ رياح العولمة والبورصة والتغيرات غير المحدودة. وفي الصفحات التالية محاولة لقراءة بعض صور الحياة العصرية، ومغايرتها للحداثة وإشكالياتها المتداخلة والمتفاقمة، في مجتمعات الشرق الأوسط وفوضى خرائطها المضطربة!.

نظرة نحو الخلف

لا أحد يحسد العرب اليوم على ما حقّقوه من رفعة وسيادة ومكانة لائقة بين أمم الأرض وقواها العظمى، وذلك بعد قرن من التضحيات والخطط السديدة والسياسات الرشيدة وإرساء قواعد دولة القانون وأُسس المجتمع الديمقراطي التي تضمن لكل إنسان حقه في الحياة الحُرَّة الكريمة، كما تؤكدها جميع المواثيق العربية الرسمية والحزبية دون استثناء، وبالشكل الذي يجعل من حقوق الحياة والاعتقاد والرأي والتعبير والعمل والسفر بديهيات يومية مملة!.

إن معيار أي حضارة أو مدنية أو تطور إنما هو الإنسان. الإنسان بكيانه ومصالحه ومعتقداته ومدى تصالحه مع نفسه ومجتمعه والعالم. وفي هذا الصدد لا يمكن التغافل عن وضع الإنسان العربي وما بلغه من مديات خارقة تتيح له الدخول في مسابقات الأرقام القياسية والخروج منها مثل الجمل في سَمِّ الخياط.

فعلى صعيد التاريخ والجغرافيا يحتل العرب اليوم أوسع بقعة من مساحة الأرض التي تشمل الماء واليابسة، بدءًا من أصغر جزيرة لا ترى بالعين المجردة في الأطراف الجنوبية من المحيط الهادي عبر مثيلاتها في المحيط الهندي إلى الجنوب من جزيرة سيلان ولاوس إلى مجاهل أفريقيا وأميركا الجنوبية وصولاً إلى مجاهل أميركا الشمالية وأوربا وآسيا.

وهي المرة الأولى التي ينجح فيها العرب في توسيع حدود إمبراطوريتهم العالمية التي تبدو معها إمبراطورية الروم أو العباسيين أو الكومنولث مثل فأرة بجانب جبل. وما يزال أولاد قحطان وعدنان يبذلون جهودهم الإيمانية الحثيثة في البر والبحر، لبلوغ أبعد نقطة عن وطنهم الأم، ممثلاً في شبه جزيرة العرب وما يحاددها، من أجل تحقيق ذاتهم والتحرر من ربقة اليأس والرتابة والإحباط، والقتل العمد غير المخطط والقتل المخطط غير المقصود دون الفوز

بنعمة الجهاد الواردة في باب جهاد النفس وجهاد العيش، باعتباره أعلى رتب الجهاد التي تقتضي من المرء السعي في مناكب الأرض واستحصال الرزق ولو كره الكارهون !.

وإذا كان الاقتصاد دعامة كل أُمة وضمانة أية حضارة ومستقبل ؛ فإن أثر العرب في حياة الأمم والدول السائدة منذ القرن المنصرم مما لا يمكن تجاهله بالبصر أو بالبصيرة، سواء بالمنظور الاستراتيجي للتغيرات والأحداث السياسية الأرضية ، أو المنظور الإنساني للحياة اليومية للبشر في مختلف القارات ، سيما في قلب أوربا وأميركا.

ويكفي أن يعطس مسؤول عربي أو يتنحنح ، حتى يتأثر استقرار الغرب وحركة الأسعار والعملة اليومية المستندة إلى تموجات أسعار النفط.

والحقيقة أن الفعل العربي الراهن في الحياة الدولية والغربية خصوصًا ، يتم على ثلاثة أصعدة متساوقة : ضخ المواد الأولية الاستراتيجية ممثلة بالنفط أساسًا ؛ تأمين الغطاء النقدي للاقتصادات الغربية عبر تراكم وتنامي المليارات العربية في البنوك الغربية تحت حسابات مشفرة ؛ مدّ الاقتصادات العالمية والغربية - على سبيل التخصيص والودّ - بالأيدي العاملة الاختصاصية وشبه المتعلمة ، وبالشكل الذي يضمن عدم استفادة الاقتصادات العربية من الإمكانيات البشرية والمادية التي لديها - كمًّا ونوعًا -.

وبالمقابل تستقبل البلدان العربية أعدادًا لا حصر لها من العمالة الغربية "الجنس الراقي" ولأغراض ومهمات لا يعلم بها غير الله ، وذلك لتأمين موارد دخل إضافية باذخة استنادًا إلى قيم الكرم والمروءة والأخلاق العربية السامية ، التي تتعدى المرتب إلى بدلات ومخصصات وهدايا ومكافآت ، يقف الاقتصاد المالي التقليدي عاجزًا أمام تبويب فقراتها.

وما ذلك إلا في خطوة ذكية من الحكام العرب لتنبيه الأصدقاء الاستراتيجيين

لـضرورة التعامـل بالمقابـل مـع الرعايـا العـرب المهـاجرين لـديهم. وللحـق فـإن الأصـدقاء الاستراتيجيين قد تجاوزا كرم العرب في معاملة رعاياهم سواء في أنواع الأعمال ومناسيب الـدخل المجزية أو تجاوز مواثيق التمييز العنصري والديني وخروقات حقوق الإنسان. وكان من علائـم الارتياح المتبادل اختزال دور القناصل المعتمـدين في متابعـة مـصالح المغتربـين وعـدم الحاجـة لتعكير الأجواء بسبب فلان وعلان.

أمّا على الصعيد الثقافي والذي لابدّ ينسجم ويتـأثر بحركـة التطـور الاقتـصادي والمـدني ، يفـوق عدد المؤلفين والكتاب والأكاديميين العرب اليـوم مـا لـدى نـصف بلـدان العـالم مجتمعـة ، كـما يتفوق العرب على غيرهم في عدد المتحدثين بلغات أجنبية بعد أن كانـت الأميـة - ومـا تـزال - هي الصفة البارزة للعالم العربي. وكان لابدّ إزاء هذا الانفجـار الثقـافي أن تعجـز وسـائل الإعـلام العربية عن استيعاب هذه الأعداد فتدفع موجات منهم إلى المقـاهي أو الهجـرة ، ناهيـك عـن صعوبة مراقبتهم أو شمولهم بالتوجيه والدعم المؤسساتي النظيـف ؛ أو تـأمين وسـائل الحمايـة الكافية لهم من المشعوذين والمتطرفين والجُهَّال الـذين يغـيظهم مـا عليـه الأديـب العـربي مـن رفاهية وكرامة وحرية لا حدود لها.

نظرة في الحاضر

عند النظر إلى حركة الشارع ، أو مراقبة مركز مدينة... ما هو الشعور الذي يراود المرأة ؟...

إن مكتشف البنسلين سوف ينظر بدرجة من الفخر لفعالية الدواء الذي اكتشفه...

والعالم يشعر بالثناء على الرومان وهو يرى هندسة المدن والقلاع وخرائط الطرق والجداول والحدائق التي توصل بينها...

ومكتشف الديناميت يعتريه الأسى حين يرى حجم الأضرار المترتبة على اكتشافه...

صحيح أن سرَّ (تقدم) البشرية هو أنها دائمًا تنظر للأمام... ولكن لا مفر من النظر في الحاضر ، سيما إزاء (تطور) مظاهر الخراب واحتلالها مختلف مجالات الحياة...

- **خصوبة عالية**

جيرمين تيليون... الباحثة النسائية تذكر هجرة بضع مئات من القرويات الفرنسيات في منطقة النورماندي في القرن السابع عشر إلى كندا ليصبح لهن عشرة ملايين حفيد... قصة تذكر بعنوسة النساء والأرامل في أوقات الحروب وأعقاب التغيرات الدولية العنيفة لانقلاب الألفية.

حيث تشير إحصاءات إلى وجود سبعة ملايين عانس في مصر ، وأرقام بنفس الخطورة في بلدان الشمال الأفريقي جراء صعوبات المعيشة وهجرة الشباب ، فيما خلفت السياسات العراقية ثلاثة ملايين أرملة (تقرير الأمم المتحدة لعام 2006) وخمسة ملايين يتيم ، ناهيك عن تصاعد معدلات العنوسة وتعدد الزيجات ونسبة الطلاق... وكأن الشرق الأوسط يواجه شبه الظروف التي

أنتجت النص الوارد في سفر أشعياء بن أموص (في ذلك اليوم تتشبث سبع نساء برجل واحد قائلات: تزوج منا ودعنا ندعى على اسمك ونحن نتكفل بطعامنا وثيابنا)...

هذه الصورة تتوارد كذلك مع مشاهد سيل النساء (الأجنبيات) المندفعات في أماسي لندن وأشباهها من المدن الكبيرة... سيل النساء الدافعات لعربات الأطفال في الصباح... أزمات الإدارات التعليمية مع تلاميذها وصور الفوضى والاستهتار في أوقات أواخر الأسبوع وتفاقم أزمات البطالة والمعيشة على العموم...

- **انفجار سكاني**

بين القرن الثامن عشر وأواسط القرن العشرين تضاعف عدد سكان العالم من مليار شخص إلى ثلاثة مليارات و 135 مليون نسمة (1962) وفي أواخر القرن العشرين تجاوز الرقم السبعة مليارات ، ويخشى المراقبون بلوغ الرقم اثني عشر مليارًا بعد نصف قرن. هذه الزيادة المضطردة في عدد السكان تقترن بازدياد انحطاط مستوى الحياة ومستلزماتها الأساسية...

- **قنابل الهجرة**

إن أبرز ملامح الحياة المعاصرة هي الهجرة. ومغزى الهجرة الجديدة هو عجز البلدان عن استيعاب الزيادات المضطردة في السكان ، من جهة ، ومن جهة أخرى تعاني المدن والبلاد المستقبلة للهجرات من تدني متواصل في مستويات المعيشة والخدمات الأساسية.

ناهيك عن انتشار الفساد والجريمة والأمراض ، وبشكل يهدد علنًا بفقدان أوربا لامتيازها الحضاري وتحولها إلى امتداد سكاني واقتصادي للبلاد دون مستوى النمو. وهذا ينعكس سلبًا على مفهوم الوطن ومغزى مسقط الرأس والعائلة

الوطنية لصالح مفاهيم ومظاهر تتصدرها قيم المادة واضطراب المعيشة وانتهازية الأخلاق.

- المرأة تتحدى

إن الصورة المتوارثة تاريخيًا عن المرأة ، هي دور الضحية ؟...

لكن المرأة لم تقف سلبية في حلبة صراعها الوجودي ، وقد استعملت سلاحها الجنسي على مدى التاريخ ، وبالشكل الذي يعيد إلى الذهن تراث المجتمعات الأمومية في العصور القديمة. فالمرأة التي دفعتها التراتبية الاجتماعية إلى المرتبة الثانية ، استمرت تحتفظ بالدور الأساسي في حركة التاريخ. لم تستطع الأديان والدول والثقافات التقليدية هزيمتها ، طالما بقيت الوحيدة في مجال تزويد الأديان والدول والمجتمعات بالمواد البشرية اللازمة.

لقد أدركت الجماعات القبلية والقومية والدينية استحالة تعويض دور المرأة كمنتج للبشر ، مما اقتضى قدرا من المجاملة الاجتماعية دون الاعتراف الكامل أو السماح بتحريرها ومساواتها بالرجل القائد ، صاحب الأمر والنهي والتوجيه.

- استعجال الهاوية...

يقدم المؤرخ أرنولد توينبي ، رؤية واقعية عن سبب انقراض بعض أجناس الكائنات الحية عبر التاريخ ، ممثلا في الطمع. ويرى (أن الإنسان لن يستطيع انقاذ نفسه من الدمار الذي تسببه قوته المادية وطمعه الشيطانيان ، ما لم يسمح لنفسه بأن تتغير كُليًا بحيث يحفزه ذلك للتخلي عن غايته الحالية).

إن أكبر المفقودات اليوم هو الحكمة الإنسانية ، وأكثر المحظورات شيوعًا هو الجشع والطمع الفردي ، عند المرأة والرجل والكاتب والسياسي ورجل الدين والتاجر... الغني والفقير والأسود والأبيض بلا استثناء.

إن استحضار عقاقير لعلاج أمراض عضوية قابله زيـادة مريعـة في عـدد وأنـواع أمـراض اجتماعية ونفسية أكثر خُبثًا من السرطان في سرعة انتشاره أو سهولة شـيوعه أو أضراره التدميرية التي تغشى كل بصيرة.

- تنانين بشرية

من مقاتل النظريات القومية والدينية الاستهانة بالإنسان.

فلم يحصل في تاريخ الفكـر أن أحـدها أكـرم أبنـاءه بمـا فـيهم الرومـان أو الإنجليـز أو العـرب أو الألمـان. فهـذه وسـواها ولـدت بـالحروب وتوسـعت بـالحروب وتنقـرض بالحروب. هذه الدول اعتمدت على النُخبـة (الملكيـة) والطبقـة (الحاكمـة والحاشـية) والأغلبية المسخرة من كادحين وجنود وعبيد.

انتهـت الدولـة القوميـة في أوربـا بظهـور المجتمـع المـدني ، وفـشلت الدولـة القوميـة والوطنية في العالم الثالث لصالح التيار الاجتماعي القـبلي والـديني التقليـدي. وانتهـت مـسألة الحـدود الـسياسية مـع تفـسخ الـصراع بـين الثقافـات الكولونياليـة وشـعوب المستعمرات لصالح هجرات سكانية تنساب بين القـارات ، بـين مراكـز الـشحة ومراكـز الوفرة ، وذلك على غرار حركة البدو في الصحراء حيث الكلأ والماء.

- أقطاب وألوان متحركة

لكن تصادم الثقافات أو اختلاط الجماعـات المتفاوتـة حـضاريًا أفـرز حالـة غريبـة مـن حروب اجتماعية باردة على صعيد ذاتي وجماعي.

فالشعور بالهزيمة الـسياسية والخـواء الحـضاري انعكـس لـدى المهـاجرين مـن أصـول متخلفة حضاريًا ، إلى ركوب موجة السباق الـسكاني ، والـذي يتحـول إلى تهديـد سـافر إزاء تراجع النمو الدمغرافي لبلدان الغرب.

في المدارس الإنجليزية يـشكِّل المهـاجرون نـسبة الأغلبيـة بـين الطلبـة ، والطـابع العـام للـسكان في المـدن التجاريـة وفي قطاعـات اقتـصادية عديـدة. أكيـد أن لنـدن ليـست جوهانسبيرغ ، ولكن بريطانيا هي التي صنعت روديسيا.

وفي تاريخها المبكر كانت إنجلترا أول بلد أوربي كبـير يـستقبل اليهـود في بدايـة الألفيـة الثانية (1070م) كما كانت أول بلد أوربي يطرد اليهود خارجًا في (1290م) أيضًا.

يقول عنوان مسلسل تلفزيـوني شـعبي في النمـسا [ein Wiener get net runter !] ، ومعناه أن ابن البلد لا يمكن هزيمته ، وهو نفس مغزى المسلسل التلفزيوني الإنجليـزي [coronation street]. وبعد عشرة قرون من الهجـرة اليهوديـة إلى إنجلـترا فـإن أخـر تقديرات عددهم عام (2007م) لا تتجاوز ثلاثمائة ألف نسمة ، يقيم مائة ألـف مـنهم فقط في لندن. وبالتالي ، فليس تقليدًا معيبًا إذا استحالت بريطانيـا إلى روديـسيا ، فـيما تستطيع إدعاء أن أستراليا وكندا وربما الولايـات المتحـدة بـلادًا إنجليزيـة عـلى أصـعدة اللون واللغة.

- النـوع رجـاء

مع تصاعد أرقام أربـاح الـشركات الاقتـصادية عـلى اخـتلاف أنواعهـا وقطاعاتهـا ، فـإن الظاهرة المسجلة ، ليست فقط تراجع الاقتـصاد الإنتـاجي لـصالح الاقتـصاد الاسـتهلاكي والاقتصاد التجاري الخدمي فحسب ، وإنمـا هـو التراجـع النـوعي للـسلعة الخدميـة أو الاستهلاكية ، - يشمل ذلك مستوى الأداء الوظيفي والخدمات العامة أيضًا -.

ذلك أن محور الصراع والمنافـسة الـدائرة في الـسوق الدوليـة لـيس اقتـصاديًا بـالمفهوم التقليـدي ، وإنمـا هـو منافـسة ماليـة. ويلعـب الـدعم المـالي أهميـة في صـمود بعـض الشركات وصدارتها ، أو في تراجعها واختفائها.

شركات السيارات ذات المتانة التقليدية المتوارثة ليست في صدارة سوق السيارات اليوم ، وإنما تلك التي تستطيع تحقيق موازنة توفيقية بين النوعية والسعر ، وهو سِرُّ تصدر اليابان لسوق السيارات والإلكترونيات ، تتبعتها على نفس الطريق كوريا وتايلند ومجموعة جنوب شرقي آسيا.

أما شركات السيارات التشيكية والرومانية التي اشترتها شركات ألمانية فتدخل في النمطية الألمانية. ونفس الأمر ينطبق على هيمنة المنتجات الصينية في مجال النسيج والألبسة ومستلزمات الأطفال والألعاب والمنزلية.

الفكر الاقتصادي الحديث (•) يختلف عن الفكر التقليدي ، ولذلك فإن قيمة السلعة ليست دائمية أو مفتوحة وإنما محددة بزمن لا يتجاوز الثلاث أو الخمس سنوات تبدأ بالتراجع بعدها وتستحق التبديل.

هكذا تضمن شركات الإنتاج استمرارها في الحياة وتطور أرباحها. تبدى هذا في عروض ضمانات الشراء التي تراوحت بين سنتين إلى أربعة سنوات في مجال الكهربائيات والإلكترونيات والسيارات.

وهو ما يعادل العمر النوعي ، وبعض الأغنياء يستبدلون سياراتهم ومقتنياتهم الإلكترونية خلال ذلك. هل انعكس الفكر النوعي الاقتصادي هذا في مجال الإنتاج البشري ؟. هل اختلفت قيمة أبناء اليوم عن سابقيهم ؟...

- العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة...

من المؤسف ملاحظة الانحطاط الفكري الذي اقترن بتطبيقات سياسات العولمة ، وسحب البساط من تحت قاعدة القيم الفكرية والجوهرية التي رعتها البشرية

• الصحيح هنا استخدام لفظة (الجديد) بدل (الحديث) في عبارة [الفكر الاقتصادي الحديث] وذلك لارتباط ملفوظ (الحديث) بعصر الحداثة الذي انتهى معرفيًا ببدء القرن الحادي والعشرين وبدء عصر ما بعد الحداثة [Postmodernism].

والرائج في الغرب استخدام: [[new economy، [new marketing]، new lebralisim]].

طيلة قرون طويلة ، وكانت حصيلة حضارية عامة لأعمال النهضة الأوربية منذ القرن السابع عشر ، لتشهد نهايتها مع بدء العصر الأمريكي في القرن الحادي والعشرين...

بكل هذا الكرنفال البشري الملون من الجنوب والشرق والشمال... حيث تداخلت ظواهر سياسية وعسكرية واقتصادية ، نجحت في تحقيق القطيعة بين الإنسان وأرضه من جهة ، والإنسان وذاته من جهة أخرى.

إذا كان السباق المالي بين الشركات جعل الكبار يفترسون الصغار ، والأكثر وحشية يفترسون الأكثر وداعة وورعا... فكيف تكون نتائج النمو السكاني بين الجنوب والشمال ، وبين الشرق والغرب ؟...

إذا كانت أصول الشعوب الأوربية اليوم هي هندو - آسيوية ، فهل ثمة أرض خالية تستقبل الهجرات الآسيوية الجديدة ؟... وما هي نتائج اصطراع هجرات الشرق مع هجرات الجنوب ؟...

يقترح البعض أرض القمر أو المريخ ، ولكن المشكلة أن تكاليف النقل ستكون باهظة جدًا ، والمال هو ما ينقص المهاجرين الجدد تحديدًا ، وهو مركز الصراع العالمي المعاصر !.

- تطور أسباب الكوارث

في بدايات التاريخ كانت الظروف الطبيعية والتغيرات المناخية العنيفة وراء انهيار المجتمعات وانقراض الممالك واندفاع الهجرات السكانية في الأرض.

فاعتقد أنصار التطور والعقل العلمي ، أن التكنولوجيا المتطورة كفيلة بترويض عوامل الطبيعة وصيانة الحياة وتطوير أساليب المعيشة والتفكير نحو الأفضل ، حضارة الإنسان الأعلى / السوبر مان.

لكن المفاجأة التي تكشفت عنها العقود الأخيرة ، هي أن تلعب حركة رؤوس

الأمـوال ومعـدلات العجـز والإنفـاق ، دورًا في تقـويض الـدول والحكومـات وتـدمير المجتمعات المحلية ، كما حصل مع النمـور الأسـيوية في التـسعينيات ، ويحـدث اليـوم (يوليو 2015م) في اليونان ، سيما عقب فـوز الحـزب الـشيوعي اليونـاني في الانتخابـات الأخيرة.

واليوم تعتمد ثلاثة أرباع بلدان العـالم عـلى القـروض والمـساعدات الخارجيـة ، ويعـاني ثلاثة أرباع سـكان الأرض مـن الفقـر والتخلـف ، وتعـاني 70% مـن النـساء مـن الفقـر والتخلف.

من هنا يمكن تقييم حقيقة صورة الراهن المزوقة بأصباغ الديمقراطية وثورة الاتـصالات الإلكترونية ، وما هي احتمالات المستقبل المتشكلة في رحم الحاضر.

- كلمة أخيـرة

سواء كانت المرأة قد استخدمت الأبناء وسيلة منافسة في الـصراع مـع الرجـل ، أم هـي القبيلـة والـدين والدولـة ، اسـتخدمت المـرأة والإنجـاب لمنافـسة الجماعـات القبليـة والدينية والدول الأخرى ، وضمان الكثرة الكمية للانتصار في صراعها أو بقائها ، أم هـي الرأسمالية تستخدم المرأة لتمويل مادة الحروب وعبودية العمل، فـإن قيمـة الجماعـة تتحدد بقيمة منظورها للإنسان.

الإنسان هو حجر الزاوية في كل بناء اجتماعي ، اقتصادي ، حضاري أو ديني ، وبـدون تـوقير الإنسان كقيمة اجتماعية وروحيـة فاعلـة في حـضارة الأرض... فـإن الخلاصـة العامـة لملايـين سنوات مسيرة البشر على الأرض ، تبدو متواضعة جدًا ، وينقصها الإغراء أو الجاذبية.

وملاحظـة البـؤر الحـضارية ونقـاط الإشـعاع والتجديـد والتنـوير انطلقـت مـن مراكـز نوعيـة قليلـة أو معتدلـة الكثافـة الـسكانية ، بيـنما اقـترن التخلـف والعنـف بمنـاطق الكثافـة والانفجـار الـسكاني. هـذا مـا ينطبـق عـلى سـومر واضـعة الحـروف الأولى

والمرتكـزات الأساسـية للمدينـة والمدنيـة والحـضارة ، وينطبـق عـلى الإغريـق والـدور الحضاري لأثينا ، وصولاً للنهضة العلمية والمدنية والحضارية لأوربا القرن الثـامن عـشر وما تلاها.

فكانت الأقليات السكانية صاحبة الريادة الحضارية وصدارة قياد المجتمع البشري.

واليوم تشكِّل مجتمعات الجنوب والشرق المترهلة – سـكانيًا – ، والمتخلفـة – حـضاريًا واقتصاديًا – عبئًا على صناديق المساعدات الإنسانية والقروض الأجنبية للبلدان الغربية التي تتهددها الشيخوخة القومية والانقراض السكاني.

فيما لا يعن للطرف المقابل التفكير في اعتماد سياسـات تنظـيم الأسرة والاقتـصاد ورفـع مستويات إنتاجية الفرد.

القسم الأول

في معنى الضمير

أو مغزى الاجتماع

الـضمير في الإنجليزيـة [consciousness] وفي الألمانيـة [Bewusstsein] ، وهـما أكـثر دلالة على الوعي عمومًا ، ووعي الأنـا تحديـدًا. بيـنما يختلـف المعنـى العـربي للـضمير للدلالة على البعد الإنساني للفرد في علاقته بالآخر ، والذي يصل أحيانًـا إلى حـد تجـاوز ذاته لخدمة الآخر ، أو وضعها في خدمته ومصلحته. فالضمير يتجاوز (الوعي الـداخلي) إلى (الحس الأخلاقي) ، واعتباره معيارًا قيميًا لتعريف الأخلاق أو الحكم عليها.

المعنـى العـربي للـضمير أكـثر قُربًـا وانـسجامًا مـع مفهـوم التعـاطف [compassion] المسيحي والذي يتضمن معاني التشجيع المعنوي النفسي والمـساعدة الملموسـة. وأقـرب لمفهوم الضمير في رسائل بولس [2كو4 : 2].

معظم تعريفات الضمير الغربية استندت إلى القاعدة المادية لحضارة الغـرب المعـاصرة واتصالها بالعقل العلمي / الرأسمالي. وهـو منظـور تجـاوز البعـد الروحـي واختزلـه في جُملة أنظمة ومؤسـسات ماديـة. بمعنـى أن القـيم والأخـلاق والـدين أصـبحت تابعـة للمادة والمبدأ الرأسمالي الذي يشكِّل الغاية والإطار العام للحياة والحضارة الغربية.

فالحضارة الغربية تحددت واكتسبت هويتها المعاصرة ، مـن خـلال الانقـلاب الـداخلي على الروح ، والقيم الأخلاقية الأفلاطونية الكلاسيكية والمحدثة سواء. وقد كان الفلاسفة أول من انتبه وأنذر من عواقبها الإنسانية المدمرة في كتاب (سقوط الحضارة) لــ"كـولن ولسن" ونداءات "سارتر" (عارنا في الجزائر).

فالأزمة الأخلاقية التي يتمخض بها الغـرب تحـت عنـاوين متباينـة ، الأخـلاق أو الهوية أو الدين أو سقوط الحضارة أو نهاية التاريخ ، تتمحور في جوهرها حـول

الضمير بمفهومه الأصيل العربي والإنجيلي ، الذي يرفع القيم الروحية والأخلاقية السامية فوق المادة وفوق حدود الأنا.

الضمير بحسب بولس ليس أسمى نقطة في وجود الإنسان ، بل هو أكثر منه ، أسمى نقطة تقربنا من اللـه ، [أننا ظاهرون أمام اللـه ، وأرجو أن نكون ظاهرين أيضًا في ضمائركم]- (2كو5 : 11).

حيث يرد الضمير دائمًا مقترنًا بلفظ الجلالة ، ومقابلا له على الأرض : [إننا إذ رفضنا الأساليب الخفية المخجلة ، لا نسلك في المكر ، ولا نزور كلمة اللـه ، بل بإعلاننا للحق نعلن أنفسنا لدى ضمير كل إنسان]- (2كو4 : 2).

فهو يتجاوز هنا كل منظور مادي جسدي ، متساميًا بالإنسان إلى أسمى وأرقى تصور يحتمله العقل ، متجاوزًا حاجات الجسد والأرض ، مضحيًا بأغلى ما لديه، واضعًا ذاته في خدمة الآخر ، حسب قول الشاعر : الجود بالنفس أقصى غاية الجود !

دالة الضمير أنه القانون الأساسي الذي يقوم عليه الاجتماع البشري ، ولا مجتمع بشري حقيقي وكريم من غيره.

وما يعانيه الإنسان على مدى الزمن وفي كل مكان ، من آلام وأمراض وغربة واغتراب وإحباط ، إنما هو بكلمة واحدة ، جزء من نتائج غياب الضمير أو تزويره ومراوغته والزيغ عنه.

لقد نجح حكماء المجتمع القديم في اعتماد المعدل التكراري لبعض ممارسات البشر ، لاشتقاق جُملة من العادات والأعراف التي شكلت قواعد هيكلية لبناء الاجتماع البشري.

لكن هذه القواعد المشكلة لظواهر العائلة والقبيلة والدين والدولة والاقتصاد ، إنما كُتبت بالأسود والأبيض ، ولم تأخذ باحتمالات النسبية ، مما ترتب عليه تأرجح سلوك البشر بين نقطتين على غاية التطرف ، العُليا والسُفلى.

لقد دأب الإنسان أن يجهد وسعه ، لمضاهاة المعايير القيمية المتوارثة ، وبحسب مدياتها المطلقة. ومن أمثلتها : الكرم والثأر والظلم والكره والفخر والكبرياء والإزدراء والإيمان والكفر والثواب والعقاب والعلم والجهل وغيرها.

فليس في تلك المعايير نسب مئوية نصف أو ربع أو دون الربع والنصف أو فوقها بقليل أو كثير. وكان من شيم الأجداد السعي للتمايز واستحقاق الذكر السائر ، مما حدا بهم للاجتهاد حتى المنتهى وحافة التطرف.

فالكريم يسرف في كرمه حتى يسير بذكره الركبان ؛ والظالم يسرف في ظلمه ، حتى يكون دالة على الظلم ، والكاذب المفتري يسرف ويبالغ حتى قيل أجمل الشعر أكذبه ، وقس على ذلك.

يقول الباحث "جميل سعيد" إن العرب كانت تفتخر بالظلم والغلظة وتحتقر ما يخالفها. فإذا ظلمت ، أسرفت فيه ، وإذا قست بالغت ، حتى يسير الركبان بخبرها ، ويخشى الجميع شوكتها وتعرف منعتها.

وتدخر كتب التراث أخبار تلك الأيام ، وصيت كل قبيلة ودالة شهرتها. وهو ما ينطبق على نظرة قدماء المؤرخين للأمم والأقوام. فتميز بعضها بالشجاعة وغيرها بالجبن ، وبعضها بالحكمة ، وغيرها بالبلادة ، بحسب الجنس أو العرق أو الجغرافيا.

منظار الأسود والأبيض ، ومعيار التطرف والمبالغة في الكلام والسلوك ، كانت وراء تجريد النظام من مغزاه ، ليصبح حاضنة للفوضى والاضطراب بدل الاستقرار والأمن.

فالتطرف ومجافاة الاعتدال ، هي الوجه الآخر لغياب / تغييب العقل والحكمة ، وتجاوز الضرورة واللزوم إلى السفاهة والضرر.

من تداعيات هذا الأمر ظهرت دعوات الاحتكام للتوسط والاعتدال ، فأخذ به جمهور النُخبة من العقلاء والحكماء ، وتمادى في المبالغة والتطرف العامة

والغوغاء.

وفي هاته المفارقة تظهر أهمية ودور الضمير الشخصي باعتباره الموجه والمقود في التمييز بين الافراط والقلة ، والبخس من الثمين ، والتحكم في القول والفعل ، الحسن والقبيح.

ما من إنسان بغير ضمير ، ومعيار تمايز شخص عن سواء ليس المال ولا الجاه ولا العلم أو سواها ، وإنما يميز كل فرد ضميره ، ومرآة الضمير هي الأقوال والأفعال الصادرة عنه. وليكن كل امرئ أمام ضميره اليوم ، فيأمن سوء العاقبة.

تعلم أو تعليم

احذر التعليم الذي يضلك عن طريق المعرفة !

سليمان الحكيم

لا مفر للفرد من العائلة. العائلة هي بيئة الفرد ، ماؤه وهواؤه.

ولكن العائلة لا يجوز أن تكون مؤسسة عبودية. ونعرف جيدًا أن تربية العبيد غير تربية الأحرار والسادة. وظيفة العائلة إنتاج أفراد سادة وأحرار ، وليس إنتاج قطعان العبيد.

أدوات الأمر والنهي ، هي الأساس لمناهج التربية الشرقية ، والتي أنتجت على الدوام ، ظاهرة النفاق والرياء الاجتماعي. فترى الفرد يتصرف بين ذويه كما يريدون منه ، ويتصرف بعيدًا عنهم كما يريد هو.

ولكي يتمتع الفرد بالحرية ، ويستمتع بوقته وماله ، فأنه يختار مكانًا بعيدًا غريبًا عن مجتمعه وبلده ، ليتخلص من سلطة الرقيب.

عدم امتلاك الفرد لشخصية واضحة مستقرة ناضجة هو نوع من العوق النفسي والاجتماعي اللازم للمعالجة والتصحيح.

النفاق الاجتماعي والكذب الأبيض والستر والتقية والفهلوة جزء من نظامنا الاجتماعي والسياسي ، وبالحصيلة ، الكل يكذب على الكل. والكذب الصغير مثل الكبير ، والكذب الأبيض والأسود سيان. وعند الكذب ، يكذب المرء. الكذب هو اخفاء الحقيقة وإعلان الزغل. إنه التستر والتواطؤ والمراوغة والشيطنة والشطارة والاستغباء والضحك على النفس والناس والهزء بهم والانتقاص من قيمة الحقيقة والبشر.

في مراكز التحقيقات يتم استخدام الضرب ووسائل التعذيب بسبب الكذب. فالمحقق يعرف أن المتهم يكذب ولا بد من وسيلة تجبره على قول الحق والتوقف عن الكذب. من حق المتهم أن يزعم أنه صادق ، وأنه لم يكذب منذ رأت عيناه النور ، ولكن كيف للمحقق أن يتأكد ويصدقه في مجتمع يسوغ الكذب ويعتبره شطارة وفهلوة.

من حق المتهم أن يكذب لكي ينجو من العقاب ، ولكن ليس من حقه تضليل القضاء والتحقيق وتجريم الأبرياء.

ولكي نتحرر من آفة الكذب والإدعاء والمبالغة والفخر الخاوي ، نحتاج إلى الشجاعة والحرية.

وعلى العائلة والمجتمع المحلي التحلي بالشجاعة والحرية في العلاقات والمعاملات ، فتطبع الطفل بما يرى ويلمس. الحرية والشجاعة ليستا درسًا تعليميًا وإنما ممارسة وحياة.

ليس بالأمر والنهي من التراث العبودي ، وإنما بالعلم والبصيرة ، وتبيان الخير من الشر ، والحسن من السوء ، والنافع من الضرر ، ومنح الفرد حق الحرية في القول والفعل في اتخاذ القرار والتعبير عن الرأي وقول الحقيقة مهما كانت.

علينا التمييز بين شخص يسيء ، وبين شخص يعترف أنه أساء.

ففي الحال الثانية نستطيع مساعدته للتخلص من الأسباب والظروف الدافعة للسوء.

بل أن كثيرًا من السوء سببه الخوف من الأوامر والنواهي الكثيرة والمعقدة. فيخطئ الفرد ويضعف في مواقف معينة ويرتكب الخطأ.

التلقين هو أسلوب التعليم الشائع ، والتلقين سلطة قهرية ، تتنافى مع جو الاكتشاف والسؤال والتفكير الحر للعثور على الصح أو استدراك الحقيقة.

وتكوين الفرد يبدأ من الطفولة... وأجواء طفولتنا حافلة بالأخطـاء والجهـل والرعـب... ولا بد من تنظيفها وتهذيبها والارتقاء بها لتوفير أجواء صالحة لطفولة سليمة.

ولكن هل يمكن ذلك وأحد الوالدين ينقصه العلم والوعي اللازم والتهذيب.

كيف تصنع عائلة فاضلة والوالدان يتزوجان في سن المراهقة ، ولا يتـوفران عـلى كفايـة من فهم الحياة والاجتماع والتربية ؟.

في البدء كان المعنى

"لـودفيج فيتجنـشتاين" فيلـسوف نمـساوي وقـف جهـده لكـشف الـصلة بـين اللفظـة والمعنى. وبعد أن قضى وقتًا مديدًا بين قواعـد المنطـق وأصـول الرياضـيات ، اسـتوقفه حديث "أوغسطين" عن مراحل طفولته ومشاق التعلم الحثيث ومـا يتخللـه مـن عنـاء وخزي ، في طريقه لاستكناه مغزى حياة الإنسان (اعترافات أوغسطين) ، عاد لمراقبـة أو دراسة سلوك الأطفال الصغار في اكتساب المعرفة واللغة والعادات.

لقد كان أبرع اكتشافات فيتجنشتاين هو عـدم جـود صـلة بـين اللفظـة والمعنـى. وأن المعنى يتركـب في ذهـن الطفـل المـتعلم عنـد ربطـه بـين سـماعه الـصوت (اللفظـة) ، ومراقبته لحركات المتكلم وما يرتسم عـلى ملامـح وجهـه مـن انفعـال يفيـد التـوتر أو الانشراح ، الفرح أو الحزن أو الخـوف أو التعجـب ، ومـا يرافقهـا مـن حركـات الأيـدي واتجاه الأعين وردود أفعال المستمعين. ومع تكرار توارد تلك اللفظـة ومـا يرافقهـا مـن حركات ، تترسخ وتتأكد طبيعة الصلة بين اللفظ والمعنى المستوحى.

ثمة حالة قريبة من حالـة الطفـل ، ربمـا عاشـها كثـير مـن المهـاجرين والمقيمـين في مجتمعات تتحدث لغة غريبة عنه ، سيما في البـدايات. فالـشخص المغـترب يـصيخ السمع ويمعـن مراقبـة شخـصية المتحـدث لاسـتنباط المعنـى مـن حركـات الجـسد وملامح الوجـه ، وربطهـا باللفظـة المنطوقـة التـي لا يجيـد معناهـا. وعنـد تكـرار سماعه اللفظة ، تستعيد ذاكرته حركات الشخص وملامحه وما اسـتقاه مـن معنـى أو تأويل. ويعتمد إتقان المعنى على عدد مـرات التكـرار وتـشابه حركـات الجـسم والملامح المرافقة للفظ.

لكـن أسـاليب التحـدث ولغـة الجـسد والوجـه تتفـاوت مـن بلـد إلى آخـر ، ومـن دائرة ثقافية إلى أخرى. ولعلَّ العرب أقل حفاوة بلغة الجسد عند الحـديث. وباسـتثناء حالات الانفعال والتوتر والفرح ، لا يكاد صـوت المتحـدث يتمـوج أو يتغـير بمـا يـوحي بالمعنى.

فطرق تعلم الأطفال وسرعة التعلم ودقـة المعـاني تختلـف مـن جماعـة لأخـرى ، ومـن شـخص لآخـر. وفي سـنوات الطفـل الثلاثـة أو الخمـسة الأولى ، وهـي مرحلـة الـتعلم والاكتساب الأساسية ، تكون الأم ونساء البيت هم مجتمع الطفل الأول. بيـنما لا يكـاد الأب أو رجال البيت يتداولون كثيراً مع طفل يغمغم ولا يتكلم بوضوح.

هذه الظاهرة وأثرها على شخصية الطفل وعقليته ولغته ، تستحق مزيدًا من الدراسـة والتمحيص والمقارنات مع بيئات مختلفة ، لتقييم طبيعة نظـام اكتـساب الطفـل للغـة والعادات في عوائلنا وتأثيرها على عقليته وشخـصيته لاحقًـا. فالنوعيـة والدقـة وسرعـة التعلم من المعايير المعتبرة في الدراسات التربوية الحديثة.

الموضوع من جهة أخرى ، لا يتعلق بلغة الطفل فحسب ، وإنما يتعلـق باللغـة عامـة ، وبكل لغة بشرية بالتالي. انـه يمتـد إلى أول تلفـظ لـصوت الكلمـة ، وأول مـستمع لهـا ومدى إجادة المتحدث والمستمع لإتقان اللفظ والحركات والمراقبة.

هذا يبين مبلغ العناء والوقت الذي اقتـضاه ولادة أول مفـردة مقترنـة بمعناهـا. ومـدى بطء تجمع المفـردات الأساسـية لتـشكيل اداة اتـصال وتفـاهم نـسبية ، قبـل اشـتقاق مفردات وأصوات ومعاني جديدة من المفردات الأساسية. ولادة اللغة كألفـاظ والتحـاق المعنى والدلالة بها ، يبدو أكثر صعوبة من ولادة ونمو وتطور طفل الإنسان.

وإذا كان هذا حال المفردات الأساسية المتعلقة بالحاجات والسلوك ، فكيف يكون أمر المفردات والمصطلحات المعنوية الأدبية والفلسفية ، والتي تعج بها القواميس والمعاجم المتخصصة.

ربما... لا أحد اليوم ، ممن يتداولون اللغات ، يخطر له التوقف والتفكير في جوانب الموضوع ، كما خطر لفيتجن شتاين في بدايات القرن الماضي ، لكن الضرورة تستدعي تأمل كثير من مفرداتنا اللغوية ومدى علاقتها بالمعاني المتصلة بها ومدى دقتها.

وهل نتكلم نحن بدقة ونعني ما نقول ، في شعورنا وسلوكنا ؟...

- ماهية الإنسان... !

جميعنا يعتقد أنه يعرف الإنسان...

معرفتنا بالإنسان تعود إلى تلك البينات الأولية المكتسبة منذ الطفولة عن ذلك الكائن الناطق المتحرك على قدمين والأليف القادر على التواصل الإيجابي مع محيطه. وبحسب تلك الصورة التقليدية ، يشعر أحدنا بالفخر لكونه إنسانا.

لكن هذه الصورة صارت تقليدية جدًا اليوم ، ولا تساعدنا في فهم النسخ الجديدة الرائجة من الإنسان.

بل هي تزداد رواجًا ، بحيث دفعت كثيرين من أتباع الصورة التقليدية لاستعارة الطبعة الجديدة ، وبشكل جعل التقليديين أقلية مهددة بالانقراض.

الصورة الرائجة في وسائل الإعلام والصور المتحركة ، أفلام الكارتون والألعاب الإلكترونية تختلف عن المخزون في ذاكرتنا قليلاً أو كثيرًا.

في البدء اعتقدنا أنها مسألة (فكشن) ومادة إثارة ، لكن الصورة خرجت عن إطار الفكشن والتلفاز إلى مضمار الواقع.

العجز عن التطور والتجديد أنتج موضة من العبث والتمرد وتشويه التقليد.

الإحساس بالعدمية دفع للتعويض بالقدرة على استثارة الآخرين.

فكرة استثارة الاخرين صارت معيار النجاح الاجتماعي الذي صار تفسيره القدرة على تكوين علاقات مع آخرين.

يقارن أحد الأبحاث في هذا المجال بين شخصين : أحدهما شخص مظهره عادي بثياب لائقة ، يدخل المقهى أو البار بهدوء ويجلس إلى طاولة ما بتهذيب. والثاني شخص مشط شعره بشكل مقزز ، ملونًا بعض شعرات في مقدمة الرأس بلون أزرق أو بنفسجي ويرتدي بنطالاً ضيقًا وسترة كبيرة وقد ربط أزراره بشكل غير متناظر ، يقف على عتبة المقهى ويطلق صرخة نابية أو ضحكة مقززة... إن الجالسين في المكان سيلتفتون مباشرة للشخص الثاني ، قد يستاء بعضهم ، ولكن البعض الآخر سوف يبتسم ويتقبل الموقف. والمحتمل أن يجد أكثر من شخص يدعوه للجلوس ومشاركته الطاولة والحديث.

الشخص الثاني ، أكثر نجاحًا من الأول في اكتساب العلاقات وإثارة المجتمع. أما الشخص الأول ، والذي قد يكون من زبائن المحل لعشرات السنين ، فقد يموت ولا يعرفه غير النادل ، وربما شخص أو اثنين على شاكلته.

في قصة لكاتب نمساوي ، مثال للشخص الأول. شخص وحيد منطوٍ على نفسه ، فجأة تبدأ الرسائل تنهال عليه ، بشكل يزعج ساعي البريد ويثير شكوكه ، حول سر التغير المفاجئ ، وظهور معارف كثر لشخص وحيد لم يكن له صديق منذ نزل في العنوان. المفارقة التي ستكشف ، بعد موت الرجل ، أنه هو الذي كان يكتب الرسائل لنفسه ، بأسماء مستعارة لأصدقاء وهميين ، ليدخل شيئًا من التغيير على حياته.

الوحدة والكآبة ، من العوارض الاجتماعية المترتبة على طبيعة الحياة في المجتمع الرأسمالي ، وذلك على حساب العائلة والعلاقات والتقاليد الاجتماعية المتعارفة.

تسلط المادة على خناق الحياة وتأرجح الإنسان بين العمل وفواتير الدفع وارتفاع الأسعار والضرائب ، لم يترك له هامشًا لائقًا من الفائض المالي لتدبير تكاليف العائلة والمتطلبات الاجتماعية ، مما جعله منزويًا ومعتكفًا عن الزواج والعلاقات بما يحفظ بقية مرتبه ووقته لحالات المرض والطوارئ.

في وقت لاحق ، صار على الزوجة أو شريكة الحياة أن تكون مستقلة ماديًا بنفقاتها وتساهم في مصروفات البيت والفواتير. فالثورة الصناعية والرأسمالية غيرت مفاهيم العائلة والأطفال ، وقوضت قواعد الاجتماع البشري إلى نوع من القنانة الصناعية الاستهلاكية المجردة من العواطف والمشاعر والاهتمامَات الإنسانية العامة.

بعد أكثر من قرن ونصف على التحول الرأسمالي العبودي ، وتقوض مفاهيم العائلة والرعاية الاجتماعية ، فإن تاريخ الفرد الأوربي المعاصر قد اختلف تمامًا. ولم يعد من السهل مقارنته بطراز أو سياق عادي.

والأبحاث الاجتماعية والنفسية في النظام الرأسمالي مسخرة بالكامل للرؤية الرأسمالية للحياة والإنتاج.

[منتج (أو) مستهلك]... هي وظيفة الإنسان المعاصر. وبغير حلقتي الإنتاج والاستهلاك تتوقف عجلة التراكم الرأسمالي.

ومجتمعات العالم الثالث العاجزة عن الإنتاج تمَّ تحويلها إجباريًا إلى مجتمعات استهلاكية بامتياز وبمعدل عال ، سواء في مجال السلع الاستهلاكية الأساسية وغير الأساسية ، أو جداول الإنفاق العسكري الجنونية التي تشكِّل المجال الأضمن للاستهلاك ودعم عجلة السوق الرأسمالية ، بينما تزداد مديونية المجتمعات الاستهلاكية ويتراكم عجزها المستديم.

•

الإنسان ليس كائنًا مفردًا ، هو كائن اجتماعي.

مبدأ الاجتماع ، من خلال مفهوم الآخر ، كان الخطر المهدد والمنافس لكيان الفرد.

لمواجهة هذا التهديد وتنظيم العلاقات ، وُلِد نظام العائلة والعائلة الكبيرة ، المجتمع المحلي والوطني ، ليشكِّل سياجًا دفاعيًا ومعيارًا تنظيميًا للعلاقات والحدود بين الأفراد والمجتمعات. واليوم تتعرض الحدود البلدانية والوطنية والمحلية والعائلية للتهميش والتقويض ، ليقف الفرد عاريًا أمام عجلة الماكينة الرأسمالية : الوطواط أو الفك المفترس.

أحد الانتقادات الجوهرية لنظام العقود والاتفاقيات هي عدم تساوي طرفي العقد من الناحية القانونية والمالية والسياسية. وفي النظام الرأسمالي ؛ حيث تسيطر الشركات والمؤسسات على كل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية - حلت محل الدولة -.

وللحصول على عمل أو شراء جهاز تلفون أو استئجار نزل ، أو تقديم شكوى ، فإن التعامل يتم مع مندوب شركة أو ممثل مؤسسة أو دائرة قانونية ، هي التي تمسك بناصية المعاملة ولها مسودة العقد ، والمسؤولة عن صياغة بنود العقد وشروط الاتفاق ، بينما الفرد مجرد عارض طارئ - عريان من غير ظهر - ، ليس له غير خيار القبول والمساومة أو الرفض والخسارة.

وبحسب اللوائح القانونية وقواعد تسجيل الشركات والجمعيات ، تحصل المؤسسات على دعم رسمي منتظم ، وهي الأكثر مقدرة وأهلية ، عبر دوائرها الفنية والقانونية المختصة بالتعاطي وإقناع دوائر الدولة المعنية حول الأمر.

فيما يعاني الفرد عدة معوقات وحواجز للعناية بطلبه.

فالعامل إزاء الشركة ؛ الزبون إزاء شركة التأمين ، المريض إزاء مؤسسة التأمين الصحي ، وهكذا إزاء جُملة واجهات الحياة والعالم ، المشخصنة في

صور شركات ومؤسسات رسمية وشبه رسمية لها تسجيل قانوني وكادر قانوني ونفوذ مالي ، وحماية دستورية وطنية ودولية ، هو الإنسان الفرد وحيد عار ، إن لم يكن رجل أعمال له نفوذ مالي وحماية قانونية وشخصية اعتبارية يحميها الدستور ، أو يكن محميًا مكفولاً من حزب أو مؤسسة رسمية أو عائلة متنفذة.

أي وكيل إعلاني ، أو مندوب شركة التلفزة ، له حق مكفول قانونًا أن يطرق بابك في أي وقت ويطلب الإطلاع على رخصة التلفاز أو يفرض عليك غرامة باهظة فورية عند الممانعة ، أو سوقك للمحكمة واتهامك بشتمه أو ضربه أو منعه من ممارسة عمله ، وكل ذلك في ظل دولة القانون والديمقراطية.

لكن الشر الأعظم - مهما عظم ! - ، ليس في المبادئ والبنود القانونية ، وإنما في الأشخاص الذين يتداولونها ، وبشكل مبالغ لتسخيرها لمكاسبهم وأطماعهم والتغطية على امراضهم الاجتماعية والنفسية والخلقية.

فعندما يتجرد الفرد من خاصة الإنسانية التي تجمعه بأخيه الإنسان وبالطبيعة السوية ، يتحول نفسه إلى مفترس لحوم بشرية ، وكائن متوحش تحت جلدة خروف أو ستار القانون والدين ، لخدمة آفة الطمع والانتقام.

ومن المؤسف ، أن المجتمع الرأسمالي ، والمتوسع إمبرياليًا في القارات المختلفة يقوم على مافيات - التعبير الأكثر دقة عن المؤسسات -. بحيث أن بعض دوائر الدولة أو المحامين لا يجازفون بتحدي الشركات والمؤسسات أو المافيات الرأسمالية العابرة للحدود.

وعندما تجتمع مافيات الاقتصاد والسياسة والدين تحت قبعة واحدة ، يفقد المرء المستقل كل حقوقه وامتيازاته التقليدية ، ويتحول القانون إلى حبر يابس على ورق فوق الرفوف ، ليس له غير الخضوع والاستكانة لاستمرار حياته ، أو الهجرة والتمرد.

السلطة التي بدأت في يد الملك أو الإمبراطور ، وجدت مصلحتها في التحالف

مع رأس المال الاقتصادي والمؤسسة الدينية ، وحبك الخيوط والحبال حول عنق الفرد ، بحيث لا يترك له خيار للحياة غير الاستكانة للثالوث المفترس.

•

ليس الإنسان وحشًا ، ولا شريرًا ولا مجرمًا... وإنما ظروف البيئة هي التي تدفعه لرد فعل معين ، يناسب ويواجه الفعل المسلط عليه.

وعندما يكون الفرد وحيدًا ، مجرَّدًا من الحماية الاجتماعية ودعم القانون والدولة فإن ردود أفعاله ستزداد قسوة وفظاظة. فالطفل اليتيم ، وابن البيئة الجافة ، أكثر فظاظة من الطفل الناشئ في أحضان دفء عائلي ومجتمع رخاء مستقر.

وقد حرص ثالوث السلطة على تقويض كل قواعد المجتمع الطبيعي والمتطلبات الإنسانية الملائمة ، وإشاعة عوامل الاضطراب وعدم الاستقرار ونقص متطلبات المعيشة والأمن والنظام - في غير ما بلد - ، بشكل يوفر له كل دوافع التمرد والعنف والخروج عن السلوك الطبيعي اللائق.

وبه تحقق المافيا كل أغراضها ، فمن جهة ، جعلت الفرد ضعيفًا مهزوزًا ، ومن جهة هو متمرد فوضوي خارج على القانون ، ويستحق بحسب اللوائح العقوبة المناسبة ، ومن جهة ثالثة ، يمكن شموله بالرعاية النفسية والاجتماعية وإعادة ترويضه واستخدامه لخدمة المافيا.

القرن الجديد هو قرن التظاهر والاعتراض على الدولة وفساد مؤسساتها وأشخاصها وتحالفاتها الداخلية والخارجية ضد الإنسان وحقوقه الإنسانية. وسوف تتسع رقعة المظاهرات وتنتشر في أوربا وأقصى آسيا وكل القارات... مع الزمن !

أوربا هي الأكثر رعبًا من مثل هذه المظاهرات والاحتجاجات عند حصولها في بلدان أوربا الغربية والولايات المتحدة كمليونيات شعبية كاسحة كما حصل في مصر.

لكن قوانين التظاهر والاحتجاج الديمقراطية الأوربية لا تسمح بأي شكل من أشكال التظاهر والإضراب والاعتصام بغير أذن من الجهات المعنية وموافقة ومرافقة قوة كافية من البوليس. وتقتضي الموافقة تقديم طلب كامل يتضمن أسباب وأهداف التظاهر وأسماء القادة المسؤولين والجهة السياسية وراءه وحجم المشاركين في المظاهرة ، وبشكل يضمن حركة التظاهر والمطالب في إطار القانون وعدم تهديد النظام. وبحيث يتم توفير قوة عسكرية كافية ترافق المتظاهرين من البداية حتى النهاية ، وتسجيل كل الممارسات والخروقات وتقديمها للمراقبة والمعالجة القانونية.

المجتمعات الأوربية تحكمها أحزاب سلطوية - مافوية - متحكمة بقطاعات الاقتصاد ومدعومة بقوة البوليس الأكثر من الجيش في بلدان العالم الأخرى.

لكن معدل القهر والاضطهاد الذي يعانيه الفرد الأوربي ليس أقل من نظيره الأسيوي. وهناك ارتفاع خطير في معدلات الفساد والجريمة والانتحار والانفصال في الغرب ، بشكل لا يمكن أن يستمر طويلاً.

لقد كشفت العولمة ، خلال أقل من ربع قرن ، مبلغ بشاعة العالم. لكنها في الواقع بشاعة الرأسمالية والحلف الأسود بين السلطات الثلاث.

والتظاهرات والاحتجاجات المتزايدة ، صرخة حق للعودة بالإنسان والحياة إلى طبيعتها الإنسانية بعيدًا عن اللهاث الأعمى وراء المادة وتسليع الحياة.

في معركة الحاضر ، يتحمل الأكاديميون والعلماء مسؤولية التزوير وتضليل الرأي العام ، كمؤسسات فقدت شرعيتها ومصداقيتها ، من أجل خدمة السلطة ورأس المال.

إنهم الآن ساكتون ، متأملون تبخر الحماسة ، ومدى مقدرة الحلف الأسود على تفريغ الشعارات وترويض الجماهير وإعادتهم إلى خنوعهم. ولكن...

العائلة الفاضلة

أساس الفرد والمجتمع الفاضل

الإنسان يولد من امرأة ، لا ينمو بذاته من بـذرة في الأرض أو عـلى سـفح تلـة. وعقـب ولادته يرضع من ثدي امرأة وينمو في حضنها. وفي رضاعتها ورعايتها له ، فهـي تتعامـل معه وتكلمه وتناغيه وتبثه بعض مشاعرها ولواعجها. والطفل يشعر ويراقب ويـستمع ما يصدر عن الأم ، ويخزنه في شرائط لاوعيه الكامن ، لكي يـستطيع اسـتخدامها عنـدما يكبر.

ويقول بعض العلماء اليوم ، إن الجنين وهو في رحم أمه ، يفرح ويحزن ، وينفعل لكـل انفعالات ومشاعر الأم ، ويستمع لما يصدر من أصوات تصله من الخارج. مما يعنـي أن علاقة الطفل بالعالم تبدأ في وقت مبكر جدًا ، وتسمى علاقة الطفل بالعالم بالاكتـساب. فهو يكتسب كل ما يسمع ويرى ويلمس ، ويختزنه في ذاكرته.

بل أن كل ما يدور في محيط الطفل يلتقطه ويحفظه رغـمًا عنـه بـشكل لا إرادي في لا وعيه الباطن. وتبقى تلك المعلومات هناك جـاهزة للاسـتعمال والوثـوب - في الوقـت المناسب - ، في سلوك الطفل وشخصيته وتفكيره ومزاجه وحديثه.

غالبًا ما ينتبـه الأقـارب إلى طريقـة مـشي الطفـل أو طريقـة حديثـه ، أو حركـة عينيـه وملامح وجهه أو ضحكته ، ويصرخون مدهوشـين ، أنـه يقلـد فلانًـا. لكـن الطفـل غـير الواعي لا يعرف ما هو التقليد ، وإنما يترجم المعلومات والإشارات المخزونة في حافظته. وقد لا تظهر تلك الآثار في وقت مبكر ، وتتأخر إلى مراحل متقدمة من نموه. في العموم ، تتغير شخصية الطفل تبعًا لنموه ، وتبعًا لاستدراكه لقاعدة البيانات المحفوظة عنده.

ولا غرو ، أن الطفل النامي في محيط نسوي ، تـنعكس ملامـح الأنوثـة في أحـد مراحـل شخصيته ، كما هو العكس تمامًا.

وفي مجتمعات الغرب التي تشيع فيها ظاهرة "السنغل مام" ، زادت في العقـود الأخـيرة ظاهرة الخناثة أو الميول الجنسية المعاكسة عند الأطفال.

ويشيع بين المحللين الاجتماعيـين والنفـسيين القـول أنهـا ميـول طبيعيـة لعـدم اكـتمال التمايز الجنسي فسيولوجيًا. والـصحيح أنهـا انعكـاس طبيعـة المحـيط الاجتماعـي عـلى الأطفال. ويلحظ بالمقابل ظاهرة الصبية والاسترجال عند الإناث ، وهم الفريق المقابل ، أي بنات "السنغل داد".

ظاهرة السلوك الجنسي المنحرف أو المـثلي ، لهـا جـذور قديمـة في مجتمعـات الغـرب ، تعود إلى أيام الإغريق والرومان وبيزنطة ، التي كانـت تعتمـد في الغالـب عـلى تجنيـد الرجال في الحرب لسنوات طويلة ، يُمنع خلالها المقاتل مـن الـزواج حتـى تنتهـي مـدة عقد الجندية البالغة ربع قرن. بعدها يمكنه الزواج وتأسيس عائلة.

لكن البعض يراوغ القانون ، ويتخذ له عـشيقة أو زوجـة سرًا. فينـشأ الطفـل في غيـاب الأب وفي محيط عائلي يكاد ينعدم فيه الرجـال ، مـما يـترك أثـره في طبيعـة الشخـصية وسلوكها لاحقًا.

وقـد وجـدت الظـاهرة قبـولاً لـديهم لـشيوعها ، واسـتنادًا لمبـدأ التـسامح أو الانفتـاح الأخلاقـي عنـدهم. والأفـضل بطبيعـة الحـال الحـرص عـلى التـوازن الأسري الطبيعـي ، وصيانة قوام العائلة من الطرفين.

وما من مبرر أخلاقي لسلوك انتهازي براغماتي داخل العائلة ، واستخدامها جسرًا مؤقتـًا لتحقيق مكاسب وقتية محددة ، دون اعتبار أضرارها على الآخرين.

ومـا يـزال المجتمـع الغـربي ، البريطـاني تحديـدًا ، يـشجع ظـاهرة عوائـل الـسنغل ،

وتبيح قوانينه الجديدة ، ليس زواج المثليين ، وإنما حقهم في تبني أطفال وتنشئتهم ، نشأة منحرفة السلوك والتكوين النفسي للطفل.

العائلة المتماسكة دعامة نفسية وأخلاقية ضرورية لنشأة فرد سليم. والعائلة المعلولة أو فاقدة أحد أركانها ، تنتج أفرادًا معلولين ضعفاء التكوين النفسي أو الأخلاقي.

وكما يتم على الدوام التأكيد على ضرورة توفير رعاية كافية للأرامل والأيتام ، فإن التعويض الاجتماعي النفسي والمالي لفقدان أحد الأبوين ، ينبغي أن لا ينعكس سلبًا على نفسية الطفل وشخصيته.

نسبة الانحراف الأخلاقي والنفسي والجنسي في مجتمع هو دالة انهيار وتردي ، ولا يجوز التغافل عنه أو تسويغه كحالة طبيعية كما في المجتمع الرأسمالي.

فمن الأضرار الفادحة المنعكسة في مجتمعاتنا - لبنان والعراق وسوريا - هي الانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية للحروب على العائلة والفرد ، مما أنتج مجتمعات مهلهلة من كل النواحي ، ليس اجتماعيًا وخُلقيًا ، وإنما سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا أيضًا. فلبنان والعراق وسوريا ما بعد الحروب ، بعيدة كل البعد عما كانت عليه قبل الحروب. وهي حالات لا تسرُّ الأصدقاء !.

العائلة ككيان قائم على التعاون والتضحية ، وليس صفقة اقتصادية مالية أو سياسية.

دخول الميكافيللية والانتهازية في رباط العائلة هو شرٌّ محيق بالفرد والمجتمع من بعد. وهو من تبعات تردي القيم والسلوك الفردي. قد يستطيع فرد إتباع سلوك معين لتحقيق مكاسب سريعة / وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة !. لكن الفرد الطماع ، عليه أن يدرك أن لسلوكه عواقب ومترتبات موجية مستمرة ، سوف تنعكس عليه سواء آنيًا ، ومستقبليًا ، وسيكون هو نفسه مسؤولاً عنها ، ومشاركًا في تدمير الحياة والإنسان والعالم ، بطمعه وشرهه وغبائه.

لا شك أن كلاً منا يرى أطفالاً... نساءً... يعانون من نكد الحياة ، وهم أبرياء... ثمة صورة إنسانية ممزقة تواجهنا.

من الكتب التي تربينا على قرائتها كتاب جبران (الأجنحة المنكسرة) وكتاب طه حسين (المعذبون في الارض).

نعم هؤلاء لم يخطئوا. لكن ذويهم أخطأوا. أو أخطاء سابقيهم ، انعكس عليهم. الشخص الشرير يستطيع التسلل والنجاة من العقوبة ، لكنه لا يبالي عندما يسقط جزاء العقوبة على شخص سواه بريء.

ليس كل الذين يدخلون السجون أو يُحكمُ عليهم بالموت ، مجرمين وقتلة. لكن اللصوص والقتلة نجحوا في الفرار ، وتركوا العقوبة تسقط على سواهم. هذه المفارقة أو المبادلة ، على أرض الواقع ، تحصل في سياق الطبيعة أيضًا.

إن كيان الفرد يقوم على العمل والإبداع والاجتهاد والتجديد ، وليس على السرقة والقرصنة. ولابد - آجلاً ، أو عاجلاً - أن تقوم المجتمعات المتضررة بالحروب والاضطرابات العسكرية والسياسية ، تقوم بانتفاضة شعبية وثورة ثقافية ، لتصحيح القواعد وتنظيف الأُطر والكيانات من أسباب الفساد ومتعلقاته.

ومن غير التطهير الاقتصادي والاجتماعي الناجز في أركان المجتمع والاقتصاد والدولة ، سوف يستمر غياب النُخب المجتمعية الجديرة.

وتستمر الطبقات الجديدة التي أنتجتها الحروب والصراعات في التحكم في السياسة والاقتصاد والمجتمع والدين ، وفي ذلك القضاء المبرم على المستقبل.

العائلة الفاشلة

- أول لقاء بين شخصين انتهى بالخديعة والسقوط.

- أول جريمة على الأرض كانت داخل العائلة ، وبين أخوين.

هاته الإشارات البسيطة تضمنتها قصة التكوين التوراتية والأساسية في الديانات الثلاثة الرئيسية في الشرق الأوسط.

أكثر منه ، يقول النص : (يترك الرجل بيت أبيه ويلتحق بزوجته !)...

وفي تطبيق النص ، يترك آدم المنزل السماوي ويلتحق بالمنزل الأرضي.

فالزوجة ، الأنثى ، لها دلالة الأرض ومتطلباتها وطبيعتها الوقتية الزائلة.

والإنسان ، الكائن الاجتماعي الذي لا يعيش بمفرده ، هو قرين الأرض والتراب والأغبرة والرغبات العابرة.

يمكن لنا الاحتجاج وتفنيد النص ، ولكن علينا دعم الاحتجاج بالواقع والبينة الأرضية. والمؤسف أن لا نستطيع الارتفاع بواقعنا والارتقاء بأنفسنا إلى مستوى الحلم والنظرية ، وأن يبقى الجنس البشري يراوح في مكانه ، بل يتراجع دونيًا مع الأيام. فالحياة السلوكية ومضمار الرغبات والمشاعر والأفكار والأفعال في تدهور وانحدار...

الطمع والحسد والغيرة ، ثلاث آفات مركزية قرينة وعي الذات ، قرينة تدمير الذات أيضًا.

وظيفة الأخلاق والمعرفة والحكمة والعلم والفلسفة والفكر هي واحدة ، توعية الإنسان للتمييز بين الخير والشر ، بين الحسن والقبيح ، بين ما يرفع وما يحط ويرذل. وفي القرن الواحد والعشرين تقدمت العلوم والمعارف وتطور الوعي والإدراك ، وسقطت الأخلاق والقيم.

إنسان اليوم يعيش في المجتمع ، ولكنه يفكِّر في نفسه فقط ، يفكِّر في خدمة نفسه على حساب حياة الآخرين.

معيار نجاح الفرد هو حذقه في سرقة الاخرين.

الذكاء الاجتماعي يتحدد بمقدرة المرء على خداع المقابل وسرقة ما بجيبه.

- من أين يبدأ الشر ؟

المدرسة الرأسمالية تعتبر الشر في أصل الإنسان.

والمدرسة الإنسانية تنسب الشر لأساليب التربية الخاطئة والمنحرفة في العائلة والمحيط الاجتماعي.

الإنسان يحب التقليد والاحتذاء. وعندما يكون الأب أو الخال في العائلة ، والمعلم في المدرسة والبطل في المجتمع والتراث شخصية إنسانية حكيمة ، يسعى الفرد في الظروف الطبيعية لاحتذائه ؛ والعكس بالعكس.

عندما كنا في طفولتنا نقرأ كتب التاريخ والتراث والوطنية ، ننظر إلى رموز التاريخ والوطن كأنهم ملائكة يجمعون بين البطولة والبر والتقوى.

وفي حياتنا السياسية والاجتماعية كانت بعض الجماعات الأيديولوجية تقدم صورة مشوهة عن التاريخ والوطنية ونظام الحكم.

ومع حركة الزمن ، انتصرت الدعاية السياسية الدخيلة على مصادر الثقافة الوطنية ، وصارت السلعة الأجنبية أفضل مكانة وأعلى اعتبارًا من السلعة الوطنية ، والشخص الأجنبي أفضل من أبناء الوطن ، واتسعت الشقة بين الفوقية الدخيلة والدونية المحلية ، وفي النتيجة فقدنا احترامنا لأنفسنا ، وفقد الوطن والشعب اعتباره لدينا.

فالمنافسة الثقافية ، الاجتماعية ، الاقتصادية ، والحرب الباردة ، والمفاخرة بين الفرد وجاره ، وبين المظهر والجوهر ، هي دأب المرء... بدل بناء الذات

وتطوير الواقع ، وتنمية محيطنا الاجتماعـي ، بـدلاً مـن الـسخرية والاسـتياء والهـروب منه.

نحن ننظر للآخر ، نطمع فيه ، نحسده ونغار منه ، فنلاحقه ونسرقه ، ولا نتركه إلا بعد إفقاره وخراب معيشته. بينما كان أولى بنا التعلم منه بما ينفع حياتنا ويبني واقعنا بمـا يقربنا منه ويجعلنا نتعاون ونتكامل معه ، ونضيق المسافة بين الشرق والغرب.

لقد انحدر مفهوم العائلة خلال العقود الأخيرة بشكل مريع ، وعلى كل مستوى.

وبالمقابل انقطع المجتمع عن تقديم نُخب علمية وثقافية وسياسية كـما كانـت الحـال قبيل نصف قرن. مجتمعاتنا اليوم بلا نخب ولا قدوات ولا نجاحات معتبرة. رغـم كـثرة المهاجرين والدارسين في الغرب ، وفي أرقى جامعاته وبلدانه ، كما يقال.

ما نزال نقتات ونوقر ونقتـدي بأدبائنـا ومفكرينـا ورموزنـا الـسياسية قبـل قـرن حتـى نصف قرن. وفي الواقع الثقافي توقفت حركـة التجديـد والريـادة الأدبيـة. ومـع تـضخم أعداد الجامعات وكوادرها ، تضاعف التخلف الاجتماعي والانحطـاط الأخلاقـي وغـاب وازع الخجل والحرج.

صارت لدينا ديمقراطية وبرلمانات وازدادت المشاركة النسوية في الحياة النيابية ، ولكـن المرأة النائبة تجلس ملتفة بالعباءة والأغطية وعاجزة عن تحريـر جـسدها مـن سـطوة التقاليد البالية ، وتريد أن تطور المجتمع وتحرِّر سواها من التخلف والفساد.

أشياء أدنى إلى صور الكاريكاتير ، ومستقبل في رداء / رداءة الماضي.

العامل الأول في تهديد وتقويض التنمية الاجتماعية والعمرانية لحكومات ما بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة في البلـدان العربيـة ؛ كـان الانفجـار الـسكاني ، والنمـو المضاعف لحجم السكان. وما من نظام في كل العالم ، يستطيع استيعاب حاجـات

سكانية تنمو بشكل مضاعف ، وثم يجري اتهام الحكومة وتسقيط النظام بحجة عدم تلبية حاجات السكان.

ففي حين كانت حكومات العالم الثالث تحث خُطاها لبناء نهضة عمرانية اجتماعية ، كانت مجتمعاتها تنمو بمعدل مضاعف.

وأي دراسة إحصائية لحجم السكان العالمي أو البلداني بين الخمسينيات والثمانينيات يكتشف النمو المضاعف في حجم السكان ، مقابل تراجع معدل النمو الاجتماعي الأوربي عمومًا. مما زاد في حجم العبء الاقتصادي والعمراني على بلدان العالم الثالث.

ويشترك عاملان في زيادة حجم السكان ، أولهما تحسن مستويات المعيشة والرعاية الصحية ، يقابلها الوعي الديني الجديد لزيادة الإنجاب وتعدد الزوجات.

وفي بلد مثل مصر ، حاولت حكومة السادات تطبيق قواعد تنظيم الأسرة بالتكامل مع الرعاية الصحية ، وأنشئت هيئة عليا لها بإشراف جيهان السادات ، لقيت معارضة شديدة من التيار الإسلامي وانتهت باغتيال السادات.

وطيلة عهد خلفه مبارك كان المصريون يزدادون بحجم مليون وربع نسمة سنويا. فتفاقمت أزمة السكن وانتشرت العشوائيات ، وعجزت البنى التحتية عن تلبية النمو في الخدمات البلدية وفرص العمل ومواد المعيشة.

في المثال العراقي يدخل سباق المكونات العرقية والطائفية للفوز بالأغلبية مجال التنافس الإنجابي سواء في زيادة العمر الإنجابي للمرأة الواحدة أو تعدد الزيجات.

ويذكر أن الحكومة العراقية في سبعينيات القرن الماضي ، أصدرت جُملة قرارات اجتماعية منها قانون الأحوال الشخصية الذي يحدد سن الزواج ويمنع الزواج بثانية إلا بموافقة الزوجة الأولى إلى جانب تحسين حقوق المرأة ودخولها مجالات العمل المختلفة.

ومثل كل قرار أو قانون مدني يخدم تطور البلاد والمجتمع ، كانت المعارضة السلبية تلعب دورها بشكل أو آخر. فاقترنت الوصايا الدينية مع الوصاية الحزبية والقبلية للمكون الكردي برفع معدل الإنجاب وإكثار النسل.

ويمكن العودة أيضًا للإحصاءات السكانية لكل مكون لدراسة سباق الإنجاب بين الكتل الكبيرة وضغطها المضاعف على برامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، في زمن كانت الحرب عاملاً مضاعفًا على عاتق الدولة.

الملمح الأبرز في الانفجار السكاني في الشرق الأوسط خلال عقد السبعينيات وما بعده يتمثل بشكل أوضح في قطاع الشباب وانعدام فرص العمل وصعوبة تكاليف العيش. وقد ترتب على ذلك نتيجتان أو ثلاث هي سمات الألفية الجديدة:

1. تفاقم الهجرة للخارج وفي مقدمتها الغرب الأوربي.
2. أزمة العنف الأهلي والمتمثل في التنظيمات والمليشيات الدينية المسلحة.
3. تفاقم أزمة العنوسة عند الجنسين ، سيما في مصر والشمال الأفريقي.

عندما تنعدم لقمة العيش والاستقرار النفسي والظروف الطبيعية ، فإن المسؤول الأول عنها هي العائلة المنتجة للأطفال ، من غير حساب أو دراسة تقدر إمكانياتها في إعالة الطفل وتربيته بشكل لائق ، بعيدًا عن العشوائية الاجتماعية والشعارات الدينية.

لكن الفرد الذي يجد نفسه داخل علبة دزينة من الأطفال يتنافسون ويتصارعون حول المأكل والملبس والمنام ، لا يجد غير الهروب من واقع الأسرة العشوائية إلى الشارع والمجتمع لإشباع حاجاته ، وهناك يجد التنظيمات المعادية في انتظاره ، أو ينخرط في مافيات الفساد والجريمة.

ويمكن على العموم ، الربط بين ظاهرة الانفجار السكاني للسبعينيات وما بعدها وبين انفجار تظاهرات الشباب في أواخر العقد الأول من الألفية الجديدة ، من أجل الخبز وفرص العمل والحياة اللائقة.

إن الشعار الرئيس لتظاهرات الخبز والعمل ، كان المفروض أن تتجه لإسقاط نظام العائلة العشوائية والعائلة الفاشلة في تخطيط حياتها وتأمين مستقبل أطفالها بدل انتظار حل سحري من حكومة محدودة الإمكانيات والظروف.

وكان لابد أن تتكرر تظاهرات الشباب المصري المرة تلو المرة ويتكرر إسقاط الحكومة تلو الحكومة ، في انتظار حكومة لها خاتم سليمان أو مصباح علاء الدين.

النتيجة الأخرى المترتبة على الانفجار السكاني والعشوائيات الاجتماعية هو تفشي الجريمة والفساد والتحلل الخلقي ، وهي الأكثر خطورة ، وصعوبة على الحل.

إن الفساد الإداري ، ليس سبب فساد حاكم أو حكومة أو نظام ، إنما هو فساد الموظف الذي هو فرد من عائلة ومن بين أبناء المجتمع. ولا يوجد الفرد الفاسد لوحده ، وإنما يوجد ضمن منظومة أو إخطبوط ، هي جو الفساد الاجتماعي أو السياسي أو الإداري.

ولم تكن ظاهرة الفساد الإداري عامة قبل الثمانينيات عمومًا. كانت ثمة إجراءات صارمة وعقوبات جزائية تلاحق المرتشين والمفسدين.

كما أن الفساد لا ينحصر في مجال الحكومة ، وإنما القطاع الخاص وتجار المفرد. والموظف والتاجر وبائع المفرد له زوجة وأطفال وعلاقات اجتماعية ، هي امتداد أو منبع للفساد الشخصي والأخلاقي.

هل يوجد موظف أو مسؤول فاسد في وظيفته ، ومخلص في زواجه ووسطه العائلي والاجتماعي ؟. للفرد طبيعة واحدة وضمير واحد ومبدأ أخلاقي واحد ، هي التي تتحكم في حياته العملية والعائلية والدينية على السواء.

فالفساد والضرر عام ويشمل كل مجال وقطاع ، ويسمم كل جوانب الحياة العامة.

علاج كل ذلك يبدأ وينتهي بالعائلة. والعائلة العاجزة عن أداء دورها في تحقيق السلم الاجتماعي والتطور الاجتماعي المدني هي عائلة فاشلة ، لا تنتج غير الضرر العام بالمجتمع.

ويمكن للقانون التدخل ووضع حد للعشوائيات والتهور العائلي والاجتماعي لحماية أمن المجتمع.

أم أن هناك من تنقصه نسبة الفشل والضرر اليوم ؟ !...

اليد و الأرض و الماء [●]

الأرض والماء هبة الطبيعة ، أما اليد ، فهي ملك الإنسان.

يد الإنسان هي التي تروِّض الطبيعة وتكيفها لحاجات الإنسان بدءً من السكن والغذاء والحماية ، إلى متوالية الحاجات المتجددة والمتعددة. فاليد هي رمز الإنتاج والتجديد ، وهي رمز دور الإنسان الإيجابي في الطبيعة والوجود.

استغرق الإنسان القديم زمنًا طويلاً ليكتشف يده ، ويعرف أهميتها ، ويتعلم كيف يستخدمها لخدمة الأرض والطبيعة ، فيعتني بها ويفلحها ويضيف إليها.

لكن تطور الإنسان ليس متساويًا متكافئًا بين جميع البشر. والأمر هنا يتعلق بالعقل والإرادة والتوفر على الحكمة. ثمة تفاوت في الحضارة من فرد لغيره ، ومن جماعة لأخرى ، ومن مجتمع لآخر.

ورغم دور عوامل التحفيز الحضاري ونشر المدنية التي بلغت أوجها بين القرنين التاسع عشر والعشرين ، فما يزال قطاعات من البشر خارج الحضارة ، وخارج المدنية. والأكثر منها خارج الإنتاج والفعل الإيجابي.

بدايات الحضارة تمثلت بالخزن والتدجين والتصنيع اليدوي والرعي وصولاً للزراعة. لكن كثيرين لم يتجاوزوا الرعي ، ممن يوصف اليوم بالبداوة ، ومن لم يستطع تجاوز الزراعة البسيطة إلى الزراعة الرأسمالية والتصنيع الزراعي. وهذا يعني تفاوت الحضارة ، الذي ينتج تفاوت البيئة الحضارية ، المنعكس بدوره على تفاوت الثقافات وذكاء الأطفال الموجودين في تلك البيئة.

فالجماعة التقليدية بتماديها في الجمود وعدم الانفتاح الحضاري وقبول التنوع والتجدد؛ تجني على أطفالها وعلى الأجيال الجديدة المحرومة من الجديد والمفيد.

● اليد والأرض والماء- رواية- ذو النون أيوب

لا ضير أن يتخوف البعض من الغزو الثقافي والحضاري ، ولكنها مدعوة في نفس الوقت ، لاستخدام الحكمة في قبول النافع والمفيد من الجديد والمختلف. مما يقوي شخصيتها الاجتماعية ويطور بيئتها ومضمار حياتها وينعكس على أجيالها المقبلة.

إن ما ينفع الإنسان ليس القيم والمفاهيم الجامدة ومحاولات التقليد والمبالغة في تقليد حياة الأسلاف وتقديس أفكارهم التي كانت مناسبة لزمنهم فحسب ، وإنما ينفعه أن يكون إيجابيًا ؛ ليس في عمل الخير والإحسان والصدقة والزكاة ومساعدة المحتاج والضعيف من قيم اجتماعية جيدة ، وإنما أكثر منه أن يكون فردًا إيجابيًا على صعيد إنتاجي ، يقلِّل من حياة الإعالة والإتكالية والتكافلية السلبية ، وينقل الجماعة ، على مستوى القرية أو المدينة أو الحي والمحلة والدولة ، إلى حالة أقرب من سد حاجاتها المحلية بالاعتماد على جهدها وإنتاجها الخاص ، وبما يقربها من تحقيق الاكتفاء الذاتي ، وتجنب الانجرار في لعبة المعونات والمساعدات والقروض التي تحيلها إلى رهينة ذليلة مدينة للخارج.

والغريب ، أنه بينما تتخذ بعض البلدان مواقف رافضة من مسألة الغزو الثقافي والتلاقح الحضاري ، تسعى بطواعية لاستقبال القروض والمعونات الأجنبية التي تربطها بالعجلة الخلفية للاقتصاد والسياسة الخارجية.

وكان الأجدى الانتفاع من الفكر الحضاري وثقافة الإنتاج لتطوير واقعها المحلي وبيئتها الإنتاجية بما يرفع مستواها الاقتصادي ويحميها من الارتماء المزري في التبعية الاقتصادية والسياسية.

القسم الثاني

من مركزية الجماعة إلى مركزية الفرد

أطفالكم ليسوا لكم – جبران

أفعال البشر شريرة- توينبي

في البدء كانت الفكرة... الكلمة...

والكلمة تجسدت في صورة بشرية...

ولكي تتجسّد الكلمة في إنسان فهي بحاجة لأنثى ؛ امرأة...

من غير امرأة لم يكن إنسان...

الإنسان مولود المرأة...

هل كان آدم الأول ذكرًا أم أنثى ، أم كان كائنًا خنثيًا (مزدوج الجنس) في البدء ، ثم انفصل إلى كائنين منفصلين جنسيًا وفيزيائيًا ولكنهما مترابطان نفسيًا وكلٌّ منهما لا يستطيع الحياة أو الاستمرار من غير الآخر.

في البدء (الذي سبق ذكره قبل قليل) لم يكن موت... ولذلك كان الإنسان شأنه شأن الكائنات الأخرى المحلقة في الوجود خالدة أبدية... لكن (عقل) الإنسان قاده للانفصال في التفكير بحسب إرادته... بحسب أنا(ه) الخاصة... فكانت اللعنة...

يجد البعض صعوبة في تقبل وقع كلمة (لعنة / خطيئة / عصيان / سقوط) ، ولكن تأمل واقع حياة الإنسان وما تقتضيه من شقاء وجهد مضني وعبثية لا طائل منها ، تدفعه لتغيير آرائه مع الوقت... وبتعبير أدق ، إن فكر الإنسان ينضج أكثر كلما ازداد في السنوات والتجربة.

وجود الشقاء والمعاناة واجترار العذاب يجعل وجود (الموت) ضرورة وحلمًا يهرب إليه الإنسان للخلاص من الشقاء أو الملل أو العبث...

لكن الموت مخيف ، مرعب ، أزلي ، كوني... معناه التلاشي في التراب أو السديم ، والانقراض بالمعنى العلماني... فالموت الذي يتمناه الإنسان في حالات معينة يبقى مخيفًا ومرعبًا عندما يقترب من الحقيقة أو التنفيذ... والحياة صعبة وشقية وعبثية ولكنها مغرية من جانب آخر.

الخوف من الموت والانقراض النهائي يدفع الإنسان للبحث عن بديل... يقاوم فكرة الانقراض...

البديل هو الولادة الجديدة ، هو استمرار دورة الكائن الحي : ولادة ، نمو ، ازدهار ، ذبول ، موت ، ولادة ، نمو...

فكرة الدوران أو الدورة الحياتية تتجسَّد سنويًا في الفصول الأربعة وانعكاسها في صور النباتات والأعشاب في الطبيعة : الربيع بمثابة الولادة... الصيف النمو... الخريف ذبول... الشتاء موت وسبات... الربيع ولادة ونمو...

وفي التاريخ القديم كانت التقاويم (kalenders) تبتدئ في مارس أو أبريل أو بينهما مترافقة مع بدء (ولادة) دورة الطبيعة...

فمن أجل مواجهة الانقراض وديمومة الحياة ، تهيأ جسد الأنثى للإخصاب والإنجاب...

وهكذا كان... (الإنسان مولود المرأة ، قصير العمر ، ومفعم بالشقاء ، يتفتح كالزهر ، ثم ينتثر ، ويتوارى كالشبح فلا يبقى له أثر).

هل الإخصاب والإنجاب بركة أم لعنة ؟ ! !...

•

العطاء أو الفقدان

عنصر الخير يتحقق من خلال العطاء... عنـدما تعطـي شـيئًا مـن ذاتـك أو مـن عنـدك للخارج ، فأنت تفعل خيرًا ، أنت تساعد.

فكرة العطاء هي نفسها فكرة الفقدان...

عندما تعطي شيئًا من ذاتك ، فأنت تفقده ؛ من وجهة نظرك.

عندما تعطي مبلغًا من المال نحو الخارج ، فأنـت فقـدت مبلغًـا مـن المـال الـذي كـان عندك ، وما تبقى عندك صار أقل من الذي كان.

الفقدان مفردة تدل على وجع وخسارة وندم ، ولـذلك تـمَّ توليـد لفظـة أخـرى بديلـة تمنح راحة نفسية أو تعويضًا نفسيًا واجتماعيًا ؛ هي كلمة تـضحية ، تـبرع... فالـشخص الذي يضحي بشي من عنده أو يتبرع به للآخرين هو إنسان جيد ، يعمل خيرًا.التضحية والتبرع تعني المساعدة وعمـل الخـير ، وهـذه مـع التطـور صـارت تعبـيرًا عـن المحبـة الإنسانية أو الالهية... فلولا الحب لا يقدم شـخص عـلى التـضحية أو التـبرع بـشي مـن عندياته من أجل سواه.

هل الولادة مرتبطة بفكرة الفقدان والعطاء والتضحية ؟...

إن الجنين هو قطعة من أحشاء المرأة ، جزء من دمها ولحمها... يتكون وينمـو في رحمهـا ، حتى تنضج صورته ويتكامل كيانه ، وعندها يبدأ في الانفصال الجسدي عنها ، ولا يبقـى بينهما غير (حبل السرة) ، الذي يمد الجنين بالغذاء وهـو في رحـم الأم... وعنـد الـولادة لا يخرج الطفل فقط ، وإنما مجموع الكيس الرحمي الـذي تكـون فيـه الجنـين ونمـا... مـع خروج الطفل والكيس الرحمي تخسر الأم غير قليل من أحشائها ودمها ووزنها.

- إنني أجد الانثى مسكينة أكثر من الذكر ، لأن هكذا شيء (مهـول) يجـري داخلهـا ولا تدرك كنهه ، لأنها تحتمل وتتقبل حدوث شيء في كيانهـا ونفـسها ، وهـي لا تفهمـه - .

دور الذكر في ذلك يبقى هامشيًا وخارجيًا.

إن شخصًا يفقد جزءًا من جسده أو عضوًا من أعضائه يشعر بحالة فراغ نفسي مستديم ، يجعله يتذكر على الدوام حالة الفقدان ، سواء كانت بسبب حالة مرضية أو حادث عنف خارجي. وفي الغالب يتحقق الفقدان خلال ظرف معين دون تخطيط أو توقع سابق ودون إرادة أو مسؤولية مباشرة من ذات الشخص ، إضافة لوجود مبرر موضوعي لحالة الفقدان وتقدير اجتماعي للموضوع.

لكن ظاهرة الولادة عند المرأة مختلفة ، فهي فعل إرادي ، مخطط ، ومقصود ، ومشمول بعناية واحتمال وانتظار وتوقع ، والانعكاسات النفسية والاجتماعية لفعل الولادة ليست واحدة عند جميع النساء ، - كلّ هذا لن يساعد المرأة للجواب على سؤال : لماذا تنجب ؟!... لماذا تلد ؟... لماذا تسمح أين يكون جسدها وعاءً لشيء آخر ؟!... وإذا كان الشقاء والمرض والموت ينتظر مولودها ، فلماذا تفعل ذلك ؟!... هل الحمل والإنجاب فعل واعي عقلي أم هو فعل غريزي خارج سيطرة المرأة أو الإنسان عامة ؟!...-

هل تجد المرأة هروبًا من الخطأ بتكراره (وداوني بالتي كانت هي الداءُ) ؟... أم تجد عزاء المرأة في مشاركة الرجل لها في المسؤولية ؟... لكن هذا لا يتعدى الالتزام الأدبي أو الاجتماعي لا غير.

•

انتفاء المبرر الاقتصادي والاجتماعي

يؤكد علماء الأنثروبولجي ان الإنسان البدائي كان يفضل العيش في إطار جماعة لتأمين نفسه ضدّ خطر الحيوانات المفترسة الأقوى منه وأكبر حجمًا... وثمة... كانت هناك حاجة متزايدة لنمو حجم السكان لتأمين الجانب الأمني والمعيشي للجماعة. فالحاجة الأمنية ، والحاجة المعيشية في الصيد أو الزراعة ، والحاجة السياسية في التنظيم وتقسيم الأعمال ووجود كفاية من البشر للمشاركة في الحرب والغزو ، كل هذه عوامل اقتضت دوران عجلة الإنجاب البشري

بأقصى سرعاتها ، كما اقتضت تشريع تعدد الزوجات وأشباه الزوجات اللـواتي يـساهمن في عملية الإنجاب ودعم النمو السكاني للعائلة والقبيلة والدولة...

ولكن تلك الظروف تغيرت اليوم ، واختلفت المفاهيم ، وانعدمت مبررات تلك الحاجـة البشرية ، بل صارت الزيادة السكانية تتسبب في كـوارث المجاعـة والأمـراض والحـروب الداخلية والخارجية.

إن الحاجة العائلية كانت هـي الأسـاس في تطـوير فكـرة العائلـة والأطفـال ، ولعوامـل أمنية أو اقتصادية واجتماعية... أما اليوم فإن العائلـة تتعـرض لـضربات موجعـة جـراء تراجع القيم الاجتماعية وانتفاء التكافل العائلي أو الاجتماعي داخل العائلة الصغيرة أو الكبيرة... ومع ازدياد مساهمة الدولة في تسديد حاجات الفرد ، فإن هيمنـة المعـاملات الاقتصادية والقـيم الاسـتهلاكية زادت مـن معـدل التفكـك الاجتماعـي والـلـهاث وراء المادة والمتع المادية.

إن المجتمع المعاصر يعاني من أعباء ثلاث جماعات سكانية بحاجة للحماية والمـساعدة: (الأطفال والشيوخ والنساء) ، وهي أكبر الفئات السكانية عـددًا التـي تـشكِّل المجتمـع العالمي.

ثمة تضخم في حجـم الفئـات العمريـة كبـيرة الـسن ، تقابلهـا زيـادة في حجـم الفئـات العمرية صغيرة السن ، مقابل زيادة كبـيرة في حجـم فئـة الإنـاث في مجتمعـات اليـوم. هذه الفئات المتضخمة تدخل ضمن الفئات المستهلكة للخدمات ، والعالـة عـلى الفئـة العاملة والمنتجة اقتصاديًا.

هناك فئة منتجة معيلة واحـدة في المجتمـع المعـاصر ، مقابـل ثـلاث فئـات مـستهلكة للسلع والخدمات وعالة على الفئة المنتجة والدولة.

إن النظر إلى أي مجتمع على الأرض يـستند إلى هـذه التوليفـة. وفي مجتمعـات بريطانيا مثل مناسب هنا ، فالاقتصاد البريطاني يعاني مـن تراجـع مـستمر عـلى صـعيد الإنتـاج الـصناعي ، وهـو في تحـول مـستمر نحـو الاقتـصاد التجـاري أو

الاعتماد على عامل السياحة وحركة رؤوس الأموال عبر أراضيه. بالمقابل تسهم الدولة في إعالة قطاعات كبيرة من سكانها ، عبر منافذ المساعدات والمنح والتسهيلات الكثيرة ، والتي تتيح معدل متوسط للمعيشة أو ما يمكن اعتباره (رفاه معتدل).

•

لقد عاش الإنسان حالة هروب مستمرة من مواجهة الأسئلة الوجودية أو المصيرية ، وسوف يستمر في التفنن في الهروب من مواجهة الأسئلة والالتفاف عليها ، دون تقديم إجابة عقلية مقنعة لسلوكه ونشاطاته – ما يبقيه في دوامة مستمرة - !.

إن ما يُسمى بالتطور التكنولوجي والمدني لم ينقلب وبالاً على الإنسان المعاصر فحسب ، بل جعل (نزعة الأنانية وعقدة الفرد) شعارًا مقدسًا للحياة المعاصرة... وبالتالي ، هل نحن نحتاج الآخرين فعلا ، ونتعامل معهم من منطلق المحبة والعطاء ؟... أم أننا نحتاجهم لتسخيرهم في تلبية احتياجاتنا وخدمة أغراضنا ؟... باعتبار أن الفرد (منا) هو مركز الكون ، وكل ما عداه مجرد أقمار تدور حول(نا) وتخدم حاجاتنا وأنانياتنا...!

استقلالية الفرد ، وصيانة الاستقلالية

من مبادئ التربية الحديثة تقليل تعلق الطفل بالعائلة ، وتشجيعه الاعتماد على النفس والاعتداد بالذات والشجاعة في التفكير المستقل والسلوك المسؤول.

واجه هذا المبدأ مستويات متفاوتة من الفهم والاستيعاب ، وأنماطًا متفاوتة من التطبيق والتمرد.

ما يحدث اليوم في الفكر التربوي ما بعد الحداثي ، ليس القلع الراديكالي للطفل من عائلته ، بل من بيئته (•) ، وإلحاقه بمرجعيات ضبابية عولمية عابرة للحدود ، عبر ألعاب الإنترنت ، أو برامج تراسل مدرسية مع مدارس وجمعيات دولية ، تشجع تبادل البيانات والمعلومات والآراء والصور بين أطفال من بلدان مختلفة ، يشجع بعضهم البعض للالتحاق بجمعيات أو أندية للناشئة والشبيبة للعمل المشترك من أجل التعاون والسلم العالمي أو مستقبل الطفل أو الحريات أو غيرها من الشعارات والعناوين البراقة المثيرة والمزيفة في واقع الأمر.

هده البرامج وُضِعت وجرى تعميمها وإدارتها من قبل منظمات وتشكيلات دولية - غربية - غير معلنة ، تقوم بالإنفاق والإشراف والترويج لإنتاج توجه ثقافي شبابي جديد ، يدين لأفكار وتوجهات سلوكية غير محلية.

وفي شبكات التواصل الاجتماعي عناوين كثيرة مجهولة أو مزيفة تستقطب وتصطاد النفر الضال والغشيم والباحث عن مستقبل مختلف. ولا يتم الربط بين

• تهتم البلدان المانحة للجوء وقبول الهجرة ، اهتمامًا خاصًا ، بالأفراد القاصرين من ذويهم ، وكذلك بالعوائل ذات الأطفال الصغار ، لتركيزها على الجيل الثاني الذي ينشأ على الثقافة الجديدة ويتحدث لغتهم بغير لكنة أجنبية. وقد برزت هذه الظاهرة في موجة اللجوء المليونية الأخيرة عقب الأزمة السورية [2014- 2016م] وتهافت الغرب على قبول المهاجرين القصر. وبحسب إحصائية محلية ، استقبلت بريطانيا ما لا يقل عن خمسة وثلاثين ألف طفلاً سوريًا في العام الواحد ، يتم تبنيهم محليًا أو توزيعهم على عوائل حضانة مقابل أجر.

النتائج المأساوية والجنائية لضحايا النت وبين المواقع والبرامج المسؤولة.

بالمطابقة بين الفكرتين ، الحديثة وما بعد الحداثية ، يلحظ أن الثانية نقضت الأولى ودمَّرتها ، فبقاء الطفل ضمن حضانة الوالدين أفضل له نفسيًا واجتماعيًا من حضانة الجمعيات والنوادي والكروبات / [Fosters' Groups] البعيدة عن الإطار الوطني والثقافي ، والغامضة الأغراض والاتجاهات ، وغير المبررة منطقيًا.

إن الغاية من استقلالية الشخصية لا تسعى لقلع الطفل عن حضانة البيئة والعائلة وإنما تقليل الآثار السلبية للتعلق العائلي المؤدي إلى ضعف الشخصية ، أو ظواهر الخجل المفرط والتردد والشعور بالنقص والخوف من الآخر ، والتي تنتهي إلى العجز عن التكيف والميل للعزلة والاغتراب والاضطراب ، ومشاعر الإحباط والانتحار أحيانًا ، وفي حالات أخرى ، تنتج سلوكًا انقلابيًا عنيفًا ، يأخذ اتجاهًا ساديًا مؤذيًا على المجتمع ، كما في حال كثير من المجرمين والطُغاة غير العاديين.

لقد وقفت دراسات علم النفس السلوكي(•) على نشأة وتربية بعض الحُكَّام الطُغاة، واستنتجت منها قواسم مشتركة ، تتمثل في بعضها شدة التعلق بالأم ، وفقدان أحد الأبوين في سنٍّ مبكرة ، أو التربية الأسرية الصارمة الانضباط.

فالطفل عاجز عن الاختيار أو التمرد التربوي ، مما يطبعه بشخصية : متميعة ضعيفة ، مضطربة غير متزنة فكريًا ونفسيًا وسلوكيًا ، انقلابية تنتقم لطفولتها بسلوك عكسي ثأري عنيف.

لعل من المسائل الغريبة والملفتة للنظر ، عند التحري عن سوابق بعض المجرمين وسيرهم ، إجماع المعارف والجيران ورفاق المدرسة على كونهم من الناس الجيدين حسني السيرة والسلوك ، وفي الغالب يتمتعون بصلات أو

• Arnold Gruen: Die Falsche Guette

زيجات جيدة.

إذن من أين يأتي الخلل ؟...

الواقع أن الشخصيات الاجتماعية أو المسلك الظاهري لدى غير قليل من الناس لا يعكس قناعاتهم وشخصياتهم الحقيقية ، بقدر ما يمثل الرداء أو القناع ، الذي يخفون تحته اضطراباتهم وتناقضاتهم العنيفة التي تصطرع في دواخلهم ، بفعل الأرساب التربوية أو الاجتماعية أو الدينية العاجز عن مواجهتها أو المصالحة معها ، فتبقى تصطرع وتغلي كلما وجدت لها متنفسًا أو وسيلة للخروج والانفجار... وقد لا تجد متنفسًا ، فتنهار من التفكير والصراع الداخلي الذي ينفجر في لحظة غير موقوتة ويدمِّر كل شيء.

إن الإنجاب والخلق عملية في غاية السهولة والميكانيكية مثل أشياء كثيرة اليوم. أما الشيء الأكثر صعوبة واستحالة فهي الوعي والإدراك اللازم للسيطرة والتوجيه عند كل كلمة أو نشاط صادر بشكل غير مناسب.

كل كلمة أو حركة تتحول إلى طاقة مخزونة عند السامع الرائي - قارن الإنترنت اليوم ! -. وفي لا وعي كل شخص مكان أو أمكنة لتجميع المُدخلات السلوكية وخزن الطاقات الناجمة عنها.

وكما تتجمع المواد المشعة وغير المشعة وتتحلل وتتحول إلى مركبات جديدة تغلي بين طبقات الأرض وتنفجر في لحظة في صورة براكين وزلازل وانهيارات أرضية ، كذلك هي درجات خزن وطبقات لاوعي الفرد وهي تستقبل جُملة إفرازات محيطها الاجتماعي السيئة وغير المسؤولة ، لتتحول إلى أفكار ومسالك وتوجهات تدميرية في وقت لاحق.

فالشدة أو التوتر بالاصطلاح النفسي والاجتماعي مرتبطة غالبًا بالكبت والخجل المفرط والحياء الشديد والأصوات الرفيعة وميول العزلة والتعفف الشديد المترتبة على تربية الصرامة والرعب ، وما يترتب عليها من انفلات وتمرد

وشذوذ وعنف غير عادي.

يمكـن رصـد بعـض سـلوكيات الـسياح خـارج بلـدانهم ، وهـم يتحولـون إلى أشـخاص يناقضون شخصياتهم المألوفة في محيطهم الاجتماعي. فالسياحة والسفر تعويض سلوكي نفسي واجتماعي يوفر لصاحبة درجة من التنفيس والراحة واستعادة التوازن.

وعلى العكس يتوقع انفجار الشخـصيات المقموعـة والمحرومـة مـن التنفـيس وترجمـة مكنوناتها المصطرعة.

إلى جانب انفلات الشبيبة عند الوصول إلى سن معينة ، يشكِّل القمع الأسري والمبالغـة في الغيرة والملاحقة بين الزوجين ، عنصرًا سلبيًا في التضييق النفسي والسلوكي على الآخر ، ويوفر المبررات المنطقية لحالات الانفصال المفاجئ أو العلاقات السرية أو الجريمة التي ينقض فيها المقموع على جلاده.

على كل من الأبوين أن يترك نسبة معينة للطفل للعناية بنفسه والتعبير عن شخـصيته والتصرف واتخاذ بعض القرارات بمفرده وبـدون إمـلاءات ونـصائح مفرطـة وتهديـدات وتحذيرات تشله عن الحركة.

وفيما بين السابعة والعاشرة ينبغـي أن يختـار ثيابـه ولوازمـه بنفـسه ، ويـتعلم إعـداد فطوره وفراشه وتنظيم وقته لمفرده. ويصطلح على صورة العلاقة الجديـدة ، بالـصداقة الأسرية أكثر من أي عنوان آخر.

كثير من العوائل تشدد عـلى اسـتخدم الكنـى: ابـن ، بنـت ، وبـشكل تـصغيري أحيانًـا: طفلي وطفلتي ، دون مراعاة سن الفتى والفتاة ، والأثر السلبي لتلـك التبجحـات أمـام المجتمع ، وبشكل يختزل كرامتهم.

ويلحـظ أن الوالـدين يـتكلمان نيابـة عـن أبنـائهما وبنـاتهما ، ويـسبقونهما في الكـلام والردود عند توجيه الكلام إلـيهم مـن الغـير ، ثـم يفتخـران بلـؤم عـلى مـدى تـربيتهم الجيدة وحياء أطفالهما ، والواقع أنه كبت وخوف ومرض لا تؤمن عواقبه.

وعلى العموم ، علينا أن نكون موضوعيين ، ولا تأخذنا العزة بالإثم ، ونحن نراقب واقع مجتمعاتنا والتشوهات الاجتماعية والسلوكية السائدة فيها ، ولا نشعر بها أو بإفرازاتها في مجال الحراك الاجتماعي والنكوص الإبداعي والعنف المستشري في كل الاتجاهات ، دون اتهام نظامنا التربوي التقليدي أو الحديث المشوه.

بالنتيجة ، فالفرد نفسه هو المسؤول عن تربية نفسه وصياغة شخصيته بشكل يكفل لها النضج والتوازن والاستقلالية ، ليس عن العائلة والتبعية التقليدية والدينية فحسب ، وإنما صيانة استقلاليته الشخصية عند الانخراط في علاقات الدراسة أو العمل أو الزمالة والصداقة عمومًا.

ومن أكثر سلبيات التبعية وضعف الشخصية ، أن معظم المدخنين يكتسبون تلك الظاهرة من علاقتهم بالمدخنين ، وهو ما ينطبق على كثير من السلوكيات السلبية والتدميرية على الفرد والمجتمع.

كما ينبغي على الجنسين تفهم أهمية الاستقلالية والحرية الشخصية وثمارها الاجتماعية ، عند الارتباط ، وعدم تقمص دور الشرطي والرقيب والمخبر السري ، واستغلال مرضية الغيرة تحت شعار الحب أو الخوف ، مما يزيد من أمراض المجتمع ، ويتركنا ندور في دائرة مغلقة ، بينما الوحوش يحيطون بالدائرة.

الفرد المسؤول

لست بلا قيمة أيها الإنسان.

لكل كائن خطة ، وللإنسان رسالة ، عليه أن يكتشفها ويعمل بها.

كلنا لدينا قوة الفكر ، وعندما تكون لدينا قوة الإرادة ، يمكننا تغيير أي شيء

دالاي لاما

إن فيكم قوة ، لو استخدمت ، لتغير وجه التاريخ

أنطون سعادة

أكثر الناس مأخوذون بتداعيات الطفولة ، والكثيرون لا يحبون الخروج منها.

الطفولة هي الحرية ، هي اللا مسؤولية ، حقوق بلا واجبات ، مزايا بلا التزامات، متصرفية ومعصومية ، وحكم لا مسؤول. بكلمة واحدة يوصف الطفل أنه (مَلِك) أو شبه إله.

هدا التعلق المرضي بخصائص الطفولة وعقلية الطفولة ، أحد أسباب تأخر نضج بعض المجتمعات وبقائها عاجزة عن تحقيق اكتفائها الذاتي ، أو انجرافها في مرحلة العبودية والقنانة التي تتيح لها الحياة بلا مسؤولية.

التعلق بالطفولة ورفض الانفكاك عنها هو أحد الخصائص الرئيسة لمركب الأنثى التي تميل للخضوع لغرض اكتساب الرعاية والإعالة الكاملة من شخص آخر. هذا ما يجعل الذكاء الاجتماعي لدى الثقافات الأمومية امتيازاً رئيسًا ومقومًا أساسيًا في حياتها.

فالعزلة والانطوائية حالة غير واردة وغير محتملة لدى المرأة عمومًا ، كما لدى أبناء المجتمعات الأمومية كالمصريين.

يصف علماء النفس البعض بتأخر النضج النفسي وعدم انسجامه مع النمو والعمر البيولوجي. وفي علم النفس الحديث والتربية الغربية يجري تعجيل النمو النفسي واختصار مرحلة الطفولة - النفسية - لصالح النضج العقلي المبكر ، الذي يجعل أبناء الغرب يبدعون ويتميزون ، ويكونون قادرين على مواجهة مواقف الحياة بوقت أسرع وكفاءة أكبر من سواهم.

بينما يتأخر النضج النفسي والعقلي وتتمادى مرحلة الطفولة في مجتمعات أقل تطورًا ، فيتزوج أبناؤها وينجبون وهم في رعاية الوالدين ، ودون دخل وعمل مستقل بهم.

إن خطورة هذه الظاهرة تنعكس في مسألة الإرادة والإدارة العامة والقرار السياسي. فللخطاب الاجتماعي للفرد واستقلال الشخصية والعجز عن تنظيم الحاجات أو توظيف وإدارة جماعة الأفراد ، نتائج مباشرة لتأخر سن النضج النفسي والإدراك العقلي ، مما يسهل وقوع الجماعة والمجتمع تحت وصاية ورعاية جهة خارجية أو سلطة دينية شمولية. كما حصل في العراق عقب الغزو الأمريكي ، حيث تكثر التمنيات والشعارات الطوباوية ، وتغيب آليات الإدارة والتنظيم والشخصيات القيادية الوطنية الكفء.

الثقافة التربوية والبنى التحتية المتكاملة للمجتمع والدولة ، تشكلان القاعدة الأساسية والأرضية الحاضنة لفرد ناضج سليم مستقل ومدرك لأهمية وجوده الشخصي والمجتمعي ، فرد يدرك ويفكِّر ويصدر عن ذاته في خطابه ومسلكه ، وليس ببغاء يصدر عن ما يسمع ويُملى عليه ويستعبد نفسه لنصوص ميتة ومقولات تكرارية جاهزة ، تعج بها رفوف محيطه الاجتماعي وبرنامجه التربوي.

ففي مجتمعات الجمود والأوساط الدينية يعتبر الانقياد الأعمى والترديد الأعمى لمقولات ونصوص الشيوخ والآباء والرموز المحنطة اجتماعيًا وثقافيًا ، معيارًا خلقيًا يهيل عليه ثناء المجتمع ، بينما يراوح المجتمع عمومًا وتتراجع قدرات

أفراده على تلبية حاجاتهم الأساسية وإدارة أمور حياتهم ومجتمعاتهم بدون كوارث وخسائر تاريخية.

وتشكل الثقة العمياء بالنصوص والتليد الجامد أبرز مظاهر العبودية وأسباب العوق المجتمعي والسياسي ، عندما يتفاخر(•) الفرد بنفسه وبمنجزه ويحيل تبعات الخطأ والخسارة على الغير. فهذا الشخص هو مثال جاهل يجهل أنه جاهل ، ويكلِّف المجتمع والوطن تبعات عدم تراجعه عن موقعه وأخطائه ليتيح الفرصة لغيره في المسؤولية الحقة.

لقد ارتبط قدر العراق ، كما سواه من بلاد الدنيا ، بشخصيات حُكَّامه المميزين في القوة والاقتدار والكفاءة على مدى التاريخ. بينما كان العراق يغيب ويتراجع ويسقط ضحية السيطرة والتبعية الخارجية عندما يكون حكامه ضعفاء وجهلاء بالإدارة والقيادة.

ان تاريخ العراق مثلاً هو تاريخ سرجون وحمورابي ونبوخد نصر وأشور بانيبال والرشيد والمأمون وداود باشا ومدحت باشا ونوري السعيد. الحاكم القوي ينتج حكومة وإدارة قوية وحكيمة ويبني بلدًا مستقرًا راسخًا ومهابًا بين جيرانه والعالم ، ويجعله قبلة للحضارة والثقافة والريادة... وعلى العكس منه حين يحكمه الضعفاء والسفهاء (•) فيفقد مكانته وتتسيب حقوقه وينذل أهله ويتشرد أبناؤه ويصبح لعبة للدخيل والطامع والغزوات الخارجية.

فالخطأ هنا يتمثل في شخصية الفرد وتكوينه الذاتي والنفسي ، المتصل بطبيعة الفكر التربوي العراقي والنظام الأسري المنعكس على تفكك النسيج الاجتماعي والمجتمعي في العراق المغيب ثقافيًا وسياسيًا بأثر ذلك.

ومن مظاهر الانهيار التاريخي وغياب الكيان الوطني ، أن يتفاخر بعضهم في

- "من يكثر من المباهاة والتفاخر ، يجلب على بيته الدمار"- سليمان الحكيم : (أم 17 : 19).
- "حينما يتسلط الاشرار ، يتوارى الأبرار"- سليمان الحكيم : (أم 28 : 28).

واجهات الإعلام بولائه لعقيدة - دينية / طائفية / عرقية قومية - ، مؤجلاً (انتسابه المعيشي) للوطن إلى نهاية القائمة ، متناسيًا أن ولاءه العقيدي الديني يؤكد ولاءه الأجنبي لبلد العقيدة الأم ونظامه السياسي ، وتلك هي عتبة الخيانة العظمى.

ومن طرائف الحالة العراقية الغارقة في فسيفساء عرقية قومية دينية طائفية متشرذمة في أحزاب ومليشيات عقب الاحتلال الأمريكي [نيسان 2003م] ، أن يتم تدعيم التمزق السياسي والاجتماعي بأحزاب وتجمعات سياسية ومدنية خارجية الفكر والولاء ، ولا تكاد تجد في القاموس العراقي جماعة عرقية أو دينية أو سياسية عراقية المنبع والهوى والاتجاه. تلك الحقيقة الغائبة في فضاء الضياع الذي يبتلع العراقيين ويدفعهم لمزيد من التشرذم ، بدل الوقوف الجريء والمقتدر على أصل الداء وتطبيق العلاج بحزم ، بعيدًا عن المجاملة ومواطنة الخلل والفساد ، مهما كانت مبرراته ومن وراءها.

يتساوى في ذلك الإسلام دينًا ، والتشيع مذهبًا ، وما استتبعه من هجرة إيرانية - التفريس - على طائلة العتبات الدينية. ومثلهم في ذلك تنامي الوجود الكردي الزاحف من الزاوية الشرقية الشمالية باستمرار في عمق الأراضي العراقية ، وما يقابله من هجرات وغزوات جنوبية وغربية لمواجهة وموازنة النفوذ السكاني والسياسي من الشرق والشمال.

بينما تركت الحكومات ومراحل السيطرة والتبعية الأجنبية ، أطيافًا سكانية قومية وطائفية بالمقابل كالهنود والأفغان والتركمان والأرمن والشيشان والبولند ، وصولاً إلى التيارات السياسية والأيديولوجيات الخارجية كالشيوعية والناصرية والبعثية والليبرالية والأحزاب الدينية كالدعوة والمجلس الأعلى والحزب الإسلامي العراقي وغيرها من مسميات مستوردة استنسخت داخل الواقع العراقي لخدمة أجندة خارجية على حساب الدم والنفط العراقي.

سوف يجري استنكار مثل هذا الرأي ، وكلٌّ يدعي وصلاً بليلى.

فالعراق السومري البابلي الذي كان يقود ويحكم ويتـصدر الحـضارة والثقافـة للعـالم ، تحول إلى سوق استهلاكية وميدان تصفية صراعات وأطماع إقليميـة ودوليـة ، وتعـرض تكوينه الديمغرافي لعمليات قيصرية دينية وسياسـية واقتـصادية جعلتـه بـلا هويـة ولا ثقافة أو انتماء ولا مستقبل.

الفرد الإيجابي والوجود المنسجم

كل نقطة فيزيائية تتحكم بها قوتان : مرئية وغير مرئية.

القوة المرئية يمكن ملاحظتها والتحكم بها من حيث النوع والدرجة ، أما القوة غير المرئية فلا يمكن ملاحظتها والتعرف إليها ، لأنها غير مادية ، غير معروفة الأصل والطبيعة وحجم التأثير.

هذا الاستنتاج صاغه "توينبي" بطريقة أوسع عندما اعتبر أن الإنسان يعيش في عالمين في وقت واحد ، هما عالم مادي ، وعالم روحي.

عالمان. فليست الطبيعة والوجود فحسب ، وإنما الإنسان نفسه ، يتأرجح بين العالمين... المستويين : المادي والروحي.

وقد اكتشف الإنسان القديم قوة العالم الروحي وعبَّر عنه بالدين ، الذي كان أرقى وأنقى من الدين المعاصر. بينما اصطلح توينبي على الفعل المادي بالتكنولوجيا التي هي بإيجاز : التصنيع اليدوي.

إذا كان العالم المادي يتكون ويتمثل بما يعمله الإنسان في الطبيعة ، فالعالم الروحي ، غير المادي ، خارج دائرة فيزياء الطبيعة ، وبعيد عن إرادة الإنسان.

الواقع... أن الفقرة الأخيرة غير دقيقة تمامًا ، وتتعارض مع فكرة أن الإنسان سيد وجوده ، بل سيد الطبيعة.

فالعالم الروحي لا يؤثر فقط في الوجود ، وإنما يتأثر سلبيًا بكل ما يجري في الطبيعة ويتفاعل داخل العالم الفيزيائي.

لماذا يوصف التأثر بأنه (سلبي) ، ولا نقول أنه إيجابي.

هذا ينطلق من فكرة أن الطاقة الأصلية في الكون هي طاقة (إيجابية) في أصلها وجوهرها. أما الطاقة (السلبية) فهي انعكاس ورد فعل عامل فيزيائي أرضي.

في اللغة الروائية تمر بنا عبارة (تكهرب الجو) ، بمعنى ساده التوتر والتشنج والاحتقان والشدة المنذرة بالمجهول مما لا تحمد عقباه.

وتكهرب الجو يحدث بفعل الانفعال أو الخصومة والكلمات والتصرفات السيئة. الجو في أصله صاف رائق ساكن ، لكنه يفقد طراوته ورونقه عندما يدخل عامل توتر سيء يقلب الأشياء رأسًا على عقب. هذا العامل المتوتر لا يأتي من الخارج ، وإنما من داخل الإنسان ونزعاته النفسية والفكرية التي تدفعه للانفعال والسلوك بشكل يضر بالمحيط الحيوي.

ولتهذيب سلوك الإنسان وتوجيهه ليكون جادًا وإيجابيًا ، كانت الحكمة [Sophia] التي هي غاية كل إنسان ومعيار رقيه واعتباره.

الحكمة عند الإغريق هي غاية المعرفة التي تفوق الفلسفة ، وهي عند العرب غاية الأخلاق ، وعند الهند هي غاية الدين.

والحكيم هو الإنسان الفاضل العارف التقي الزاهد المتعفف المتسامي المالك لنفسه والكاظم لنزعاته والموجه لنوازعه ، من يسلك في الضرورات ويتجنب التوافه ، من يجعل كل شيء موضعه ولا يلقي الكلام على عواهنه.

وقد اشتهر سقراط بالحكيم عند الإغريق واشتهر المعري عند العرب وهو سجين المحبسين وصاحب اللزوميات الشهير ، واللزوميات هي الضرورات القصوى. ومن مشاهير الحكماء أفرام السرياني القائل بأن كل ما زاد عن الضرورة يدخل في السفاهة ! فالعبرة هنا ليست بإشباع المشتهيات والاستغراق في الملذات وإتباع كل هوى والانصياع العبودي لسلطان النفس ونزعات الغريزة ، مما يعتبره كثيرون صورة للترف والسعادة والغرف من منابع الحياة حتى بحبوحة الموت والفساد. فكل ما زاد عن حده انقلب إلى ضده !. وهو مبدأ في الفلسفة والسلوك ، والطب والاجتماع ، كما في كل شيء ، مادي أو معنوي.

إن ما يفند مبدأ اللذة هو وجود العقل ومغزاه. فالعقل بمثابة قبطان سفينة الجسد، يوجهها ويتحكم بها ويمنعها ويقمعها عن التمادي والتمرد والتطرف والزيغ عن مبدأ العقل والحكمة.

بالعقل خرجت البشرية من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الوحشية إلى التحضر ، ومن التخلف إلى المدنية ، التي غيرت صورة الحياة على الأرض منذ القرن العشرين.

العامل الثالث إلى جانب الحكمة والعقل هو إرادة الفرد [The Power Of Will] الذي قال به روسو وكان أساسًا ، إلى جانب أفكار أخرى ، لتأسيس المجتمع المدني والدولة الحديثة والقواعد الدستورية في أوربا والعالم أجمع.

فالإرادة لا تفصل بين الإنسان والحيوان فحسب ، وإنما تميز الإنسان الراقي عن المتخلف.

مفهوم الإرادة هذا لا يعني أن تعمل ما تشاء ، وإنما أن تعرف وتتحكم بما تفعل وتقول.

والمبادئ الأخلاقية عمومًا تشيد بالفرد الذي ينتقي كلماته وأفكاره ، ويتحكم بسلوكه ، وهو طبعًا أمر ليس بالهين ولا يطيقه كثيرون. فعبودية البعض للغريزة ونزعات النفس السيئة من حسد وغيرة وطمع وبغض وانفعال وميل للعنف والأذى ، هي مظاهر البدائية وعدم التحضر وضعف الإرادة والعقل وغياب الحكمة.

وبقاء قطاعات من البشرية على هامش الحضارة والمدنية ، أو الاكتفاء بالاستهلاك والقرصنة على منتجاتها ، دون العلم والتكيف والتحول الإيجابي للارتقاء بالنفس والعقل والسلوك ، يضيف إلى رصيد الخسارات ، ما يجعل الأمل والمستقبل المشرق أبعد من كوة الشمس.

التفاعل الإيجابي

سألتني رسَّامة نمساوية عن الإنسان بين الشرق والغرب ، وهـل هـو نفـسه أم مختلـف ؟... وكان جوابي هو الاختلاف ، وسبب الاختلاف نوعي يتمثل في العقلية [mentality]. فكان جوابي لها غير ما توقعته ضمن نزعتها الإنسانية.

إن أحد الأسباب البنيوية لفقدان السلام والانسجام الاجتماعي هو استـسهال المفـاهيم والأشياء ، والاستسهال يعود إلى سطحية الفهـم وضـحالة التفكـير والبحـث عـن حلـول سريعة.

بعبارة أوضح... أن الحيـاة في حقيقتهـا ليـست مجـرد حاجـات وأفكـار ، وإنمـا مـشاعر ومواقف متبادلـة. هـذا التبـادل والتفاعـل العـاطفي والفكـري متـصل لحظـة بلحظـة ويدخل في كل شيء ، في الكـلام والـسكوت والنظـرة واللمـسة والطعـام والثيـاب والألم والفرح وأخبار الإعلام والحياة العامة.

والمقصود هنا ليس الخلاف والاختلاف في الرأي والموقف ، إنما في اختلاف أرضية الفهـم ومنطلق التعاطي مع الأشياء. فرأيك في الطعام يـستند إلى أرضـية مفـاهيم ومرتكـزات معينة ، تختلف عنها لدى شخص آخر. فالحاجة والجوع ليست العامل الوحيـد ، وإنمـا الخـصائص النفـسية والاجتماعيـة والثقافيـة التـي تمثـل خـصائص الهويـة الشخـصية والثقافية ، كما هي خصائص الهوية الوطنية والقومية والطائفية في مستوى أوسع.

إن أُسـس الحيـاة وأساسـياتها متـشابهة لـدى الإنـسان البـدائي ، الـذي يعـيش في المرحلـة الحيوانيـة. لكـن مـستلزمات الحيـاة الإنـسانية تتجـاوز الحاجـة البدائيـة الجسدية إلى الحاجة النفسية والثقافية ، تتجـاوز المـادة إلى الأسـلوب. لـذلك اختلفـت أنماط الثياب وقصّات الـشعر وطـرق إعـداد الطعـام ، وخـضعت كـل تفاصـيل الحيـاة

لمستويات متقدمة ومعقدة من التنظيم والإدارة والتقنين والتفاوت من شخص لآخر ، ومن فئة لغيرها.

لعل من أوائل الأشياء التي قادتني لاكتشاف الخلافات والاختلافات ، هو طريقة تعاطي الشعور والفكر في موقف حياتي معين ، مثل حادث سيارة ، أو موت شخص أو قرار سياسي. فالموقف الإنساني - رد الفعل - هو عنوان عام ضبابي تتخلله كثير من التفاصيل والحيثيات التي تنتج المغايرة والتنافر بين الناس في أبسط دقائق الحياة.

نحن نتفق في الهدف أو العموم ، ولكن نختلف في نقاط التفاصيل ، إلى حد ينسف اتفاقنا أو تشابهنا السطحي. وهذه من سمات - أمراض - الحياة المعاصرة وانعدام أو صعوبة السلام الاجتماعي والانسجام السياسي داخل الجماعات والدول غير المتطورة.

يحاول البعض تبرير الاختلاف بواقع التطور الاجتماعي والمدني ، ولكن هذا لا يمثل نقطة جوهرية بل ثانوية في الموضوع ، وهذا ما أسميه: (منتالتي).

إن تعريف الإنسان في أبسط صوره هو كائن تطوري. فهو إنسان لأنه متطور وغير بدائي. أما البدائي فهو الحيواني.

الحاجة للطعام والجنس والحماية هي حاجة حيوانية ، لكن أسلوب الطعام والجنس والحماية يختلف بين الحالة البدائية والحالة الإنسانية التطورية.

الإنسان منذ خمس عشرة ألف سنة لا يلتقط طعامه من الأرض والشجر ولا يمارس الجنس من غير شروط متحضرة ، ولا ينضوي عشوائيًا في أي جماعة لمجرد الحصول على حماية. وهو أمر نلمسه لدى طفل الإنسان الرضيع ، كما لدى المريض والشاب والعجوز. هذا ما يجعل الإنسان إنسانًا ، وما يجعل جماعة ما مدنية راقية أو متخلفة.

هذه المنتالتي / العقلية لا تختلف بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وإنما

بين بلد وآخر ، وطائفة وأخرى ، كما تختلف من شخص لآخر.

وقد جاء التطور وانفتاح إطار ومفهوم البيئة والمحيط الاجتماعي عبر المدرسة والإنترنت ليزيد من الخلاف بين أفراد الأسرة الواحدة ، بل عند الشخص الواحد في المواقف والمستويات والمراحل المختلفة من العمر والظروف. يقول شاعر معاصر (•) :

إني أقرّ على نفسي وأعترفُ   أني معي دائمًا في الرأي أختلفُ

لقد اعتقد البعض أن وسائل الاتصال الإعلامي والاجتماعي ، التكنولوجية والإلكترونية سوف تقرِّب بين الناس في أطراف الأرض ، ولكنها بالنتيجة زادت من عدم الانسجام داخل الأسرة والمجتمع المحلي. وبالتالي ، كانت الخسارة القيمية والمفاهيمية لحضارة الاتصالات والعلاقات الإلكترونية ، أكبر من الخسائر المادية في ظل انعدامها أو قبل ظهورها.

ولسان حال ديكارت الجديد يقول : أنا أختلف ، أذن أنا موجود !.

إن مفاهيم العائلة الإنسانية والعالم الواحد ، من تراث المشاعية - الاشتراكية - الطوباوية ، تعرضت لنسف تام على أرضية الثقافة الرأسمالية الإمبريالية ، التي تقدِّس العملة النقدية أولاً وأخيراً. وليس الإنسان - في نظرها - غير سلعة وسيطة وأداة استهلاكية لخدمة التراكم الرأسمالي النقدي.

• الشاعر عبد الأمير جرص [1964- 2003م] ، مواليد العراق / ميسان ، توفي في كندا.
له : أحزان وطنية ، قصائد ضد الريح.

الفـرد و الـزواج

الزواج شرٌّ لابد منه !

ثمة خطيئة عند الباب تنتظرك ، احذر أن توقع بك !

طوبى للعواقر اللواتي ما حملت بطونهن ولا أرضعت أثداؤهن !- السيد المسيح (•)

ربطت قصة الخليقة التوراتية مفهوم الجنس بالمعرفة والإدراك ، وجعله سـببًا للخـروج من الفردوس. وهو الخروج الذي تكلّل بجملة مـن اللعنـات ، شـملت الأفعـى والأرض والمرأة والرجل ونسلهما ، وهي مناسبة أول ذكر للمعنى في سفر التوراة.

ويشكِّل العزوف عن الجنس والزواج أعلى درجات الزهد والتقوى الخلقية والروحية. وقد وضع الكتاب المتوحدين ، ممن انتبذوا المرأة ضمن صفوة الخلق الخالـدين أمثـال أخنوخ وإيليا ويسوع !.

إن قراءة تأملية لفلـسفات جلجـامش وبـوذا وأفلاطـون ويـسوع في مـواقفهم مـن المرأة والزواج تدعم هاته الرؤيـة التـي عمـل الفكـر البـشري والـديني سـواء عـلى تغشيشها وطمرها. وتمثِّل سيرة يسوع الناصري وأقواله المنـددة بالخـضوع للغرائـز والحاجات الأرضية والجسدية وتطويبـه للحوامـل والبتـول أوضـح شـهادة في هـذا المجال.

الزواج في تعريفه هـو نظـام اجتماعـي تقليـدي لتـأطير العلاقـة الجنـسية بـين اثنـين ،

• لـوقا 23 : 29

لغاية الإنجاب وتأمين ديمومة نسل المرأة. ويربط الانثروبولوجيون بين فكرة العائلة وظهور الزراعة المستقرة. ولما كانت المرأة أول من مارس الزراعة المستقرة ، فهي صاحبة فكرة الزواج والارتباط المستمر والمستقر بالرجل.

فالزراعة والسكنى والعائلة ، ثلاثة مفاهيم مترابطة تاريخيًا واقتصاديًا واجتماعيًا. ومع تطور الحياة الاقتصادية وتجاوزها الزراعة ، فما زالت علاقة العمل الثابت تستدعي حياة الاستقرار في السكن والاجتماع العائلي.

هذا التفسير الاجتماعي للزواج ، لا يلغي من الجانب الآخر ، الجانب النفسي للغريزة ودورها كحافز للحياة وامتصاص التوترات والضغوط النفسية والاجتماعية والعضلية.

فكما أن الإنسان يميل للطعام والشراب ، ليس نتيجة الجوع والعطش المادي ، وإنما لتنفيس حالات نفسية واضطرابات مزاجية في حالات الحزن والفرح سواء ؛ يصلح نفس الدافع لتعويض الطعام بالجنس والالتصاق الحميم بجسد دافئ. وقد يحفز أحدهما الآخر غالبًا. فتظهر الحاجة للطعام عقب ممارسة الجنس ، والعكس ممكن أيضًا.

فالحاجة المادية والحاجة النفسية ، متلازمتان حيويتان ، يستعين بهما الكائن الحيوي ، للهروب للأمام من حيرة لغزه الوجودي. وقد أحسن الشاعر بقوله : (وداوني بالتي كانت هي الداءُ)!. فعجز الفرد عن معالجة خطأ معين أو التماسك تجاهها ، يشكّل دافعًا للتمادي في الخطأ. وفي حلقات المافيات الإجرامية ، حين يُدفع عضو جديد لممارسة فعل إجرامي معين ، يتم تكليفه بأكثر من عمل متعاقب ، بحيث لا يُترك له وقت للتفكير أو مراجعة نفسه.

إن ضمير المرء يصحو عقب إتيان صاحبه لفعل جديد غير مأنوس ، ويبدأ في تبكيته وتعذيبه القاسي بشكل يدفعه ويساعده للتكفير والتطهر من الخطأ . ولكن عندما تتكرر مرات الخطأ أو الجريمة ، يشعر المرء بالعجز والقنوط من تحرير

ذاته.

فالأشخاص المحترفون في ممارسات عدوانية هم في واقع الأمر ، أفراد وقعوا في الخطأ الأول في ظرف ما طارئ ، ثم تحول إلى احتراف بالتكرار ، وشعروا بالعجز واليأس من استعادة أنفسهم وبراءتهم عقبها.

لا يختلف الأمر في حالات تجربة التدخين ، أو تعاطي الكحول ، أو المخدرات لأول مرة. فالانقطاع الطويل يساعده في النفور من تكرار المحاولة. ولكن عند توفر أسباب معينة مثل دعوات رفاقية للممارسة ، أو ضعف شخصية الفرد وعدم قدرته على التماسك ، تحيله مدمنا. هذه الأمثلة تنطبق أيضًا على العلاقة الجنسية الأولى ، التي تحفز في صاحبها الرغبة والاندفاع لتكرار الفعل ، إلى درجة سحق المشاعر المصاحبة للفعل أو التي تعقبه. أي تحويله إلى ممارسة عادية.

العادية هي قتل الشعور والتفكير بطبيعة العمل.

والعادية هي الدين الأكثر رواجًا في المجتمع البشري ، وفق مقولة (حشرٌ مع الناس عيد). السجين في زنزانة مفردة يعذبه شعور أنه السجين والمضطهد الوحيد. لكن وجوده في عنبر جماعي ، يخفف عنه وطأة الوحدة وتعذيب الذات.

العادية والتكرار... عند تطبيقهما في حالة الزواج أو تكرار الزواج ، يفسران سبب شيوع الممارسة ، وبشكل جعل منها نوعًا من القانون والعرف العام. وبشكل يجعل العزوف عنها مدعاة للتساؤل والاستهجان.

وعلى العموم يمكن ملاحظة أن أكثر الممارسات شيوعًا وسرعة في التداول، هي الممارسات السيئة والضارة. وأن الناس يرغبون في التساوي في الضرر ، أكثر من رؤية شخص عصامي متماسك ، لا يفعل ما يسوء أو يضر ، ولا تحكمه الضرورة.

العلاقة الجنسية أو نظام الزواج ، يشكِّل القاعدة لعامة النظام الاجتماعي ، أو

صورة المجتمع والقبيلة أو المدينة. وقد اشتقت منه منظومة علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية قائمة على المصاهرة والدم والتكافل والولاء والمبايعة والحصانة والحرمة والشرف.

فالعلاقة الجنسية تشكِّل العائلة النووية الأولى التي سوف تتسع وتستعرض بتعدد الزوجات أو العلاقات الجنسية مع الجارية والخادمة ونساء العبيد ، ثم ينمو الجيل الثاني بزواج الأبناء والبنات من عوائل نووية أخرى ، ومن مجموع الأبناء والبنات وعوائلهم الجديدة مع عوائل آبائهم ينتج مجتمع قبلي يتزعمه الأب الكبير ، عميد (عمود) القبيلة.

ويمكن للقبيلة الاستمرار في التوسع ، أو الانغلاق على نفسها في زيجاتها ومصاهراتها ، كما يمكن أن تتشظى وتخرج منها عوائل تشكِّل نويات قبلية جديدة ، متفرعة من العائلة والقبيلة الأم.

هذه التطورات المتراكبة ، جعلت الزواج نوعًا من الرباط المقدس لحفظ ديمومة وقوة الجماعة أو القبيلة أو الأمة. وشكلت المرأة المصنع الأساسي والمركزي لزيادة القوة العددية لحجم القبيلة والأمة.

فالمرأة وقدراتها الجنسية والإنجابية هي ماكينة الأمة الاستراتيجية ، وعلى زعماء القوم أن يضعوا السياسات الضرورية لتطوير استخدام الطاقات البشرية النامية ، بدءًا بالقوة العسكرية الكفء ، والقوة الاقتصادية المزدهرة ، والنُخبة الثقافية والسياسية التي تواصل تطوير الإمكانيات المادية واستمرار المكانة اللائقة للأمة.

الفرد هنا لا يعيش لنفسه ولا يعمل إرادته ، وإنما هو عضو في جهاز القبيلة أو الأمة. ومن أولى واجباته المساهمة بحفظ مدد الطاقات البشرية عبر آليات الزواج وتعدد الزواج. وفي كثير من الجماعات كان سنُّ الزواج يبدأ مع النضج الجنسي للفرد ، ولا سيما الفتى ، مع بدء مشاعر المراهقة. وفي حالات معين

يمكن للفتاة أن تنضج داخل مؤسسة الزواج ، ولذلك كـان سـنُّ زواج البنـت مفتوحـا ، وسابقًا لبلوغها الجنسي.

الزواج المبكر للجنسين يضمن إنتاج أكبر عدد ممكن من الأطفال ، وعدم هـدر الطاقـة الجنسية في غير محلها. فالاستثمار الجنسي للكائن البشري حظى بقدر أعظم من عنايـة الجماعة ، وبشكل سابق على مبادئ الاستثمار الأفضل في الاقتـصاد أو العلـوم والـصحة والتعليم.

وقد اشتهرت مجتمعات شرق آسيا بكثافتها السكانية منذ القـدم ، واسـتمرار تقاليـدها في الـزواج المبكـر ، وانتـشار الجهـل والمـرض وتخلـف فنـون الإدارة والتنظـيم ، نتيجـة القدسية والعادية القهرية المتوارثـة حـول مفـاهيم الحيـاة والجـنس والإنجـاب. ومنـذ القدم ، كان الشرق مصدر الهجرات البشرية وتصدير السكان في أرجاء الأرض.

وفيما نجحت المجتمعات الرشـيقة في ابتكـار وتطـوير نظـم حياتيـة وإداريـة متقدمـة للمعيشة والـسلوك والتفكـير ، اسـتمر التخلـف والجهـل ومنتجـاتهما سـمات تاريخيـة راسخة في بنية الشرق العاجزة عن تحرير ذاتها.

وبدل الاقتداء بالرشاقة والعقلانية الأوربية ، عادت بيئات التخلف إلى نوع من السباق غير المسبوق لضرب أرقام قياسية في كثافة سكانها ، رغم أزماتها الاقتصادية والـسياسية العويصة.

وفي ربع القرن الأخير ، زاد عدد البلدان التي نفوسها يقـرب أو يتجـاوز المائـة مليـون [ماليزيا ، باكستان ، تركيا ، مصر ، بولونيا ، البرازيل] ، وفي ربع القرن المقبل سوف تقفز بلدان أخرى لنادي ما فوق المائة.

كل ذلك يترافق مع فشل برامج التنمية القوميـة ، والمـد العكـسي للـدين والحـضارة ، وتفاقم أزمة المياه والطاقة والغذاء ، وعدمية المستقبل.

إن النتيجة الحتميـة التـي ترتبـت عـلى كثافـة الـسكان عـبر التـاريخ كانـت الحـروب.

وحروب المستقبل لن تستخدم الخيل والرماح والنبال ، كالسابق.

ضمن هذا النوع من السباق الإنجابي ، وازدياد شعور مجتمعات أوربية باقترابها من حافة الانقراض الجنسي وفقدان الهوية الغربية ، وبعدما تمَّ التنديد مطولاً بسياسات أدولف هتلر حول الإنجاب وإرقاء الجنس الجيرماني ، تنشغل إنجلترا بوضع قواعد جديدة للعائلة ورفع نسبة الإنجاب إلى خمسة أطفال لكل زوجين. ترافقها ضوابط مشددة للحد من زيجات إنجليزية مختلطة ، مع الملونين بحسب الاصطلاح.

لقد قام بلير في أواخر عهده بفتح الباب أمام الهجرة البولونية إلى إنجلترا ، لموازنة العنصر الملون في البلاد. ويشكل البولونيون اليوم أحد الجاليات الكبيرة المرغوبة والمدعومة رسميًا ، وفي خلال فترة وجيزة ، دخلت عناصرها مرافق الاقتصاد والبنوك والمؤسسات الحكومية.

وفيما تواصل حكومة كاميرون إجراءات بلير في برامج الهجرة ، تضيف إليها إجراءات أخرى لاستقدام الرومانيين ، والتضييق على المهاجرين الملونين ، والعمل على خلق ظروف إفشال زيجات الإنجليز مع الملونين ، وفي حالات الانفصال ، يتم ضم الأطفال الملونين للجزء غير الإنجليزي. إن أحد وجوه تلك السياسة هو تشجيع ظاهرة السنغل ، والعائلة الوحيدة المعيل ، ومنها السماح بالزواج المثلي وحقهم في تبني أطفال.

وقد ردَّت الأمم المتحدة في قرار لاحق مبينة تزايد النزعة العنصرية في المجتمع البريطاني. حيث تأخذ الإجراءات الجديدة طابعًا اجتماعيًا تثقيفيًا غير مباشر ، لتأكيد المكانة الخاصة للإنجليزي في بلده ، في العمل والزواج والسكن وغيرها.

هذا يضع على البلدان الآسيوية والأفريقية مهمة أساسية لتحسين معدلات الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وتدعيم قواعد الاستقرار والأمن ، بحيث تؤمن لسكانها

الظروف المناسبة وتحد من هجرتها ، للبحث عن الحياة اللائقة في الغرب.

وأعتقد أنه أمر ضروري ومشروع ، طالما تهربت منه النُخب السياسية الحاكمة في آسـيا وأفريقيا ، لدعم إقطاعياتها السياسية والاستفراد بالمال العام.

فالفارق الحضاري بين الغرب والـشرق ، هـو اهـتمام الغـرب بأبنـاء مجتمعاتـه وتـوفير أفـضل الظـروف لهـم ، بيـنما تفـسد حكومـات الـشرق وتـتمادى في النهـب واضـطهاد المعارضين لخدمة أغراضها الشخصية والفئوية على حساب البلاد والعالم. والضحية دائمًا هو الفرد.

الفرد والسياسة

لقد زادت معاناة الإنسان منذ ظهور الدولة والحكومة والسياسة.

واليوم أصبحت أكثر سوءًا مع انتشار الديمقراطية غير المدروسة ، وإضافة قوافل البرلمانيين للطغمة السياسية وما تشكله من عبء على المال العام ، مقابل تراجع إمكانيات الأفراد العاديين وتردي ظروفهم.

من حقك أن لا تكون سياسيًا ، وتتجنب كل حلقاتها ومراكزها ، لكنك رغم كل شيء ، لن تستطيع أن تكون بمنجى عن تأثيراتها. السياسة مثل التدخين ، عدم اقترابك من السيجارة ، لا يمنع وصول أضرارها إليك.

والسياسة اليوم ، في عالم ما بعد الحداثة ، لا صلة لها بمبادئها النظرية وأصولها الأكاديمية التي لا زالت كليات العلوم السياسية تغرِّد بها ، وإنما هي جزء من منظومة فن العلاقات العامة الذي يشكِّل إطارًا وأداة لمفهوم البزنس الجديد.

فالسياسة اليوم ، شأن كل شيء في الوجود ، مجرد بزنس ، يخضع لمبادئ الربح والفائض التجاري ومعدل سعر الفائدة وتقلبات البورصة.

صنَّف أرسطو السياسة في باب الأخلاق ، والأخلاق قواعد تنظيم العلاقات بين الأفراد. والسياسة هي قواعد تنظم العلاقات بين الحكومة والأفراد ، وبينها وبين الحكومات الأخرى ، وقد تتدخل في تنظيم العلاقات بين الأفراد أنفسهم.

العلاقة كمبدأ عام ، خيط يمتد بين جهتين ، على درجة من التقارب والتماثل والتكافؤ. وكلما زادت نقاط التقارب والتماثل والتكافؤ ، كانت العلاقة في أفضل مستوياتها. والعكس بالعكس.

العلاقات أيضًا ترتبط وترتهن بالظروف العامة والمزاج الشخصي. والظروف والمزاج عرضة للتغير ، وبقدر ما ينعكس أثر التغيرات على علاقة ما تضطرب وتسوء. وأفضل العلاقات ما تمتع بالأفضلية ، واقترن بالاستقرار والثبات.

الشروط المثالية الفضلى ترتهن بالمثال. وعالم المثال كما رسمه أفلاطون ليس على الأرض.

السياسة قد تصدرها حكومة أو دين أو قبيلة أو شركة ، وكل من هؤلاء مؤسسة جمعية. والمؤسسة بالتعريف القانوني كيان معنوي يمثل رغبات جماعة من أفراد يجتمعون حول أهداف ومصالح معينة. والسياسة هي الأسلوب الذي تعتمده مؤسسة أو جماعة معينة لفرض إرادتها وتحقيق مكاسب معينة.

والسؤال هو هل السياسة تخدم أفراد المجتمع ، أم تعمل على حسابهم ؟.

القاعدة الفقهية للقانون تفترض أن الحكومة ممثلة لرغبات وإرادات أفراد المجتمع. وهو تعريف طوباوي ، لأنه لا يمكن افتراض المجتمع المكون من ملايين أو عشرات الملايين أو مئاتهم ، على أنه فرد واحد يمكن تحديد رغبته وأفكاره ومزاجه.

وما هو المعدل العام لما يدعى مصلحة عامة ورغبة عامة وفكرة عامة ، إلا حساب أفراد المجتمع أنفسهم. وعندما يكون مردود الفرد من المصلحة العامة مقدار واحد أو أقل من واحد في المائة أو حتى أعشار الواحد. فمعناه أن الفرد لا يستفيد شيئًا من سياسة الحكومة في واقع الحال.

في العلاقة بين اثنين ، عندما تكون الفائدة أقل من النصف ، فالنتيجة توصف بالخسارة ، نسبة للطرف المقابل على الأقل. هذه صورة العلاقة بين الفرد والحكومة أو أية مؤسسة أخرى.

لكن العلاقة مع الآخر ، ومنها الحكومة لا تقتصر على الحقوق وإنما تتعداها إلى واجبات. وعلاقة الواجبات لا تختلف عن علاقة الحقوق. وعندها يجد الفرد نفسه مكلَّفًا بقدر أكبر من الواجبات ، مما تقدمه له الدولة له من حقوق.

نقطة الصفر في كيان الدولة هي تأمين الخدمات الأساسية أو القواعد الارتكازية في المجتمع والدولة ، وهي خدمات الماء والكهرباء والمجاري والصحة والأمن

ويضاف لها التعليم والتلفون والمواصلات.

وباستثناء بلدان الغرب ، لا توجد دولة نجحت في تأمين تلك الخدمات في كل بلادها. وإذا تحدثنا بالنِسب ، فإن نصف الدول لم تحقِّق نصف الخدمات. وما توفر من خدمات حكومية فهي تباع بيعًا للمواطن بأجور يومية أو قوائم شهرية وسنوية. ناهيك عن أنظمة الضرائب التي يدفعها الأفراد لتأمين رواتب منتسبي الدولة وتغطية تكاليف الأعمال الحكومية.

لا يوجد اليوم تحديدًا ، مواطن راضٍ عن دولته وحكومته. ولم تنجح حكومة في تأمين معدل لائق للحياة البشرية في بلادها. والهجرة من بلدان آسيا وأفريقيا أكبر دليل على فشل حكومات تلك البلدان وسوء مستويات أدائها. بل أن كثيرًا من البلدان عادت اليوم لنوع من الحياة الإقطاعية أو الارستقراطية التي تؤمِّن أفضل مستويات الحياة لحاشية الحكومة والفئات الغنية من مالكي الأراضي ورؤوس الأموال التجارية ، بينما تعيش الأغلبية الساحقة تحت معدل الفقر.

ما يمكن للفرد أن يعمله في ظل حكومة برجوازية فاسدة أو عاجزة عن تأمين متطلبات البلاد والسكان ؟...

المشكلة تتفاقم وتتعقد مستوياتها ، حين يجد الفرد نفسه في مجتمع متخلف ، تتحكم به تقاليد دينية وأعراف اجتماعية بالية تمنعه من التعبير عن ذاته والشعور بحريته وإرادته الشخصية. فالفرد في الشرق محاصر بين سندان المجتمع ومطرقة الحكومة.

وإذا تصور - نظريًا - بوجود أمل للإصلاح السياسي من خلال الانخراط في حزب سياسي معين ، فإن بنية التقاليد والأعراف الاجتماعية الضاغطة على الحريات الشخصية ، تحرم الأجيال الطالعة من امتلاك حياة منطلقة تناسب العصر والزمن ، وتشكِّل كابوسًا جاثمًا على حياة الشرق ، يدفعها باضطراد نحو الهجرة ، والبحث عن هواء وجغرافيا ولغات جديدة.

القسم الثالث

في صراع العقل والغريزة

ثمة اتجاهان في تعريف الإنسان ؛ الإنسان كائن عاقل ، الإنسان كائن غريزي.

وكلاهما يفتقد الدقة العلمية ، أو دقة التعبير ، وهنا تكمن 99% من مشاكل البشرية.

في العمليات الجراحية يتم تقدير النجاح بمدى دقة التشخيص ودقة المعالجة ، وأي خطأ مهما كان نزيرًا يقود إلى مضاعفات مرضية وربما إلى الموت. وفي العام الماضي أعلنت إحصائية في دائرة الصحة البريطانية مفادها أن 70% من حالات الموت هم من زبائن المستشفيات. أي أن عدم الدقة أو العناية المفترضة في التشخيص أو الأدوية أو التداخل الجراحي قاد إلى الموت العاجل أو الآجل.

هل يمكن التساهل في عدم دقة الكيمياوي في المختبر ؟... هل يمكن احتمال نقص الدقة في مجال علم الفضاء ومستلزمات المركبات الفضائية ؟

إن خطأ بسيطًا قاد إلى احتراق مركبة في الثمانينيات بعد انطلاقها من القاعدة مباشرة... في استخدامات الأسلحة الذكية في الحروب الذكية ذهب الكثير من البشر والخسائر المادية نتيجة عدم دقة الاستخدام والتشخيص والتصويب والرمي. [حادث قصف سفارة الصين في بغداد من قبل الطائرات الأميركية ، وهو ما سبق حصوله في بلغراد ، بسبب خطأ عسكري حسب الزعم]. مثل هذه الحالات تخضع لتعليمات الأمن القومي وتفرض إجراءات صارمة على أسرارها (لماذا تدعى أسرارًا ؟) ، والإفشاء بها خيانة عظمى عقوبتها التصفية.

لكن عدم الدقة في مجال الخطاب الاجتماعي المتداول يوميًا هو الأكثر شيوعًا وضررًا. فاللغة أحد خصائص الكائن البشري ، ونقصه يشكِّل (آفة) اجتماعية وطبية. لكن سوء استخدام اللغة كمفردات ومعاني لا يشكِّل (آفة) في نظر هؤلاء. أنا اعتقد أن أضرار الاستخدام الخاطئ أفدح من أضرار عدم استخدام

الشيء. والمثل يقول : من لا يعمل لا يخطئ !.

الإنسان ليس كائنًا عاقلاً فحسب ، وإنما أرقى الكائنات العاقلة.

وإلى جانب القردة والدلافين وكائنات أخرى ، ليس الإنسان منفردًا في حيازته العقل ، وإنما يمتاز بنسبة العقل التي يمتلكها. وأنا أضيف لذلك نسبة ما يستخدمه من عقله ومدى دقة استخدامه الذي يوصف بالذكاء والذكاء الخارق الذي يغيِّر التاريخ والمجتمعات.

أما وصف الإنسان بكائن غريزي فليس ثمة أشنع منه. لأن كلّ ما يتحرك من المخلوقات يعيش بالغريزة. والغريزة نظام حيوي بدائي يؤمن ديمومة الكائن الحي وسلامته ولكنه لا يساعد في التطور.

جميع الحيوانات تنطوي على نظام لتحصيل غذائها ، وحماية نفسها من حالات الخطر أو الأماكن الخطرة. وربما هناك غريزة أكثر تطورًا كما لدى النمل الذي يخزن غذاءه ويحفر لنفسه أغوارًا في بطن الأرض.

لكن السؤال هنا ، إلى أي حدّ تؤمِّن الغريزة حصول الإنسان على الطعام ، أو حمايته من المخاطر ، أو تجهيزه بالمسكن والمبيت والحياة الاجتماعية ؟.

الإنسان يحتاج لاستخدام عقله لينجح في تحصيل طعامه ، وفي تأمين سلامته ومنامه ، وفي تحقيق الشراكة الاجتماعية مع أمثاله. حالات مثل المجاعة والتشرد والخوف هي خاصة بمملكة الإنسان ، ودليل فشله في استخدام عقله بشكل يحقق تأمين احتياجاته الأساسية.

كيف يمكن الاستدلال على مدى استخدام الإنسان لعقله ، أو عدم استخدامه إياه ؟

يمكن الاستدلال على ذلك عبر نمط حياة الفرد ، ومظاهر نشاطه الاجتماعي والثقافي ، ويمكن تلخيصها بكلمتين : [كلامه وسلوكه].

يقدِّر علماء الانثروبولوجيا عمر أقدم الحواضر البشرية بما لا يزيد عن خمس عشرة ألف سنة ، بحسب المستكشفات الأثرية في جنوب الأناضول. وتتفاوت الحواضر القديمة في أنماط حياتها ومنجزاتها الحضارية. ويعتبر أهل سومر الأرقى عقلاً ومساهمة حضارية في تمدين وإرقاء البشرية من سواهم ، يليهم في ذلك أهل بابل والفراعنة ثم الإغريق.

وكانت المنجزات العلمية وأنماط الحياة والتفكير الحديثة تنتقل يومها في أصقاع الأرض ويتم انتشارها وتداولها بطريقة لم يقف العلماء لليوم على تقنياتها. تمَّ العثور في أميركا الجنوبية على مظاهر حياة شبيهة أو مطابقة لما هو في سومر ، وكذلك في مصر واليونان.

لكن المنجز العلمي الحضاري لم يكن بنفس القوة والاضطراد في كل مكان وكل زمان.

لقد كانت الحقبة السومرية قصيرة زمنيًا نسبة لأحقاب تاريخية سياسية أو عسكرية.

وإذا حاولنا عقد مقارنة بين حجم النشاط العقلي وحجم النشاط الغريزي في تاريخ البشرية عمومًا أو في مكان جغرافي محدد ، فإن النسبة لن تتجاوز نسبة 1% أو أقل منها ، على مدى عشرة آلاف عام مثلاً.

يمكن تطبيق نفس المقارنة خلال القرن العشرين فقط ، أو العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

ضمن هذه النتائج ، ما الذي يجعل المرء جديرًا بنفسه ؟... كم من حياة الإنسان مدينة لعقله ؟... كم هي مساهمة كل فرد في مكتبة العقل البشري ؟.

في الأطروحات الجامعية الحقيقية - عندما كان للجامعة والأطروحة معنى! - كان على الباحث أن يقدِّم فكرة جديدة جديرة لحيازة الدرجة العلمية "الأكاديمية" في النقد الأدبي عند قراءة نص أو تجربة شعرية أو سردية ، يبحث الناقد عن حجم الإضافة والتجديد لكي ينسب النص للإبداع - باعتبار أن الإبداع هو

الإضافة الفكرية -. ولكن هذه الدقة والصرامة الفكرية تهلهلت ، وصارت في حكم التراث والكلاسيك ، لتحل محلها حالة من الثقافة الشعبية والجامعة المفتوحة على الشارع والإعلام. وانتهت مفاهيم النُخبة على الصعيد الأكاديمي والثقافي والسياسي والاجتماعي بل وحتى الديني.

ليس كل أبناء سومر علماء ، ولكن نسبة العلماء بينهم ملحوظة ، وليس كل اليهود علماء ولكن أكثر العلماء المجددين من اليهود. وليس كل الفرنسيين - قبل نصف قرن - مثقفين ، لكن النُخبة الثقافية كانت فاعلة في الحياة الفرنسية.

إذا كان العقل هو ذروة الجسم ، فإن النُخبة هي عقل المجتمع. وفي مصر النصف الأول من القرن العشرين كان للنخبة الثقافية دور مميز ومؤثر ، يأخذ به الحاكم والحكومة والساسة ووسائل التعليم والإعلام ليصل إلى قاع المجتمع.

قسَّم أفلاطون المجتمع إلى طبقات توازي تقسيمات الجسم البشري ، رأس وصدر وأطراف. وكان حلم الإنسان وأمله أن يختزل الإنسان يومًا إلى صدر وعقل ، وأن يختزل ويسمو ليكون عقلاً خالصًا.

أذكر من خضم قراءاتي في السبعينيات كتابًا للمفكر الرائع سلامة موسى ، عن نظرية التطور وأصل الأنواع لدارون - معذرة لنسيان العنوان -. كان يناقش فيه بعض أطروحات النظرية حول مستقبل الإنسان.

على فرض أن استمرار التطور الحضاري المتمثل في نمط معيشة الإنسان وتعليمه وتغير غذائه وعاداته ودخول النظام والتنظيم في حياته ، ستنعكس تدريجيًا على تطور مدارك الإنسان ووعيه وصورته.

وقد تحقق جانب من ذلك على صعيد مدارك الأطفال المولودين حديثًا !!. وكان من مناقشاته التطرق إلى حجم الرأس (الدماغ) وعدد أصابع القدمين والشكل الخارجي للإنسان عمومًا.

رأى سلامة موسى - بحسب تأويلات النظرية - أن الحيوانات التي تتعلق

بالأشجار تتوفر في أقدامها على ظلفين أو ثلاثة ، ولكنها تحولت إلى خمسة أصابع لـدى الإنسان الذي صار جسمه منتصبًا [Homo- Erectos] لغرض تحقيق أفضل توازن.

وأشـار إلى أن أصـابع القـدمين الخمـسة في طريقهـا للاختـزال نتيجـة تراجـع الحاجـة لاستعمالها. وفي طفولتي رأيت لدى أبناء خالي وجود غشاء رقيق يملأ تجـاويف مـا بـين الأصابع ، وربطت بين ذاك وبين كلام الكتاب.

وكانـت قـصص الأطبـاق الطـائرة معروفـة. وصـدرت كتـب عـن دار المعرفـة الكويتيـة تتحدث عنها ، وفي بعضها وصف لسكان الفضاء: رؤوسهم كبيرة جدًا ولهم ثلاث عيـون وأجسامهم صغيرة يبدون مثل الأقزام...

كثير من الناس لا يستعمل أصابع قدميـه الخمـس ، وبـشكل عـام يعتمـد عـلى اثنـين. أصابع القدمين تتعرض غالبًا لالتهابات وتقرحات وتحتاج لتنظيف وتهوية مستمرة.

ملاحظات أخرى تتعلق بالجهاز الهضمي وبعض الأجهزة الآخذة بـالاختزال أو المختزلـة مثل الزائدة الدودية عند الإنسان أو البظر لدى المرأة ، ونتوء الـذيل في أسـفل العمـود الفقري عند بعض الولادات غير الطبيعية.

وقبل عامين أجريت عملية هنا لشخص كان يعاني مـن نتـوء ملتهـب في نهايـة عمـوده الفقري ، يشبه بقايا الذيل الذي لم يعد الكائن البشري يحتاجه للتوازن.

المغزى من ذلـك... أننـي كنـت أؤمـن بـالتطور ، لـيس التطـور الحـضاري والاجتماعـي فحسب ، وإنما تطور جسم الإنسان المادي وعقله.

يومها قرأت كُتبًا أخرى عن النظرية النسبية لأينشتاين وفيزيـاء الوراثـة ، وجـدت فيهـا أن الإنسان - الكائن الحي - هو ساعة بيولوجية ، وأن الإنسان يمكـن أن يوقـت نفـسه كالساعة. هناك من يستغرب كيف يصيح الديك في الفجـر في نفـس الوقـت ، أو كيـف تنام وتصحو الطيور ، وكيف تنظم أوقات طعامها.

مؤخرًا... قرأت كتاب (طفيليات العقل) لـ"كولن ولسن" الذي يتحدث عن كيفية استخدام طريقة التركيز الذهني للتأثير في ظواهر طبيعية أو حياتية معينة.

هذه القراءات الفيزيائية والبيولوجية ، كانت تتكامل عندي مع أفكار فرويد عن [super- ego] والأنا العليا لدى كيركجورد ، والذي يقابل الضمير الأخلاقي الأعلى أو (الإله) لدى البعض.

وكانت قراءاتي الفلسفية والعلمية في سباق في هذا المجال ، وإيماني بالتطور ومستقبل الإنسان والجنس البشري ينمو ويضطرد.

في لغة الثقافة

ينبغي أن تحتل اللغة موقعها من الأهمية ودورها في التأسيس والتعامل.

اللغة عند الناس هي تحصيل حاصل ، لا يلزمه جهد أو ضنك فكري ، وهـي إرث سـهل وبضاعة مشاعة على قارعة الطريق ، بل أن البعض يعتبرها عطية مخلوقة حباها الـلـه لبني البشر ، ليميزهم عن سواهم.

لكن اللغة ليـست واحـدة بـين الـشعوب ، وهـي عامـل رئـيس في التفـاوت الحـضاري والاجتماعي والسياسي بين قمة السلم البشري وأسفله ، بين مـن يـسودون ويحكمـون ، وبين من يتبارون في الجوع والمظلومية.

اللغة أداة اخترعها البشر ، من أجل إدارة عمليات التفكير في مـستلزمات الحيـاة. ومـن غـير وجـود اصـطلاحات الأسـماء والأفعـال وأدوات الـربط والوصـف ، مـا كـان يمكـن للمنظومة الثقافيـة أن تتـشكل. فالعمليـات المتـصلة بالطعـام والـبرد والمـرض والحـب والبحث عن البدائل ، كلها قائمة على أساس مشخصاتها اللفظية.

باللغة أمكن تمييز الإنسان عن الحيوان ، والكبير عن الـصغير ، والـسليم مـن المـريض ، والحسن من السيئ.

واللغة من إنتاج الفكر وإبداعه. تفكير الإنسان كان وما يزال يخترع المسميات ويـصف الظواهر والعمليات الوجودية في سيبل التعامل معها وتوجيهها بـشكل يخـدم الحيـاة والتطور.

فالتفاوت في اللغة ، منبعه التفاوت الفكري بين الأشخاص والجماعات الثقافية. والفكـر المتقدم يُنتج لغة متقدمة راقية ، يترتب عليها إنتاج مظاهر وأفكار ومؤسسات راقيـة ، تحقق مستوى راقيًا من أنماط الحياة لأهله.

بينما الفكر المتخلف أو الجامد يكون إنتاجه متخلفًا ضعيفًا على صعيد اللغة ، مما يترتب عليه أفكار ومنظومات متخلفة عقيمة تقود حياة أهلها نحو الانحطاط. بل أن الانحطاط الفكري لبعض الجماعات ، يشكِّل عائقًا على طريق التلاقح الحضاري ، ينعكس سلبًا على أوضاع مجتمعاتها وأجيالها اللاحقة.

ما أريد الإشارة إليه هنا هو ضرورة التوقف لدى اللغة ، واستبدال النظرة التقليدية التسليمية الاستهلاكية المجانية إليها ، بنظرة عقلية إبداعية منتجة ، تعيد تأسيس ثقافة اللغة واكتشافها من الداخل.

من الخصائص السلبية للغة العربية أنها لغة تسليمية مطلقة ، لغة لا تشجِّع على التفكير والتأمل. لأنها بطبيعتها قائمة على الاستعارة والتقمص من لغات محلية متوارثة من الآرامية المنحدرة بدورها من اللغة البابلية والأكدية الحديثة. فالعربي ، العادي أو اللغوي ، لا يجهد نفسه لوضع مفردة جديدة ، بقدر ما يميل على واحدة من اللغات المحلية القريبة منه ويستعير منها حاجته ، على طريقة القنص البدائية المتوارثة عُرفيًا.

ولتوضيح أهمية الابتكار والجهد الفكري ، يفضل المقارنة بين اللغة اللاتينية واللغة الإغريقية الأقدم منها ، بين اللغة الإنجليزية واللغة الجيرمانية الأقدم منها. وعلى ضوء المقارنة واختلاف الخصائص والتفاوت الحضاري ، اختلف العطاء الثقافي للإغريق عن الرومان ، كما اختلف العطاء الثقافي للألمان عن الإنجليز.

ومن هذا الواقع يمكن تأشير ضحالة المنتج الثقافي الأمريكي بأصوله الإنجليزية لنصل إلى التشابه والقرابة بين الطابع العسكري لكل من الإمبراطورية الرومانية والدولة الأمريكية.

ثم نستنتج من كل ما سبق أسباب النزعة العسكرية في مجتمعات الشرق الأوسط عامة ، عربًا وكُردًا وتُركًا وفُرسًا ، بالربط مع الطبيعة البنيوية للغاتها المجانية المستعارة من بعضها ، والخالية من الجهد الفكري المنتج.

فهم طبيعة اللغة مفتاح فهم الشخصية الاجتماعية في جماعة اللغة. حيث تشكّل الاستعارة والقنص مبدأ حياتيًا عامًا يسود كل قطاعات الحياة ومظاهرها إلى جانب الاجتماع والدين. فالعادات الاجتماعية المتوارثة بين البيئات المتجاورة لغرب آسيا ، يصطلح عليها بالتقليد.

وهو ما ينطبق على قطاع الدين متمثلاً بطبعات مستنسخة باليد عن بعضها ، حافلة بمظاهر التصحيف والشطب والتعديل ، ناهيك عن كثرة الأيادي المتداخلة في النسخ ، مما أنتج عقائد زادت من تشويه الشخصية الاجتماعية ناهيك عن ارتهانها بالعنف والعسف لإخماد نزعات التمرد والأناركية الشائعة في بيئة عقمت مظاهر التحضر والتمدن.

فعقلية التسليم والمشاعية الثقافية ، تجد في التعويل على الغيب الديني ومركزية التقاليد الاجتماعية المضاهية للقداسة ، تعويضًا عن العجز والإفلاس الحضاري ، وامتناع المساهمة الثقافية في الدائرة الإنسانية.

وبالزيادة عن خصائص الكبرياء والفخر بالذات ، تعتز ثقافات الشرق الأوسط على مجتمعات الغرب المعنية بالإنتاج الحضاري وتأسيس المدنيات ، بضعف التقاليد الاجتماعية والدينية لدى الأخيرة.

واقع الحال ، أن الظواهر الاجتماعية والعقائد الفكرية تشكّل مطيات ونتائج للحالة الحضارية والنظام الاقتصادي المادي. فالإشباع المادي والنفسي في المجتمع المتطور يتم من خلال الإنتاج والعمل المادي والجهد الفكري ، وهو ما يؤمّن استمرار عجلة الحياة والتطور والسعادة في آن. بينما يعول غيرها على الغيب الديني والتقليد الاجتماعي على بلوغ قناعات اجتماعية تسليمية بالمقابل.

وهنا يخطر سؤال عمّا يمكن عمله ، أو المطلوب القيام به ، وهل يمكن اليوم تغيير أدواتنا اللغوية وأرضية القناعات الاجتماعية والغيبية المتحكمة بحياة الشرق ؟.

ما يلزمنا التفكر به والسعي لتغيير أُسس وأساليب معاملتنا فيه هو اللغة أولاً. إن مرد طامة الواقع العربي هو جيوش اللغويين والفقهاء ممن أحالوا اللغة والنص إلى هيكل مقدس يُلزمون الجميع بالدوران حوله والتبخير له ، وترديد آيات التبجيل والتقديس والفخر ، واعتبار أنه لولا اللغة لضاع الدين ، ولولا الدين لضاعت اللغة ، ثم التبس الأمر عن أي واقع ونتائج يتم التهويس ، وما ثمار تلك وهاته ، ونحن نُساد ولا نسود ، ونُقاد ولا نقود ، ولولا فضلات الأعداء لمتنا وانقرضنا منذ حين.

اللغة ليست أقنومًا مقدسًا ، ولا علمًا جامدًا ، وإنما هي كائن حي ، له نصيبه من التطور والتغير وخصائص الاكتساب والفقدان والنمو.

والواقع... أن اللغة الإنجليزية ، لولا انتهاجها سُنن التطور والنمو والتغير لما أتيح لها أن تكون لغة عالمية. لكن اللغة الإنجليزية قبل سبعة قرون اختلفت عما كان قبل خمسة قرون ، وثلاثة وقرن.

واللغات الأوربية عمومًا ، تجدِّد نفسها وتعيد إنتاجها كل قرن من الزمان ، مجددة في المعاجم والدراسات اللغوية. ولا تشكِّل اللغة الأوربية مقدسًا أو إرثًا جامدًا. ومن وقت لآخر يعاد إنتاج وطبع مسرحيات شكسبير وما يضاهيها من رموز التراث بلغة عصرية تستجيب لمتطلبات التطور والتغير. وليس لهم قانون ابن سينا ولا عروض الفراهيدي ولا ألفية ابن مالك. ولا ترتبط اللغة لديهم بالعقيدة الدينية أو الأيديولوجية الحزبية أو هوية الحكومة كالتعريب والتتريك والتكريد والتفريس في بلداننا.

نحن بحاجة لاستعادة الدرس الفلسفي المفتوح في مناهجنا ، وبناء الدراسات المنهجية والحياتية على أرضية المنطق والاستنباط الفلسفي ، وفي أولها اللغة. فاللغة ، - كما سبق - هي مقود عملياتي التفكر والإنتاج الثقافي والمادي. وبهاته الوسيلة ، نتيح لأجيالنا المقبلة ، اللحاق بعجلة التطور والمساهمة الحضارية.

الإنتاجية والثقافة

في البدء كانت الحضارة...

والحضارة هي التحول من التعامل المباشر / المجرد مع الطبيعة وظواهرها ، إلى الاعتماد على الإنتاج والتصنيع والتطوير المستمر لأنماط الحياة ومفاهيمها.

الحضارة هي أسلوب التعامل وأنماط التداول وطُرز التنظيم والإدارة.

أول دالة على الحضارة كانت اليد والأصابع التي تتفنن في تنويع أساليب الاتصال بالطبيعة وتطويرها وتطويعها لتحقيق فائدة ونكهة أفضل من المعتاد.

بدأت الحضارة عند أول استخدام للحجر لتوليد النار ، ثم استخدامه لصنع أركان الموقد ، وتقطيعه لصناعة آلات حادة للقطع أو الطعن ، وصولاً إلى تجفيف البذور وزراعتها وتخزين الثمار ، والإفادة من الأغصان في صناعة الكهوف والقوارب والحصران... إلخ.

وكان لابد للحرف اليدوية من مستوى إبداعي لائق من أنماط التفكير.

في اختبار ذكاء نوع من الطيور ؛ تمَّ وضع بذور في داخل قفص زجاجي له فتحة صغيرة لا تكفي لدخول رأس الطائر ، حاول الأخير مختلف الطرق للوصول للحبوب ، بما فيها محاولة كسر القفص وقلبه ، ولكنه لم ينجح ، ولم ييأس... بعد حين أحضر عودًا رفيعًا ، وبدأ يستخدم العود بحرص لتقريب الحبوب من فتحة القفص والتقاطها بمنقاره ، فعل ذلك مع كل حبة من الحبوب ، ولم يترك واحدة منها.

إن عديد الحيوانات تعتمد طرق ذهنية ذكية في تحصيل طعامها ، أو ترتيب أعشاشها وكهوفها ، مستخدمة أعضاء جسمها القابلة للحركة لتحسين نمط حياتها. ولو كان للحيوان يد وأصابع دقيقة وعديدة مثل الإنسان ، لاختلفت صورة الحيوان وتعريفه اليوم. لكن الحيوان ما يزال يعتمد على نفسه في تلبية

احتياجاته ، ولم يتطور النظام الاجتماعي والاقتصادي لديه بما يتيح لجماعة أن تعتاش على جهد غيرها كما هو لدى البشر.

الاعتماد على الذات في تلبية الاحتياجات ، ساعد في تقليل نسبة الكذب والخبث والنهب لدى الحيوان عمومًا. بينما رصد الخبراء اتسام بعض أنواع القردة بالخُبث والغدر والسرقة والكذب في أساليب تعاملها مع أمثالها. وهي صفة آخذة في الانتشار بين الحيوانات البيتية والمدجنة في الحدائق.

هذا يعني أن نسبة السوء أو الشر ، تنمو كلما قلَّ اعتماد الفرد على نفسه في تلبية احتياجاته. ويعتبر الإنسان الموصوف بالتطور والرقي الجسدي - فسلجة الأعضاء - أكثر كائن إتكالي يسوغ الإتكالية والقرصنة والتمادي في تحقيق احتياجاته ونزعاته النفسية ، إلى درجة الاعتداء على الآخر وقتله للسيطرة على ما بحوزته.

هذا السلوك الفردي الشائن / الوحشي ، تحول بفضل التنظيم الجماعي إلى سلوك عام لجماعات وأقوام على مدى التاريخ. باعتماد الاعتداء والسلب والنهب والهجرة والسيطرة على أموال وأراضي وبيوت الغير لتأمين حاجاتها الغذائية والاجتماعية بجهوزية واستسهال.

بل أن هذه الجماعات الإتكالية الخاملة حضاريًا ، هي الأكثر كثافة سكانية ، مثل الشعوب الأسيوية التي ولدت أكبر الهجرات السكانية عبر الزمن وانتشرت في أطراف الأرض. ومن أشهرها الهجرات الهندو-أوربية والمغولية ، والهجرات الأخيرة الشرق أوسطية نحو الغرب.

بالمقابل ، يمثِّل الشعب الصيني اليوم أحد أكثر الشعوب إنتاجية واعتمادًا على الإنتاج الحرفي اليدوي والصناعي ، وتحتل المنتجات الصينية المتسمة بالجودة والرخص والبُعد عن المضاربة والسمسرة.

الجماعات الحرفية اليدوية ، أكثر ميلاً للإدارة والتنظيم ، والأكثر نجاحًا في حياتها السياسية والعامة ، وتعتبر الصين وإيران (•) في مقدمة الشعوب المميزة تاريخيًا في المحافظة على كيانها الاقتصادي والسياسي ، والأقدر على المواجهة والصمود في وجه السياسة والتحديات الدولية. خلاف ذلك هي الشعوب والمجتمعات غير المنتجة ، والمعتمدة على الغير في تلبية احتياجاتها المعيشية والثقافية والاقتصادية.

إن مفاهيم الغزو والقرصنة والتبرير الديني ، هي مظاهر تكميلية- تعليلية لتسويغ عجزها الحضاري عن الإنتاج وتحقيق استقلالها الاقتصادي والسياسي دون معونة ووصاية من القوى العالمية.

ومن غير تحول جذري في العقلية الفردية والاجتماعية لمجتمعات العيالة ، رغم تأخر الوقت وحراجة الوضع العالمي ، فلا أمل لأبناء تلك المجتمعات وثقافاتها في الاستمرار ، أو اكتساب مكانة لائقة فوق الأرض.

والأخطر منه اليوم ، في ظل صراع الثقافات والهويات والمرجعيات الحضارية والاقتصادية والفكرية ، أن اقتصاديات الإنتاج الكبير ، لا تعيش بغير أسواق استهلاكية عالمية لتصريف منتجاتها ، وبالتالي تدوير عجلة الإنتاج الاقتصادي وتحقيق النمو والتراكم الاقتصادي.

• تمثّل القرية الصينية أو الإيرانية ، أصغر وحدة إنتاجية زراعية أو حرفية ، يشترك كل أفرادها في العمل والاستثمار خدمة المنتج الذي هو رأسمال وعماد حياة القرية. بينما تقوم الدولة (في الصين) ، أو المُلاك / وكيل تجاري بجمع الإنتاج من القرى، وشرائه من الأهالي بأسعار هي أجور متفق عليها مسبقا ولأجل طويل ، ثم يقوم التاجر بتسويق المنتج في البازار الرئيسي – مدينة آزادي / شمالي طهران العاصمة-، ومنها نحو الخارج. وتتمتع القرى الإنتاجية والبازار باستقلالية ذاتية عن التوترات والتغيرات السياسية في البلاد والعالم ، مما يقلل من تأثير التوترات الخارجية السياسية والاقتصادية على الداخل الإيراني ، ويجعلها في منأى عن فوضى الشرق الأوسط والتدخلات الدولية فيها. ويذكر أن مصر الفرعونية ، كانت تعتمد مبدأ الوحدات الاجتماعية الاقتصادية ، وتشكل القرية المصرية ، منظومة إنتاجية زراعية أو حرفية أو صناعية وسيطة ، تتولى الحكومة ووكلاؤها التجاريون جمع وتسويق الإنتاج داخليًا وخارجيًا. لكن الاحتلال الأجنبي دمر التنظيم الإداري والاقتصادي الذي كفل لمصر مستوى لائقًا من الاستقلالية والاكتفاء الذاتي وتصدر الحياة الاقتصادية والاستقرار الإقليمي عشرات القرون.

إن الإنتاج الاقتصادي يعتمد بين أدوات كثيرة ، على عنصر الأيدي العاملة الرخيصة المتيسرة في الصين مثلا. بينما دفعت التطورات الفكرية والمدنية في الغرب الأوربي إلى تغيير أنماط الحياة الحضارية والمدنية ورفع درجة الاستحقاقات والمتطلبات الاجتماعية والمالية ، بشكل أسفر عن تراجع مساحة ومفهوم العمل والطبقة العاملة. وبالتالي تراجع عجلة الإنتاج الاقتصادي والصناعي لصالح الاقتصادات التجارية والمضاربات المالية التي جعلت البنوك تتصدر الدولة والمجتمع والاقتصاد ، وتتحكم بالسياسات المالية والعملة الوطنية والعالمية.

وفي عالم اليوم... تعتمد كثير من الدول على السياسات المالية والمضاربات التجارية ، عمادًا لحياتها السياسية والاقتصادية والعسكرية.

ومن واقع هذا التطور السلبي في حضارة الغرب ، ظهرت مؤسسة البنك الدولي، بمثابة بنك مركزي عالمي يتحكم بالاقتصاد العالمي ، عبر سياسات متداخلة من الإقراض والفائدة وعمولة التأخير التي تنهش اليوم في أجساد معظم بلدان العالم العاجزة عن الاعتماد على نفسها ، وضبط احتياجاتها الاقتصادية ومعدلات إنفاقها الاجتماعي والعسكري غير المبررة غالبًا.

وفي نفس الوقت ، ظهرت مؤسسة النقد الدولي، للإشراف والتحكم في السياسات المالية والاقتصادية وحماية الدولار الأمريكي من المضاربة والتذذبب ، ومتابعة حقوق الغرب الرأسمالي المانح ، في أعناق البلدان الممنوحة والمستلمة للمساعدات والقروض ، وحفظها في الفلك / (الفك) الأمريكي ، وخدمة السياسة الأمريكية العالمية.

فالعالم اليوم ينقسم إلى خنادق ثلاثة: اقتصاديات سلعية منتجة [الصين واليابان وألمانيا وتشيكيا] ؛ اقتصاديات مالية وبنوك تمويلة مقرضة [الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوربي] ؛ مجتمعات استهلاكية مستلمة للقروض ومستوردة لحاجاتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية [بلدان عربية وإسلامية وأفريقية].

الحضارة والحداثة

الحداثة اصطلاحًا تقابل التقليد.

ولمَّا كان التقليد هو القديم المتوارث عبر الأجيال حتى غلبه الجمود والتأكسد ، الحداثة هي التجديد والتطوير ونفحة العصر [Modernism].

فالحداثة هي تحديث الأنماط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الموجهة لحركة الحياة. هي تحديث الزراعة والصناعة ومبادئ العلاقات والمؤسسات الاجتماعية والسياسية في المجتمع.

فما بين القرون الأولى والمتأخرة من الألفية الثانية ، خيمت على الشرق والغرب فترة خمول وفراغ حضاري وثقافي ، ساد خلالهما الفكر الديني الإقطاعي ، الكنسي في الغرب (بيزنظة) ؛ والمذهبية الإسلامية في الشرق (آل عثمان وفارس). جمدت خلالها أنماط الفكر والإنتاج والاجتماع ، واستهلكت البشرية نفسها في صراعات مذهبية وحروب خارجية عقيمة.

وكان لا بد للطبقة المثقفة والنُخب المتميزة من التمرد على الجمود ، والثورة على الإقطاع الدين-سياسي والدعوة للتجديد والتغيير والتطور بما ينسجم مع روح العصر ومتطلبات الحياة والفكر الجديدة.

تلك المبادرات والدعوات الرائدة ، لقيت القمع والترهيب والتهميش والتسفيه والتصفية التي لم تنجح في قمع إرادة الحياة وروح التطور ، فكانت معاقل الإقطاع الكنسي في الغرب الشرارة الأولى للثورة ، على يد الألماني مارتن لوثر(1517م) ، لتفتح باب ثورة الفكر والحضارة الجديدة من خلال كوبرنيكوس وديكارت وايمانويل كانت وجون لوك ودارون ونيوتن وروسو وهيجل وماركس وانشتاين وغيرهم من آباء ثورة التنوير والحداثة (الحضارة الثانية) التي أنتجت أسس المجتمع المدني السياسي الحديث والثورة الاقتصادية

الاجتماعية وحملة التنوير والإشراق التي مدَّت إشعاعها في أطراف الأرض وساهمت في إنتاج الخريطة السياسية والثقافية للقرنين التاسع عشر والعشرين.

استغرقت ثورة الحداثة حوالي ثلاثة قرون من عمر الغرب الأوربي ، لتغيير صورة الحياة وتعريف الإنسان ومفاهيمه الثقافية ، لكن معدلات وصول اشعاعات الحداثة ، وطريقة ومستوى تعاطيها من قبل مجتمعات الأرض ، اختلفت من بلدٍ لآخر ، وبشكل أسفر عن جُملة التفاوت الحضاري والثقافي في المجتمع العالمي.

ومع مركزية البؤرة الحضارية للحداثة الأوربية ، صاحبة امتياز التطور وتجديده المستمر ، تفاوتت مستويات تعاطي التطور والتخلف خارج أوربا.

فصفة التخلف أو دون معدل النمو ، أو النامية في طريق التقدم ، ليست حكمًا خارجيًا استعماريًا كما يوصف ، بقدر ما هو وصف لطبيعة ومستوى تعاطي المجتمع المحلي مع السلعة الحضارية شبه الجاهزة.

والغريب ، أن المجتمعات المتخلفة عمومًا ، تلقفت مفاهيم الحزبية والأُطر السياسية والعسكرية ومفاهيمها ، بل الثقافية والأدبية والتعليمية عمومًا ، وقصرت في مجال الثورة الإنتاجية في الزراعة والصناعات الحرفية والتصنيع الغذائي.

المعروف أن الثورة والتنمية الثقافية هي جانب من الثورة والتنمية الاجتماعية ، التي هي بدورها تحصيل حاصل ، ونتيجة مترتبة للثورة والتنمية الاقتصادية بقطاعاتها المختلفة. لكن الصورة معكوسة تمامًا فيما يسمى اليوم بالمجتمعات والبلدان النامية والعالم الثالث. حيث يجري تعاطي الحداثة الثقافية والكثير من مظاهر الحداثة الاجتماعية السطحية والثانوية ، ويغيب الجوهر الإنتاجي الاقتصادي.

البحث عن السبب ؟...

عربيًا ، وفي حدود الشرق الأوسط ، يكمن الجواب في عمق البيئة الشرقية المتوسطية ، التي استهلكتها العبوديات والقوى العسكرية ، ودمرت - بالتدرج التاريخي - قيم العمل والإنتاجية والتكفل الذاتي.

فمند الألف الأولى قبل الميلاد صارت المنطقة مسرحًا لغزوات قبلية وعسكرية متعاقبة ، بحيث تبتلع إحداها الأخرى ، طمعًا في موارد البلاد المجاورة ، وفائضها الإنتاجي وأنماط الحياة المتقدمة فيها.

لقد صنعت الغزوات طبقات من السادة والحكام والإقطاع الجدد ، بينما تحول السكان الأصليون إلى مجرد عبيد للأرض وموالي ، في خدمة حاجات الإقطاع وتمويل حملاتهم العسكرية.

فبالإضافة إلى سياسات القمع والعسف والحرمان ، لعبت عوامل الهجرة والنفور من الأرض والعمل ، والانخراط المتزايد في دين الحاكم وجيشه ، دورًا في تجفيف عقلية الإنتاج والانتماء للأرض. فما من أثر لسكان سومر اليوم ، إلى حد أن أحد المؤرخين البولونيين يشك في حقيقة وجودهم !. وأين هم البابليون الأوائل والأواخر ، وأين هي مكانة الكلدان والآشوريين في عراق اليوم ، بل في عراق الأمس عقب انقراض ممالكهم في منتصف الألف الأول قبل الميلاد.

وهل انقراض الحكم مبرر لتصفية وتدمير شعب المملكة أو طبقة الحكم السابق ، كما جرى ويجري في العراق المعاصر مند سقوط الملكية حتى اليوم. حيث تقوم كل طبقة حاكمة جديدة بتصفية سابقتها ، حتى يأتي الدور عليها. والخاسر الأول والوحيد هو الشعب ومفاهيم الوطنية والانتماء والإنتاجية.

في عراق اليوم ، كما في بلدان مجاورة له ، يلجأ كثير من أرباب النفوذ والمال إلى تأمين أموالهم ومصادر عيش بديل لهم في بلدان خارجية تحسبًا لانقلاب الظروف. وفي ظل هذه الممارسات الانتهازية والتدميرية والقرصنة اللا أخلاقية

لا يوجد مواطن ساذج أو أبله ، يرضى لنفسه أن يبقى عبدًا للأرض ، ومطية لصاحب الحكم ، يعبر على جثته وقوته ، الوافد والغادي ، وهو يرجع للخلف ، منذ ثلاثة آلاف عام.

حياة المجتمعات مثل حياة الأفراد ، وعلى مدى رغبة الشخص وقابليته في التعلم والتجويد تتحدد شخصيته العامة وكفاءته العملية ومستواه الثقافي والعلمي.

وكذلك الشعوب وسعيها للتعلم والتطور وتطوير إمكانياتها وتقنياتها الحياتية والإنتاجية. في الإنجليزية يجري استخدام مصطلح [lifeskills] ، الذي يحتاجه كل شخص ، ويتميز به كهوية شخصية في وجوده.

الموقف من الحداثة أو الحضارة عمومًا ، يرتبط بالموقف من التطور ، والتطور هو عكس الجمود ، ونقيض التخلف. التخلف ليس الجمود ، وإنما هو مقابل التطور في اتجاه معكوس. التطور منطقيًا يتجه للأمام ، والتخلف منطقيًا ينحدر للخلف ، أما الجمود فهو السكون ، أي انعدام الحركة ، وانعدام هو عدمية الحياة ، أو الدوران حول حجر جامد.

من هنا يظهر أن الشخص ، والمجتمع ، هو المسؤول عن رسم صورته وهويته ومكانته الإنتاجية أو الاستهلاكية ، التقدمية أو الرجعية ، بحسب نظرته وطريقة تعاطيه مع حياته.

في مراوغة المنطق

إذا اجتمعت علامتا (-) في عملية حسابية واحدة فالنتيجة تكون (+).

أي أن حاصل عمليتين سلبيتين يكون نتيجة إيجابية.

وفي المنطق الفلسفي يقال : نفي النفي إثبات.

هذه المفارقة الرياضية والفلسفية وجدت رواجًا في كثير من مجالات الحياة والأبحاث بغير التروي أو تمحيص الأسس. فقد تحولت إلى قاعدة فقهية في القرارات القضائية وتفسير الاشكالات الاجتماعية ، وأخيراً... تحولت إلى مبدأ من مبادئ السياسة الدولية وسيما في حل الأزمات المستعصية.

إن أحد مفاهيم الفرضية يمكن صياغتها بالقول إن حاصل اجتماع سلبيتين يكون إيجابيًا. فإذا كانت ثمة مشكلة في مكان وزمان معين ، نقوم باصطناع مشكلة نظيراً لها ، وعندها تقوم كل مشكلة بمعالجة الأخرى وتوفير ضررها عن الآخرين !.

وجود قوة شريرة في مكان ما ، يقتضي توليد قوة شريرة مضاهية لها بالمقابل ، فتتكفل كل منهما بالقضاء على غريمتها وبالنتيجة تأمين القوى الأخرى من أضرارها.

وفي عالم اليوم ، عالم ما بعد الحداثة أو العولمة والإنترنت وأحادية القطبية ، تفاقمت المشاكل والكوارث والأزمات بشكل يفوق منطق الطبيعة. وكأن بابًا من أبواب جهنم أو أكثر قد فتحت على مصاريعها.

ورغم أن صور المشاكل وأسبابها الأثينية أو الدينية أو الاقتصادية أو السياسية قديمة الأصول ، وجزء من طبيعتها ، غالبًا ، فقد تفجرت اليوم كظاهرة جديدة. إنه ربيع المشاكل وازدهار الخلافات العقيمة والموروثة. وكأن سيد العالم الجديد ، أراد مرة واحدة ، وبضربة قلم ، أن يحل كل المشاكل والأزمات في

العالم ، وذلك بتفجير أسبابها مرة واحدة ، ووضع البشر في مواجهة حلها ، أو الانقـراض بسببها وفي خضمها.

وعند تحديد جغرافيا المشاكل والأزمات المستعـصية ، نجـد أن مناطقهـا تتـوفر عـلى أحد المواصفات التالية :

- الجهل والتخلف
- ثقافات قبلية أو دينية.
- قوى سياسية راديكالية
- حركات تدعو للتحرر والاستقلال
- اتجاهات وطنية بعيدة عن المحور الغربي السائد
- من بقايا العالم الثالث أو الثاني ومن دول عدم الانحياز أو منظومة الكوميكون
- تتوفر عـلى مـوارد اقتـصادية اسـتراتيجية أو موقـع جغـرافي اسـتراتيجي في العـالم. بعبارة أخرى ، أنها جزء من دائـرة الأطـماع الاسـتعمارية والإمبرياليـة مـما يجعلهـا جزءًا من جغرافيا الأمن القومي الأميركي ، كما ورد في توصيف العراق مثلاً.

إن مشروع الهيمنة الدولية المطلقة قديم ، قِدم السياسة ومركزية الأطـماع في الطبيعـة البشرية. ولعل أول إمبراطورية عرفهـا العـالم عـلى يـد سرجـون الأكـدي ، زرعـت تلـك البذرة التي استعارها الفكر الـديني الابراهيمـي ، وترجمتهـا فكـرة المـسيح العـبراني أو الإنجيلي ورديفتها الإسلامية (المهدي المنتظر).

وبعد محاولة فاشلة لاستعادتها عـلى يـد الإسـكندر المقـدوني ، ظلـت الـشغل الـشاغل لعديد أباطرة روما وبيزنطة ، لتوحيد العـالم تحـت قيـادة رجـل واحـد وديانـة ودولـة واحدة ، ولكنها استنزفتهم جميعًا ولم تتحقق ، ووقف العرب من بعدهم على مشارفها ، وقصروا عنها.

وفي العـصر الحـديث ، ظهـرت منظومـات الفرانكفونيـة والكومنولـث والكوميكـون والثقافات الاشـتراكية والرأسـمالية ، كأوعيـة إمبراطوريـة سياسـية (و) ثقافيـة لتقـسيم

وتصنيف البلدان والشعوب واحتوائها تحت قيادة مركزيـة. وفي إطارهـا ظهـرت فكـرة مجموعة عدم الانحياز في مؤتمر باندونغ 1955م.

ومع استفراد الولايات المتحدة الأميركية بزعامـة المعـسكر الرأسـمالي أولاً ، ثـم العـالمي عقب انهيار المعسكر الاشتراكي 1989م ، أصبحت كـل دول المنظومـة الاشـتراكية وعـدم الانحياز السابقة أهدافًا سياسية واقتصادية وثقافية للترويض والاحتواء الجديد.

الولايات المتحدة الأميركية دولة رائدة في تضمين ميثاق منظمـة الأمـم المتحـدة مبـادئ حرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها ، واليـوم... تـستعيد تلـك الريـادة في مـصادرة حق الشعوب في تقرير مصيرها.

•

هنا أيضًا نجد ميوعة المبادئ والـشعارات التـي يجـري تـداولها مـن حـين لآخـر ، دون إدراك وظيفتها التكتيكيـة والظرفيـة. فهـي تـأتي لخدمـة ظـرف معـين وجهـة معينـة ، تتوارى خلفها.

وعندما طُرحت مبادئ ولسن الشهيرة عقـب الحـرب العالميـة الثانيـة ، كانـت الغايـة المضمرة تحجيم النفوذ السوفيتي والشيوعي في العالم ، ناهيك عن وضع نهايـة للنفـوذ الاستعماري القديم البريطاني والفرنسي وغيرها.

في كل جزء ومظهر مـن الطبيعـة نجـد الكائنـات المتباينـة في الحجـم والـشكل والقـوة والذكاء والمنفعة ، وهو مـا ينطبـق عـلى عـالم الإنـسان والاقتـصاد والـسياسة والثقافـة والاجتماع.

ولم تظهر مقولة: (الأسماك الكبيرة تأكل الأسماك الصغيرة) إلا في عقول بعض البشر مـن ضحايا نزعة الطمع والغيرة المرضية. فالأسماك الصغيرة والملونة والحشرات الدقيقة تملأ البحار والهواء ، ولم تنقرض... لكن الديناصورات انقرضت !.

الفلسفة التبسيطية

تغيرتُ تمامًا عندما تغيرتْ نظرتي للحياة والوجود ، والفضل يعود لاكتشافي الفلسفة التبسيطية ، كان ذلك في بداية عقدي الثاني.

قبلها كنت أقرأ وفي داخلي سؤال عن جدوى الفلسفة. في داخلي ثمة إيمان غامض مجهول ، يرى في الفلسفة أرقى مستويات التفكير البشري ، ولكني لم أعرف جدوى الفلسفة ، وكيفية الاستفادة منها في الحياة اليومية. فالفلسفة مثل أي شيء آخر ، ليست مجرد مادة للجدل والتنابز العقيم.

إننا نعيش في عالم من الظواهر والمنظومات والتشكيلات الكلية ، دول ومؤسسات وحروب وصراعات لا أول لها ولا آخر ، وكل مشكلة في جانب منها تتناسل في سلسلة مشاكل تزداد تعقيدًا وغموضًا ومتاهة ، حتى تبدو بلا حل.

لكن النظر من الخارج والانزلاق على السطوح لا يقود إلى فهم حقائق الأمور ، وبانعدام الفهم يستحيل الحل. فالحقيقة ليست معقدة في ذاتها ، الحقيقة ليست غامضة ، الحقيقة مجردة. أما الشكل والظاهرة والمنظر العام فهو غامض ، لأنه يخفي الحقيقة ويلعب الزمن والإنسان دورًا في تراكم الغبار والأصباغ والالتواءات على سطح الظاهرة ، فيضيع الحابل في النابل.

الحل يكمن في الكيمياء التحليلية. تجزئة الأجسام إلى مركبات ، والمركبات إلى جزيئات ، والجزيء إلى ذرات ، والذرات إلى نويات ، والنويات إلى بروتونات ونيوترونات ، لنقف على جوهر الوجود.

عندما يعالج الطبيب حالة مرضية معينة ، فهو لا ينظر إلى أعراض المرض الخارجية في حد ذاتها ، وإنما يعتبرها مدخلاً وعلامة على وجود خلل داخلي. فالعقاقير والأدوية تتناول الإنزيمات والخلايا الداخلية لأعضاء الجسم الداخلية ،

التي يؤدي اضطراب عملها ونسب مكوناتها إلى ظهور عوارض المرض الخارجية.

المرض داخلي ، والحل يجب أن يبدأ من الداخل. هذا دور الطبيب الحقيقي ، الناجح. عامل الميكانيكا ومصلح الساعات ، يهتم بآليات ماكينة السيارة ، وإلكترونيات الساعة الدقيقة. والخلل الحقيقي يكمن في جزء تفصيلي من الجهاز الداخلي ، أو علاقة التماس بين جزأين منها.

بالتأكيد ثمة مصلحون غشاشون أو نصابون ، يقومون بحلول ترقيعية شكلية تجعل صاحب المشكلة زبونًا دائمًا ، وبالتالي يحقق لهم ديمومة من المكاسب. وهذا ينطبق على الطبيب التاجر ، والسياسي التاجر المنافق ، ومعظم العاملين في مجالات الشأن العام.

فالصدق والإخلاص والمسؤولية عُملة في طريقها للانقراض.

يقال في المثل الشعبي: إن المشكلة إذا خرجت من محيطها ، استحال حلها... والمشكلة العائلية عند دخول طرف ثالث ورابع وعاشر تنتهي إلى كارثة. والسر إذا تحول إلى كلمة ووصلت الأذن ، سوف يشيع في المجتمع.

وهذه وظيفة مواقع الاتصال الاجتماعي وسيولة الإعلام المجاني. هذا ما يجعل العالم يعيش في إخطبوط سرطانات متناسلة وإشكاليات عقيمة تنشر الصداع والإحباط وتنتج طبقات من الانتهازيين الطفيليين المستفيدين من المتاجرة والمزايدة بجراح الآخرين ومآسيهم. فيزداد حجم الفقراء والمعوزين والمحبطين والقتلى والمنتحرين ونسبة الأمراض النفسية والعقلية والبيولوجية ، يقابلهم موجات جديدة من التجار والمترفين والطفيليين المنتفخين بدماء الضحايا وحسني النوايا والسذج والضعفاء.

عالم اليوم هو بكلمة واحدة ، عالم أغنياء وعالم فقراء ، عالم أقوياء وعـالم ضـعفاء ، عـالم تنانين وديناصورات وعالم حشرات يداس عليها بالأقدام. عالم البنوك الدوليـة والـشركات العابرة للقارات. مقابل بلايين البشر ممن لا يكـادون يحظـون بلقمـة نظيفـة أو سـكن حمـيم أو شـارع آمـن أو نقطـة كرامـة. والـسبب في كـل ذلـك ، هـو منطـق المتـاجرة والمراوغة والهروب من الواقع وتدليس الحقائق.

أي مشكلة صحية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتـصادية أو دوليـة ، إذا تـمَّ تحليلهـا إلى خيوطها الرئيسة بصدق وإخلاص ونزاهة ، فـسوف يـتم القـضاء عـلى كـل المـشاكل في العالم.

مـن وجـوه تعقيـد ومَـشكلة عـالم اليـوم ، تفكيـك الوحـدات الاجتماعيـة والمجتمعيـة البسيطة والمحلية وربطها بالإخطبوط العالمي. فالعملة المحلية ليست مـستقلة كعملـة وطنية. والسياسة المحلية ليست مستقلة كسياسة وطنيـة عـن الـسياسات والتـدخلات الإقليمية والدولية.

ولا وجود اليوم لمعظـم البنـود والمواثيـق الدوليـة التـي قامـت عليهـا مـنظمات الأمـم المتحـدة وغيرهـا مـن المـنظمات الإنـسانية التـي وقعـت ضـحية الإخطبـوط العـالمي وانحرفت عن مسارها وتعمـل بجنـون عكـس إدعاءاتهـا الإعلاميـة ، ونـصوص قانونهـا ونظامها الأساسي.

فأين هو اليوم حق تقرير المصير واحترام حـق الـشعوب في اختيـار طريقهـا ، ومـا هـو تطبيق مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للـدول الأخـرى ، في الـسياسات الدوليـة والإقليمية اليوم التي تنشب كل دولة أظافرها في جلد وقلب دول أخرى تكالبت عليها نوائب الزمن وجعل منها فرائس إقليمية ودولية.

إن المبدأ الذي يحكم بشرية اليوم بجملة واحدة هو : من لم يكن ذئبًا ، أكلته الـذئاب. ولذلك تحاول حتى الفئران أن تستذئب وتستأسد وتزرع لها أنيابًـا صـناعية في الـسيرك العالمي.

لا غرو أن الفلسفة غريبة ومستنكرة اليوم ، كثيرون يستهجنونها ويسفهونها ضمن منظور أشمل لحرف العقل البشري عن التفكير السليم أو التجرؤ على لمس جرح الحقيقة.

عاملان يتحكمان اليوم في الواقع العالمي : الإعلام والعنف ، إخطبوط إعلامي وإخطبوط عنفي همجي.

وظيفة الإعلام تزويق العنف وتسويغ مبرراته بشعارات ديماغوجية برَّاقة وتسويقه باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان من بلد لآخر ، ومن قرية إلى قرية ، ولا تهم الأسباب ، دينية أو اقتصادية أو اجتماعية. المهم ما تستحلبه من أموال دم وتدمير بلدان ومجتمعات وسوقها أسيرة في سوح العبيد العالمي. الإمبراطورية لا تكون إمبراطورية بغير حروب وهزائم وعبيد ، وافتراس السمك الكبير للأسماك الصغيرة.

ما الذي يمنع المجتمعات المحلية من الالتفات لنفسها وتنظيم أمورها وحل مشاكلها دون أن تسمح بالتدخلات الخارجية من جيران وما يسمى قوى ومنظمات دولية بعدما انكشفت غاياتها وأساليبها وتواطؤها مع إمبراطورية الشر ؟.

لماذا لا يجتمع بلدان أو ثلاثة وتتعاون فيما بينها وتبدأ في وضع مسافة بينها وبين التبعية الأجنبية وسطوة املاءات صندوق النقد الدولي ومجلس الأمن الدولي المكشوفة الغايات ؟. ولماذا لا تجتمع بلدان العالم الثالث وتحتج وتصدر بيانًا دوليًا مدروسًا يؤكد حقوقها الوطنية والإنسانية ويفضح حقيقة السياسات الدولية التي زعزعت الأمن والاستقرار العالمي والإقليمي والمحلي في كل أطراف الأرض ما عدا أميركا الشمالية وغرب أوربا.

أليس تشرذم الخراف يغري الذئاب بافتراسها ؟.

لماذا وقع أطفال وناشئة اليوم كالعميان على منتجات الإعلام وتكنولوجيا

الاتصالات الإلكترونية ، يستهلكون منتجاتها المسمومة ، ويصدرون فضائهحم المصورة على مواقع الاتصال الاجتماعي ، ويزيدون مجتمعاتهم تفككًا وبلدانهم ضعفًا ، وأنفسهم تحللاً.

إن الإنسان بحاجة لعائلته ، وبحاجة لوطنه ، وبحاجة لمحيطه الاجتماعي الثقافي؛ وكل هذه حاجات أساسية !.

وقد أثبتت مشاريع الهجرة فشل الاندماج والتكافؤ الإنساني. وما يزال المهاجرون غرباء في مواطنهم الجديدة رغم مرور عقود وأجيال على كثير منهم. وكل الحوافز الشكلية لم تملأ فراغ العائلة الأصلية والوطن الأول وحميمية الأهل.

يعيش المهاجرون حالة من الاغتراب والتفكك والتهميش ، جيلاً بعد جيل ، وكثيرون لم تعد الظروف تسمح بعودتهم لمجتمعاتهم الأصلية سيما بعد الانهيارات المجتمعية وآثار السياسات الدولية. فالسياسات التي كانت وراء تهجير الإنسان من وطنه ، عملت على تعويق عودته لبلده ، وفق ما يشبه سياسة الأرض المحروقة. وأوضاع كثير من بلدان التهجير مستمر في التردي والانحطاط ، بينما تحول العنف والحرب إلى ظاهرة يومية في بلدان كثيرة ، كما في العراق مثلاً.

إن قراءة الوضع العالمي غير معقدة ، ولا صعبة الحل. المشاكل بسيطة ، والحلول موجودة ، ولكن البشر تغيروا. ثمة غياب للرجل القوي ، غياب للنزاهة والوطنية والحنكة والقوة المجتمعة في شخص واحد. وفي كل بلد يسود عدد الخونة والجواسيس والانتهازيين على الأغلبية النائمة.

وعندما يظهر شخص وطني قوي شريف ، يجتمع عليه بنو جلدته لكسره وتهميشه وتخوينه لخدمة الإخطبوط العالمي واستمرار الفساد والخراب المحلي والإقليمي. الأنانية هي الدين الإمبريالي الجديد ، وكتابها المقدس هو المال !.

نحن لم نزرع البيد

نعم... نحن لم نزرع البيد...

مع أول قدم تضعها غرب البسفور... تبدأ أوربا...

أوربا تعرفها من طبيعتها الخضراء وغاباتها اللانهائية على امتداد النظر ، على امتداد الشارع أو النهر ، أو خط السكة الحديد. وعند النظر من الطائرة في ارتفاعها أو انخفاضها ، تميز مساحاتها الخضراء من مساحاتها المائية.

كيف تجمع أوربا بين الخضرة والصناعة والتقدم. المدن والقرى والحدود هي مساحات خضراء وغابات ممتدة ، وكأن شيئًا يكمل شيئًا... عندما رأيت أوربا للمرة الأولى ؛ تذكرت الساعات الطويلة التي قضيتها متنقلاً بين بغداد والبصرة بالسيارة أو القطار ، وامتداد صحارى النظر التي تندلع منها ألسنة الحرارة كسيوف من نار ، وعندما تصمد عجلات السيارة في تلك الحرارة الجهنمية ونصل بسلام وبغير تأخير ؛ نعتبر أنفسنا محظوظين.

الخضرة الوحيدة هي منطقة الأهوار التي تجللها رائحة نتانة وعطن خانقة بأثر المياه الساكنة ووخامة هواء المنطقة.

نقطتان لا يمكن مد خط بينهما. فكرت لماذا لا يقوم السكان أو الحكومة بتشجير الشوارع الخارجية والداخلية وحافات المدن والقرى وحدائق البيوت ، إذا كان هذا حال بلاد الرافدين والبحيرات فما حال بلاد لا نهر لها ؟!.

وأين هي المشكلة ؟... هل هي في نقص الأيدي العاملة أو نقص الأموال النفطية ؟. وهل زراعة شجرة أو عشب يحتاج تخصيصات مالية وخطة خمسية تصادق عليها الحكومة ومجلس النواب ، ويوافق عليها مجلس الأمن الدولي.

في هذه النقطة تستحق بلدان الخليج أكثر من تحية ، وهي صاحبة معجزة

زراعة صحراوية لا تقل عن معجزة الاقتصاد الياباني عقب الحرب العالمية الثانية. على مدى سنين طويلة ، روَّج الاتحاد الاشتراكي لإصلاح أراضي الصحراء المصرية، وتوزيع خريجي كليات الزراعة ومدهم بالإمكانات المادية.

فما كان من سياسة الانفتاح أيام السادات ومبارك غير بيع صحارى مصر بقروش زهيدة لرأسمالية الفساد وبناء مدن صناعية ومنتجعات سياحية للبيع والإيجار بالتقسيط المريح ، دون أن تحل مشاكل مصر الاقتصادية والاجتماعية والعجز الدائم في ميزان المدفوعات ، ولا قللت من معدلات الهجرة المصرية والمساعدات الخارجية الممنوحة لها سنويًا.

زراعة الصحراء مفهوم اقتصادي إنتاجي يحتاج ثورة في العقلية وثورة ثقافية في المجتمع ، يحرِّر العرب من عقلية الغزو والنهب والنصب بمستوياته المختلفة ، وينقل الفرد العربي من ثقافة الاعتماد على الغالة والدولة والمساعدات الخارجية ، إلى ثقافة الاعتماد على الذات وتحقيق الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي الوطني الذي بدونه لا وجود ولا معنى للاستقلال السياسي وشعارات الوطنية.

يرتبط ظهور العرب تاريخيًا بلحظة الخروج من عدن والتخوف من انهيار سد مأرب حسب رواية ابن اسحق. وأهل اليمن عبر التاريخ هم أهل زراعة وصناعة وعمران وحكم ودول معروفة... فكيف تغيرت طباع المهاجرين منها من عقلية الإنتاج إلى عقلية الغزو والبداوة ؟. وهل كانت شبه جزيرة العرب صحراء من أصلها ام أنها تصحرت بفعل الإهمال ؟.

هذه المسألة بحاجة للدراسة والتأشير ، تمهيدًا لإنتاج ثقافة إنتاجية وعقلية إبداعية تزرع وتصنع ، بعدما صارت تحسب وتكتب بفعل الحداثة الغربية من القرن الماضي.

تشير سجلات الدولة الأشورية إلى قيام بدو الجنوب بالتخرص على حدودها.

ومند القرن الثالث قبل الميلاد بـدأ اسـتيطان قبائـل عربيـة في جنـوب الأناضـول قـرب منابع المياه العليا التي من آثارها منطقة ديار بكر التاريخية.

السؤال هو لماذا لم يجر استزراع شـبه الجزيـرة ؟... واعـتماد مكـة البـتراء عـلى التجـارة الوسـيطة أو طـرق مـرور قوافـل التجـارة ، بـدل إنتـاج التمـور والحمـضيات وتـصدير المنتجات الزراعية ؟. وأين مصير الحـرف اليدويـة المهنيـة وانتـشار أهـل الـيمن شـمالا وتبديهم ؟.

ومن الأفكـار التـي راودتنـي خـلال قـراءتي للتـاريخ ، أمـا كـان أجـدر بالإسـلام كحركـة اجتماعية سياسية منظمة ، توجيه الناس لقيم العمل والزراعة والأعمال الحرفية ، بـدل تمجيد قيم الكر والفر والغزو ونهب القوافل والمدن المطمئنة ؟...

أعتقد أنه كان بالإمكان تغيير صورتنا البدوية الغزويـة وعقليـة القرصـنة والاغتـصاب ، لنكـون امتـدادًا لحـضارات سـومر وبابـل وعـدن... لكانـت صـورة العـرب ومكـانتهم وتاريخهم عكس ما هي اليوم من عقلية الاحتراب الداخلي والتبعية الكاملة للأجنبي.

لقد خلق اللـه الإنسان ليعتني بـالأرض ويزرعهـا ويـنـشر الحيـاة والخـضرة والـسلام... فالإنسان ليس مجرد سائح في الحياة ، يلتقط ما يجده في طريقه ، وبأي طريقة أو ثمـن !

القسم الرابع

الحضارة ليست أمة

الحضارة هي حلم كل أُمة ، وأمنيـة كـل فـرد أن يولـد في أُمـة ذات حـضارة. فـما هـي الحضارة ؟

للتعرف على الحضارة وعلاقة الأمم المتحضرة بها ، يلزمنا مراجعـة التـاريخ ، والمراجعـة قد تكون قراءة أو دراسة ، بالشكل الذي يوافق وعي الآلية ، التي تتشكل فيها الملامـح الحضارية.

إن عدم فهم الآلية الحضارية ، يعود سـببه إلى طبيعـة منـاهج التعلـيم ، التـي تتنـاول الأشياء بطريقة - يقينية تسليمية - وصفية جامدة ، كـما لـو أنهـا وجـدت هكـذا منـذ البدء. فمفهوم (سُنة الحياة) موغل في عقولنا أكثر من (سُنة التطـور). والـصحيح إدراك أن (التطـور سُـنة الحيـاة) !... للتحـرك مـن العقليـة الـسكونية الرتيبـة ، إلى العقليـة التطورية المتجددة.

لقد بدأت الحضارة تاريخيًا من الشرق ، قبل أن تزحف تدريجيًا غربًا في الألفية الثانية. وعندما ندرك أن الشرق الأوسط والشمال العربي ، تحديدًا كـان مولـد وحاضـنة البـؤرة الحضارية الأولى طيلة آلاف السنين ، فلابد للمنـاهج التعليميـة التربويـة ، التركيـز عـلى أسباب التراجعية الحضارية ، إلى درجة غيابها التام خلال الألفية الثانية حتى الان.

فالدرس التاريخي ليس المقصود به التوفر على مادة ، للتفاخر ولا البكاء على الأطلال ورثاء الذات. وإنما التوفر على منهج تربـوي تعليمـي ، ينمـي عقليـة البحـث والاكتـشاف لـدى الأطفال ، ويوفر لهم الظـروف والإمكانـات الماديـة والدراسـية ، لاختبـار الأفكـار وتجربـة الفرضيات ، تحـت اشراف علمـي تربـوي ، يـساعد عـلى إنتـاج جيـل جديـد مـن العلـماء والمكتشفين والمنظرين ، تتوفر لهم بيئة علمية واجتماعية مناسبة لنشاطهم العلمي.

فمن غير البيئة الاجتماعية والتربوية السليمة ، وأجواء الحرية والأمان والمستلزمات المادية ، لا احتمال للحديث عن حضارة.

والدليل على أهمية البيئة الحضارية والأمن والحرية ، ظهور ثلة من العلماء والمنظرين العرب المقيمين في الغرب. بينما تتراجع تلك التطلعات والإمكانات في النظام العربي والبيئة الاجتماعية غير الصحية في بلداننا.

نظرة المؤرخين والمنظرين الأجانب لنا هي نظرة محبطة ، يعمل الإعلام العربي على تجاوزها أو تزويقها والتهوين من آثارها ، وفي ذلك مؤامرة على الذات والمستقبل ، وبالتالي تعميق أسباب التخلف والتردي مجاملة ورياء لفئات معينة ، تفضل مصالحها الانية على المصالح الاستراتيجية للأمة والإنسان الفرد على السواء.

لقد حاولت سياسات التحديث في القرن العشرين ، إنجاز بعض التغيرات الجوهرية لدفع عجلة الحياة والتفكير للأمام ، وهو ما وفر للأمة نُخبًا ثقافية وعلمية مهمة خلال النصف الأول من القرن الماضي ، سرعان ما تراجعت وأُحبطت لاحقًا ، في جُملة تردي النظام والتفكير العربي في النصف الأخير منه ، وبالشكل الذي انتهى إلى الراهن الرجعي سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا. فما حصل خلال نصف القرن الأخير ، يعتبر امتدادًا قاسيًا لقرون التخلف والسيطرة الأجنبية المظلمة بين القرن الثالث عشر والتاسع عشر.

مع الأخذ بنظر الاعتبار ، أن مصالح الاستعمار التقليدي اقتضت سابقًا تحديث المجتمعات المتخلفة ، بينما تقتضي مصالح الاحتلال الأجنبي الراهن ، تعميق مظاهر التخلف والجمود ، لتأمين استمراره وضمان عدم التمرد والمطالبة بالاستقلال والتحرر.

فالخروج من حالة الراهن والتطلع لامتلاك مقاليد الحضارة ، هو رهان الفرد العربي نفسه ودوره الإيجابي لتغيير معايير حركة الواقع ، بما فيها مواجهة

آليات الإقطاع الرجعي - السياسي والديني - وتغيير دفة الحركة نحو الأمام.

وإذا كانت الديمقراطية آلية غربية فرضها المحتل ، للتغطية على أغراضه الحقيقية ، فالفرد المثقف والمتعلم يستطيع تنوير محيطه الاجتماعي من كبار السن وغير المتنورين ، ممارسًا دوره التنويري في التطلع للحياة والحضارة ، واستخدام الديمقراطية لتغيير طبقة الحكم التقليدية الرجعية ثقافيًا وسياسيًا ، عبر المساهمة في إنتاج نخبة وطنية متنورة ، لا تتاجر بالشعارات وتمالئ جماعات النفوذ المحلية والأجنبية ، على حساب الأمة والمستقبل.

كثيرون يشكون من التعب ، ويلتمسون مظاهر الدعة والترف ، للاستجمام من آثار الحروب والاضطراب. لكن الضرورة الحضارية تقول إن الأيام المقبلة هي أيام العمل الجاد والشاق والنضال الحقيقي ، المعتمد على الدور التنويري للفرد والمثقف العضوي ، وليس الاعتماد على الأحزاب والمنظمات ، التي تسرق جهود الجماهير لتحقيق مكاسب حزبية وشخصية ، كما هو واقع الحال.

الحضارة ضرورة للأمة والفرد ، ولكن بطلها الوحيد هو الفرد ، في الزمن الصعب. هذا الفرد هو الذي سوف يصحح المعادلة السياسية التقليدية ، التي اعتبرت الشعب يخضع لوصاية الحاكم ، وعالة على صدقات الحكومة.

والصحيح أن يكون الشعب وصيًا على الحاكم والحكومة ، وصاحب الجهد والإرادة في إنتاج الحياة والحضارة سوية.

انحطاط الأمة... والخوف من الكلمة

(عمّ الخراب بلادكم ، والتهمت النار مدنكم.

نهب الغرباء حقولكم أمام عيونكم.

هي خربة ، عاث فيها الغرباء فسادًا)

- أشعياء بن آموص-

من ملامح انحطاط الأمة أن يسودها السفهاء [من السَفَه وهو ضعف في العقل] ، وأن يُذلّ النبلاء والشرفاء ، وكلمة الحق تغترب ، ويسودها الجهل والنفاق والشقاق. ولم تجتمع هذه الرذائل في زمن ، اجتماعها اليوم على عتبة القرن الحادي والعشرين.

إننا نعيش اليوم انحسار العلمانية والليبرالية والتقدمية ، التي كانت من منجزات المدنية الحديثة ، التي اجتمعت قوى الاستعمار الأنكلو-أميركي والإسلام اليميني الرجعي على محاربتها ، منذ مقتل الزعيم جمال عبد الناصر ، وافتعال الحرب الأهلية اللبنانية ، والمأساة العراقية ، انتهاء بمصادرة الربيع العربي والقضية السورية.

وإذا كان الغرب الاستعماري الإمبريالي ، يخشى ظهور دول مستقلة قوية بعيدة عن محوره ، فإن الرجعية العربية كانت تخشى دائمًا التيار المدني العلماني ، الذي يحرِّر عقول الأمة من الجهل والخرافة والعبودية والذلّ.

ومن سوء حظ العرب ، أن تنكسر قوى التحرر والتقدمية والاستقلال ، ويسودها المحور السلفي ووعاظه. ومن مظاهر الخزي والعار انسياق حملة شهادات الدكتوراه وأشباه المتثقفين وراء ربّ المال الذي اصطلح عليه [بترودولار] ، ذلك الاجتماع المسخ بين بلدان الجوع والعبودية الدينية.

إن حامل الشهادة الأكاديمية هو مؤتمن على خطاب العقل والفكر التقدمي ، وظيفته خدمة التنوير والنهضة الفكرية ، ونشر لواء العلم والعلمانية ، لنقل البشرية من ظلمات الجهل إلى نور العقل [لعلهم يتفكرون] !.

ولكن نفرًا من ضعاف النفوس ، هانت عليهم نفوسهم واستهانوا بعقولهم ، وسخروا أنفسهم وعاظ سلاطين ، وأدنى من ذلك ، خائنين الأمانة ، ومبتذلين الرسالة ، ومستهترين بحاجات الشباب ومصير الأمة. وليس من الصعب معرفة هؤلاء المرتزقة ، فهم كالراقصات والجواري يدورون وراء رأس المال ، وما لهم من مبدأ أو ضمير.

أنني أدعو الشباب العربي المثقف والمتنور ، الوطني والواعي ، فضح هؤلاء المتشاقفين ، تجار الدكتوراه والألقاب الجوفاء ، والترفع عن مجالسهم ، وعدم إتباع سمومهم القاتلة في جسد وعقل العرب. كما أدعو المؤسسات العلمية والأكاديمية ، لانتباذهم وطردهم من صفوفها ، وفي المقدمة منها الجامعات والمؤسسات التي منحتهم ألقابًا علمية ، ليسوا أهلاً لها ولاحتمال أمانتها ، عبر القيام برسالة التنوير والالتزام بخطاب العقل كما يجب.

ولابدّ للمنظمة العربية والعالمية للثقافة والعلوم والفنون والآداب ، من اتخاذ إجراءات لازمة ورادعة بحق المؤسسات والأشخاص ، الذين يفرِّطون في جوهر رسالة العلم والإنسانية ، وتسخيرها من أجل دريهمات كالحة ذليلة.

وإذا كانت معركة العرب ، هي معركة الفكر والحرية ، فالمنظمات والجمعيات الثقافية والأكاديمية اليوم تتحمل المسؤولية الأكبر في الانتصار للعقل والحرية... وإذا لم تتصرف اليوم ، وتقم بدورها ؟. فمتى ؟ !

على المجتمع الدولي ومؤسساته المعنية بحقوق الإنسان والتربية والثقافة والعلوم اتخاذ موقف حقيقي جاد وحازم ، من ممارسات الاضطهاد والإرهاب الفكري الرجعي اليميني المتزايدة في البلاد العربية ، ضد الكُتَّاب والباحثين والأدباء.

ومن المؤسف حالة الصمم والخرس التي يتظاهر بها المجتمع العالمي والعربي إزاء قرارات حظر الكتب ومقاطعة المفكرين واعتقالهم ونفيهم واغتيالهم ، وإجراءات محاكم التفتيش العربية بسبب كلمة أو فكرة أو اسم أو قصيدة ، مصادرين حريات التأليف والتعبير والتفسير والتأويل والتوظيف التراثي والاجتماعي والثقافي. فكم من شاعر معتقل بسبب قصيدة تغضب الحكومة ، أو كتاب أساء الواعظ الديني فهمه ، وكم من مؤلف تعرض للنفي أو التكفير وتطليق زوجته بسبب فكره. أما عدد الذين جرى اغتيالهم وتصفيتهم جسديًا من الأدباء والمفكرين والصحفيين والفنانين فهم بالآلاف.

في بلدان الهجرة واللجوء يقيم آلاف الأدباء والمفكرين والفنانين العرب الأحرار هربًا من واقع الإرهاب الفكري وانعدام الحريات في بلدانهم الأصلية. فلِمَ يتجاهل الغرب كلّ هذه الحقائق والأرقام ؟!! ولِمَ نتجاهل نحن ونستمر في الصمت وخيانة رفاق الكلمة وأصدقاء الفكر والحرية ؟!! وإلى متى ؟!!...

إن حياة وحريات كثير من الأدباء والمفكرين مهددة بالخطر... وإن كثيرًا من كتاباتهم تتعرض للحصار والمقاطعة من الناشرين ووسائل الإعلام... وسواء في داخل البلاد العربية ، أو المهاجر ، أعداد كبيرة من الأدباء والمفكرين والمثقفين ، يدفنون أحياء.

أما الولايات المتحدة - راعية الانحطاط الثقافي واليمين الرجعي - والتي سخرَّت الفكر الديني لتصف البلدان المستقلة والرافضة لسياساتها بمحور الشر ، فقد كان أحرى بها التنديد بدول ، تعلن الوصاية على الحريات الفردية والفكرية. ولطالما استخدمت الولايات المتحدة شعارات الحرية وحقوق الإنسان ، غطاء لنشر خطابها الإمبريالي ، وقد افتضحت اليوم ، بحلفها غير المقدس بين الاستعمار والقوى الرجعية والدينية العربية والغربية.

على الأمم المتحدة وأدعياء منظمات المجتمع المدني وشعارات الحقوق والحريات ، أن لا يغمضوا عيونهم أكثر ، عن حقيقة وجود بلدان كثيرة - وهي في تزايد - تحظر فيها الموسيقى والفنون وبعض الرياضات البدنية ، وهي تسعى لحظر الآداب والنشاطات العقلية الحُرَّة.

كثير من العرب كانوا يصفون بلدانهم بأنها سجون كبيرة ، ولكنها اليوم ، أكثر من سجون ، إنها معتقلات عبودية !

إن الفكر العربي والعقل العربي هو فكر شجاع وعقل شجاع ، إنه فكر ابن سينا والرازي ، عقل ابن رشد وابن خلدون ، وإنه لم يكن ذليلاً وجبانًا يومًا ما ، كما هو اليوم ، عندما ربط مصيره بالبترودولار أولاً ، والخطاب الإمبريالي اليميني ثانيًا.

هؤلاء الذين يتظاهرون بالوصاية على الثقافة والفكر ، على الكاتب والأديب الحُرّ ، الجمعيات الأدبية والفنية الجادة ، إنما يفضحون أنفسهم ، ويدينونها شرّ إدانة. فليس في عالم الفكر والثقافة قمع ووصاية. وكلُّ من يستخدم أساليب الوصاية والقمع والاضطهاد هو ديناصور جامد متخلف ، معادٍ لحركة الزمن ونهوض الأمة.

انتهى زمن القيود والضوابط المدرسية ، ولا مكان لحُكم وعاظ السلاطين وجندرمة الفكر والثقافة.

لطالما كانت الأصوات ترتفع ضد بعض البلدان العسكرية والدكتاتورية سابقًا ، عندما يتعرض كاتب أو كتاب للمحاكمة والمنع ، فأين هي أصوات الاحتجاج اليوم ، في زمن العولمة والديمقراطية الأميركية وعصر ما بعد الحداثة ؟... أم أننا حقًا وحقيقة ، في زمن انحطاط ورذيلة ، زمن سيء يفيض قيحًا ؟... زمن يجري فيه تقزيم الرجال وإذلال الناس ، ومسح وجودهم على حيطان الدين زورًا ؟!...

لننتصر للحرية والكلمة الحرة والأدباء المبدعين الأحرار والشرفاء...

ننتصر لحرية الإنسان الذي استخلفه الـلـه حُرًّا ومبدعًا... والـلـه ليس إلـه عبيـد وإنمـا إله أحرار ، الـلـه ليس إله ظلمات ، إنما إله نور ومحبة !...

انتصروا للحرية... انتصروا للإنسان... فلا حياة بلا كرامة !!...

الليبرالية والسلفية

في بورصة السياسة (●)

في القرن العشرين ، اعتقد الليبراليون العرب ، أنهم وضعوا أيديهم على موضع الداء ، باعتبارهم [الدين] علّة التخلف في الشرق. والبديل الشافي ، جرَّاء ذلك ، هو العلمانية والغربنة.

بعد قرون من التخلف والتبعية العثمانية ، كان الدين منتهك القوى ، متفكك العرى ، غير قادر على رفع هامته. وكان تيار الوطنية العلمانية والحضارة الأوربية في أوج تألقهما ، ولم يكن من البطولة أو المجازفة التصريح بآراء ، أقل ما يقال عنها ، أنها كانت منتجات ثقافية غربية ، أكثر من كونها ، خطابًا عربيًا حضاريًا... هذا جانب...

أما الجانب الآخر ، فهو أن التيار الليبرالي العلماني ، لم يستفد من خصوصية اكتشافه لاختطاط هوية ثقافية وخطاب مستقل ، يشكِّل قاعدة راسخة لثقافة وطنية إنسانية وإطار لمجتمع مدني متفتح ، يحتضن الأنساق الاجتماعية والفئات العمرية المختلفة. وبدلاً منه ، وجد نفسه ، ملتبسًا ومتلبّسًا في حمَأة السياسي السائد ، بشدقيه ، القومي والماركسي. فما كان له من كسب ، في الخيار العلماني ، تمَّ التفريط به ، في حلبة المساومات السياسية المتقلبة.

فإذا انهزم الخطاب السياسي ، القومي أو الماركسي ، مع سقوط الشيوعية (1989) ، وجدت الليبرالية العربية نفسها ، يتيمة ، تائهة ، تستجدي أُبوّة لقيطة.

•

● تعود كتابة هذا الفصل إلى الأول من ماي 2007م ، قبل انفجار ما دعي بانتفاضات الربيع وتغييرات الأنظمة العسكرية والوطنية في الشرق الأوسط.

- هيمنة سلفية وليبرالية غربية

بيد أن انهيار الوطنية العلمانية ، قاد إلى تنامي المدّ السلفي وغلوّ الخطاب الديني في الشرق (العربي) والغرب (الأميركي) كغطاء (خطاب) للثقافة الإمبريالية الجديدة. فكان وَجَع الليبرالية العربية فادحًا مضاعَفًا ، بافتقاد القاعدة المحلية وغياب الظهير الدولي [العالم الاشتراكي والعلمانية الأوربية].

مما جعل بعض رموز الفكر الجدلي الحرّ فريسة للغلوّ الديني المتطرف في بلدان إسلامية عدة ، مثل : مصر وإيران والجزائر والأردن واليمن وبنغلادش وأفغانستان والعراق وغيرها. بينما ظهرت الهجرة والنفي بديلاً لا بدّ منه لمن يعجز عن المساومة أو الإذعان للصمت والخذلان. بل أن الهجرة نفسها ، تحوّلت إلى بديل مخروق ومنتهك ، مع تنامي معدل الهجرة العربية والإسلامية إلى الغرب العلماني الليبرالي ، حيث تأتي الدول العربية والإسلامية في مقدمة الدول الطاردة للسكان ، بما نطلق عليه حزام الجوع.

هذه الصورة المشوّهة والسّوريالية ، لأفراد المجتمعات العربية ، التي لم تكد تنجُ من مكائد النظام السياسي التقليدي ، وجدت نفسها فريسة للهاث الديني السياسي بزعامة الجماعات السلفية التي أطبقت أنيابها على الجاليات المقيمة في الخارج، لتعزل بينها وبين فضاء الانفتاح ، وتحرمها من ثمار حضارة الغرب العلمانية.

إطباق السلفية على مجتمع الهجرة ، سحب البساط من تحت أقدام المثقفين الليبراليين العرب في المهاجَر ، وفرض عليهم عُزلة جديدة ، تعيق نشاطهم الحضاري وتواصلهم الاجتماعي ، ليس مع الوطن حسب ، وإنما مع نسيج الجالية العربية ، والتيارات النافذة فيه.

•

- إشكالية الثقافة والمؤسسة

من أبرز عيوب العقل العربي ، باعتباره منتجًا للحضارة والثقافة ، عجزه عن بناء قواعد تحتية أساسية قادرة على رعاية حركة الثقافة والفكر والرأي الحرّ وحمايتها ، طيلة التاريخ العربي. مما يجعل جُملة المنتج الفكري والثقافي العربي والإسلامي المعروض حتى الآن ، موضع التساؤل والشكّ. غياب الخطاب الثقافي والهوية الثقافية والمنظومة الثقافية المستقلة بذاتها ، جعل منها تابعًا ذليلاً وقزمًا مشوّها في الخانة الخلفية للسياسي والديني والاجتماعي القبلي. وعند محاكمة التردي الثقافي أو الاجتماعي للمثقف ، لا بدّ من استحضار هذه البيّنة ، وامتلاك الجرأة الكاملة ، لتوجيه الاتهام والإدانة ، والاعتراف بالعجز والتخاذل. وما بدأ خطأ ، يستمر خطأ. وما أقيم على باطل ، فهو باطل.

يقول سعدي يوسف (•) في حوار معه : [لا يوجد نقد أدبي في ظل انعدام نقد سياسي] !. هذه الجدلية الفكرية قد تكون مغيّبة عند كثيرين اليوم ، في خضم فوضى المنطق وحكم اللا معقول. مطر في الصيف وربيع في صحراء.

إن الثقافة هي التي تنسج الفكر الديني وتصيغ مبادئه وأُسسه ، وليس العكس. والدولة هي التي تقنّن حركة التيارات الاجتماعية والسياسية وتحافظ على معادلات التوازن والاتزان الداخلي ، وليس العكس.

إن الدين لا ينتج ثقافة ولا يصنع مجتمعًا ولا يقيم مدنية أو يبدع حضارة. الذي يخلق هو الفكر والثقافة. واستلاب الثقافي أو السياسي لا يعني رصيدًا للفكر الديني الذي زاد من حدّة التشرذم والصراع وعدم الاستقرار والفوارق بين البشر. وفي ذلك انحراف عظيم عن مبادئ السلام والمحبة والإخاء ، القواعد الاجتماعية والإنسانية لجمهورية الإنسان.

•

• سعدي يوسف (1934) شاعر ومترجم ومناضل سياسي ، مقيم في لندن.

- علقم و حصرم و ضرس

بمثل هذه المرارة ، تنشأ أجيال من شباب عرب يتخذ من أبطال أفلام الكارتون رموزًا فكرية وجهادية تقودها إلى الفردوس. أجيال تكفيرية ، تعتبر نجيب محفوظ ملحدًا (دون أن تطلع على أدبه وفكره) ، وترى في من لا تلتحف (الحجاب) مومسًا تستحق لعنة الاغتصاب والانتهاك ، دون إدراك واعي للخلق والخلُق ، وأسس السّويّة البشرية والقيم الإنسانية النبيلة. أجيال ترى العالم خلل ثقب أسود ، لا يتكشف عن غير (أفاعي فردوسية) ، وصور اللعنات.

الوطنية العلمانية قامت على المخابرات والسجون. والسلفية الدينية استبدلت ذلك بالجهل والتحريم والإرهاب.

كان العالم الغربي يعيب على التجربة الشيوعية الصينية اعتماد (الزي الموحد) بين فئات الشعب والحكومة ، ولكنه عاجز أو أعمى اليوم ، عن رصد الزي الموحد للجماعات السلفية وهو يغدق عليها المعونات والتراخيص.

يقول أحد العلمانيين الألمان العاملين مع الجاليات : كنا نحصل على دعم جيد من السلطات المحلية ، ثم بدأ الدعم يتراجع ، وقبل عامين ، انقطع الدعم نهائيًا ، بينما تصاعد مستوى دعم الجمعيات الدينية ، وصار لها من الامتيازات ، ما لا ينسجم مع ما يتردد في لغة الإعلام. هكذا اضطرت جمعيات علمانية لإغلاق أبوابها ، أو اعتماد موارد ذاتية لتمويل نشاطاتها ، وتكاليف مقراتها.

•

- البراغماتية دين العصر

في خضم هذا الإطار ، شهدت الساحة الثقافية عملية انزياح سوريالي ، لقوائم من مثقفين ليبراليين سابقين ، يطوفون على أمواج التيارات الدينية السائدة ، ويتصدرون واجهاتها التنظيمية والدعائية. والمضحك ، أن الماضي الليبرالي العلماني لبعض الشخصيات ، يُحتسَب في رصيد الشخصية ذات التمثل الديني

الجديد. بالنسبة للفكر الديني ، هو دليل هزيمة العلمانية لصالح الدين. ولكن بالمنظور العلماني ، عملية تخاذل وانسحاق. وفي السياق الفكري ، تلقيح ثقافي متبادل.

قراءة المشهد الإعلامي الراهن ، بحسب هذا تتوزّع إلى :

1. تحوّل بعض الليبراليين من تيار العلمانية إلى التيار الديني.
2. تصدر علمانيين سابقين واجهات مؤسسات ومراكز سياسية دينية.
3. اتساع حجم المؤلفين والكتاب في مجال الدين والترويج له.
4. ظهور بوادر جيل وأدب ثقافي ديني.
5. اتساع أجيال من أكاديميين ومهنيين ذوي ميول وتوجهات دينية أو مغالية.
6. تحوّل أتباع المؤسسة السياسية العلمانية السابقة لتغذية التيار الديني السائد والتمذهب له.
7. شيوع البراغماتية الميكافيللية ، والشخصية اللامنتمية واللامسؤولة ، على مذبح الأنانية.

•

- التفكّر و التدبّر... و التحضّر

في الغرب ، عندما يحرز التلاميذ مستوى متقدمًا ، توزع المعلمة على كل ّمنهم ، قطعة شوكولاتة ؛ أما في الواقع العربي ، فإن الشوكولاتة تنثر على الرؤوس ، ويتصارع التلاميذ عليها.

صورة تستدعي الكثير من التأمل في قواعدنا التربوية التحتية ومبادئنا الفكرية والاجتماعية. فمن هناك ، من نقطة داخل الدماغ ، المعبأ ببرامج وإرشادات [soft ware] يعود بعضها إلى زمن الطفولة والخوف ، وبعضها إلى إرث البدائية والمشاعية القبلية ، تنطلق إيعازات وأنساق فكرية وسلوكية ، ترسم صورة الشخصية النشاط الاجتماعي اليومي.

الإنسان يفكِّر ، حتى عندما لا يفكِّر.

ثمة عملية تمازج وتداخل بين الفكر والوعي والروح.

في تعبير للألماني مارتن هيدجر / [1889- 1976] ((Martin Heidegger)[•]: ضرورة التفكير أن الإنسان لا يفكر أنه لا يفكر. وفي تعبير آخر ، أن قيمة التفكير عندما يفكِّر الإنسان بيده. من غير الصواب القول ، فلان لا يفكر. لأنّ كلّ ما يفعله ويقوله المرء هو إفراز فكري توجهه إيعازات محددة. والإيعازات عبارة عن مخرجات ذهنية [feed out] في المرتبة الأولى ، ساهمت في تشكيلها مدخلات [feed in] سابقة. نفس الإيعازات تحوّلت إلى مدخلات [feed in] في المعادلة الثانية ، ساهمت في صياغة سلوك أو لفظ معين [feed out].

ولما كانت طبيعة الثمَرَة من أصل الشجَرَة ، فإن صور الفوضى في السلوك والاتصال ، دالة على الفوضى والبدائية في مكونات الشخصية الاجتماعية والفكرية.

•

- تأملات في الحالة العراقية

من الخسائر المسجلة في مكتبة الفكر العربي ، بقاء الحالة العراقية ، وتحولاتها العنفية والعنيفة ، بعيدًا عن الدراسة والتحليل والمقارنة من قبل الجامعات والباحثين العرب. بينما تظهر بوادر اهتمامًات ودراسات غربية جادة في الموضوع.

علاقة الغرب بالحالة العراقية لها خلفياتها وآفاقها - الكولونيالية الإمبريالية - ، التي تجعل مجال الفائدة محدودًا للقارئ العربي عند الترجمة. بينما العربي في حاجة أشدّ لفهم الوضع العراقي وملابساته ، بطريقة علمية وموضوعية ،

• مارتن هايدجر ، من فلاسفة الوجودية الإنسانية.

للخروج منها بدروس جادّة ، سوف يـشكّل غيابهـا نكبـة حقيقيـة للعـربي في المـستقبل القريب.

بعبارة أخرى ، ما الذي يمنع تكرار ما حصل في العراق ، أن يحـصل في بلـد آخـر ؟ (•)... أليست البلقنة واللبننة والأفغنة والعرقنة ، أغطية متعددة مـن نـسيج واحـد ؟!. أم أن الكبرياء والاعتداد المغالي يكفي اليوم شرور الغد.

شهد العراق أكثر من انقلاب في الصُعد الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية. وكـما يقول المثل العراقي ، لم يبقَ حَجَر راكز لم يتحوّل من مكانه !.

هذا التحوّل والانقلاب يستلزم الإدعاء أو التسليم بحالة (استقرار) نسبي سابقة ، خلال النصف الأول للقرن العـشرين ، في ظـل العهـد الملـكي. إذ كانـت ثمـة تيـارات سياسـية وفكرية وتجاذبات اجتماعية وعشائرية محدودة وواضحة وشبه مستقرة.

انفجـرت عقـب أول انقـلاب عـام (1958م) عـشيّة انقـلاب الـضباط (الأحـرار) وقيـام الجمهورية. وكان إسفين الشقاق هو قانون الإصلاح الزراعي رقم 80 الذي نجم عنـه أو عن سوء تطبيقاته :

1- هجرة الفلاحين من القرى نحو المدن ، ومن الجنوب نحو العاصمة بغداد ، مشكلين نواة مستوطنة سكانية سرطانية على جانب بغداد-خلف القناة / خلف السدّة- ، ازداد حجمها بالتدريج وتزايد تأثيرهـا في حيـاة العاصـمة حتـى غلبهـا عـلى أمرهـا ، ومـسخ صورتها المدنية التعددية لصالح الريف والتخلف والتشيّع.

2- تراجع الإنتاج الزراعي جراء ترك الفلاحين لأراضيهم ، وهجرة كبار الإقطاع والمـالكين نحو المدن أو الخارج.

3- تجــدد الحــرب الأهليــة الكرديــة العراقيــة في (أيلــول 1961) جــراء رفــض

• كُتب هذا الموضوع العام 2007م، قبل أحداث الربيع العربي عام 2010م.

الإقطاع الكرد تطبيقات قانون الإصلاح الزراعي وخضوع قائد الحركة الكردية مصطفى البرزاني لمطاليبهم.

4- ضرب القوى الرأسمالية الصناعية والإقطاعية ومغادرتها البلاد ، مما ترك الساحة للقوى السياسية المحدَثة وصراعاتها على السلطة وحكم البلاد.

5- غياب التيار المحافظ (الملكي) ، جعل الصراع بين التيارين القومي والماركسي ، الذي انتهى بانقلاب عسكري يوم (8 شباط 1963م) ودخول البلاد نفق نفاق أيديولوجي شعاره (جئنا لنبقى) ، (صعدنا إلى السلطة بقطار أمريكي) ، (انقلاب شركات النفط الاحتكارية).

•

اجترار التاريخ والحصرم

ليست مصادفة ، أن هذه المقولات التي أشيعت في الستينات ، هي نفسها التي استحكمت المشهد السياسي العراقي بعد أربعين عامًا. المصالح النفطية ، القطار الأمريكي ، جئنا لنبقى. تغير النظام والوجوه ، والمضمون واحد.

صعود الأنظمة القومية والعروبية في القرن الماضي ، تبرّك بدم القربان الشيوعي سواء في مصر أو العراق. واختزال التيار الشيوعي من المشهد كان فاتحة لاختزال التيار العلماني / الليبرالي من الساحة. نتائج هذا الاستعداء الضيق الأفق تمثلت في جانبين أو ثلاثة :

1- هيمنة حكم الرأي الواحد وظهور الدكتاتورية.

2- تململ واشتداد التيار الديني في ملء الفراغ السياسي والخطاب الليبرالي المختزل.

3- انعدام حالة الاستقرار السياسي وتوالي المتغيرات العاصفة حتى اليوم.

فالتيار الديني المُسيس في العراق ، والذي تعود بوادره للستينات (حزب الدعوة

الحاكم منذ 2005م) ، كان نتيجة لاختزال الفكر الليبرالي من الخريطة الثقافيـة ، ونهـج الحكم الشمولي (البعثي) تمهيدًا لحكم شمولي مقارَن (الدعوة الإسلامية) أو (الـصحوة) في قراءتها الأيديولوجية المبنية على ألفباء التشيع الاثني عشري.

الالتصاق بالسلطة ، لن يختلف بالحالين ، والرهان الأميركي ، كما أكدته الإدارة الحالية ، السيطرة على الأوضـاع (سياسـة القبـضة الحديديـة والجـدران العازلـة داخـل المـدن).

وتمديد المهلة للمالكي أكثر من ستة أشهر(2006م) ، تعني القبول الأمـيركي سـيما ضـمن وصول الملف الإيراني لدرجات سخونة حرجة ، يلعب فيها حـزب الـدعوة دورًا مكوكيًـا يرسخ أقدامه في السلطة.

•

أين هو الثقافي العراقي والفكر الليبرالي العلماني ؟...

هذا هو السؤال... إلى وقفة مقبلة...

في تراجع المدنية العصرية

أي سؤال عن العراق ، أو ما بعد العراق ، متأخر جدًا ، على صعيد الـزمن والاسـتراتيج. ولا غرابة في هذا ، فنحن أُمة عاجزة عـن الفعـل. والعجـز يتـضمن التـأخر عـن الـزمن والإرادة والتفكير في آنٍ واحد.

نحن أُمة ، لا تفعل ، وإذا فعلت ، فعلى حساب نفـسها ، وفي اتجـاه ومـضمون يعـادي مصالحها. لذلك ، كانت أكثر فـترات الـسلام والاسـتقرار في تاريخنـا ، تلـك الخاليـة مـن تدخلنا وفعلنا ؛ وبالمقابل ، كانت أتعس فترات حياتنا وتاريخنا ، تلك الحافلة بتدخلاتنا ونشاطاتنا التي ضيعت البقية الباقية من ذرات التراب التي جبلنا منها ، لتكـون موطـأ للأجنبي ومزارع لدمائنا ، وعيدًا علنيًا لأحقادنا وثاراتنا البينيـة الداخليـة ، بيـنما يتـبرع الأعداء بوضع الأسلحة والإمكانيات التدميرية والإعلامية بين أيدينا.

أقول العراق وما بعده ، وكان الأحـرى القـول : لبنـان ومـا بعـده ، بـل الأحـرى القـول فلسطين وما بعده ، إن لم يكن على الإطلاق ، سايكس بيكو وما بعدها. وغدًا سـنقول : سوريا وما بعدها...

فنحن بلا ذاكرة ، ولا نعـترف بـالزمن كقيمـة حـضارية وتاريخيـة. وطالمـا كـان الـزمن مفهومًا فيزيائيًا ، فهو دالة الحركة ، ولما كان موقعنا من الحركة نفيًا ، كان الموقف مـن الزمن إثباتًا لنفي.

- لماذا العراق ؟...

ما يزال ذكر أسماء البلدان والأنهار والأشخاص فعلاً استفزازيًا لنعرة التنـابز والتفـاخر ، كما رشحت عنه مسودات تراثنا الاجتماعي اللاقومي واللامدني.

لقـد بقـي العـرب منـد قـصة سـد مـأرب بحـسب روايـة ابـن اسـحق أشـتاتًا متـشتتة وجماعـات متـشرذمة ، لا يعنيهـا غـير قـوت يومهـا وسـباقات المفـاخرة والتنـابز عـلى

بعضها. وبأي شيء يتنابز ويتفاخر ويتنافس من لا يزرع ولا يصنع ، ولا يحسب ولا يكتب ، لا يسأل ولا يفعل ، لا يعلم ولا يتعلم ، وليس له شأن في علم أو حكم أو حزم.

لقد راهن رواد القومية العلمانية المتأثرة بالأفكار الغربية والكمالية ، على عاملي الزمن والحداثة في ولادة مجتمع عربي جديد ، يأخذ بناصية الإنتاج والتقدم ، فأخضعت مفردات القومية والعلمانية والحداثة لسوق المنابزة والأثرة البدوية.

ومن بين كل مفردات الحياة واللغة ، كانت الوحيدة المستعجمة والمستقبحة دون أنماط الثياب والطعام ومستلزمات الحياة والترفيه والحرب والسياسة. فكان من الطبيعي التغاء وعرقلة مفاهيم الشعب والأمة والمجتمع والانسجام الاجتماعي والخطاب القومي الاستراتيجي الحضاري ، وتستمر صراعات الحكام ونعرات الطوائف ، وثقافات التشرذم والاحتراب الداخلي.

وهكذا جرى الحكم بالموت والإعدام على الجامعة العربية ومؤسساتها وأهدافها ، لتتحول إلى كراسي للتنابز ومورد ارتزاق جيش من الموظفين يعتاشون على صفقات الفساد الإداري.

لا غرو ، أن حال العرب والجغرافيا العربية في العهد العثماني ، كان أفضل منه من حالهم في ظل اثنتين وعشرين دولة ومنظمات واتحادات وجامعات وأحزاب وجمعيات عربية وإسلامية ، لا فعل ولا شغل لها غير السمسرة بدماء العرب وحياتهم.

شهدت مشاريع التمدن والحداثة ظهور نخب أكاديمية وتكنوقراط وبوادر خطط تنمية اجتماعية واقتصادية وسياسية ، فإذا بها تتعرض للمزايدة والتصفية على أيدي أحزاب أجنبية الهوى من بنات الحرب الباردة ، تارة ؛ لتعقبها ولايات العسكر والعنف الثوري ، وصولاً للسلفية الدينية وحكم الغوغاء والفوضى والفساد.

فالتغت المضامين وأفرغت الهياكل والعناوين ، واستشرت العقليات البدائية غير المتمدنة والمعادية للتحضر ، إلا ما ما يسد حاجتها ويؤمن بها أساسيات وجودها الشخصي أو العائلي أو الطائفي أو السياسي ، وما ذلك إلا بالتواطؤ والانبطاح للأجنبي واستعداء الجار والشقيق.

وبعد انتفاء والتغاء مفاهيم الوطنية والقومية والسلم الاجتماعي ، يجد الفرد الحر نفسه مكشوفًا للجوع والرصاص من كل الاتجاهات. فالدولة والدين والحزب تحولت إلى دولة المافيا ودين الطائفة وحزب وكلاء وجواسيس لخدمة أجندة إقليمية ودولية.

والفرد الذي لا يضمن لنفسه حزبًا أو طائفة أو مافيا ، تضمن احتياجاته المعيشية والأمنية والسياسية ، يتوسل الهجرة ويبحث عن وطن بديل.

ويبقى السؤال ؟...

ما جدوى الدولة ومؤسساتها وأنظمتها الضريبية والدموية طالما لا تخدم كل أبناء الوطن ، وتختص بطائفة الحكم والجالية السياسية والأغلبية الدمغرافية المدعومة بصناديق الديمقراطية الفاسدة شكلاً ومضمونًا.

كيف تنسجم ذروة التخلف والقناعات البدائية والخرافات الدينية ، مع ذروة التقدم المدني والاجتماعي الذي استغرق قرونًا وحروبًا ودماءً من تاريخ أوربا ، حتى يصل للحالة الحضارية القائمة على الاستقرار السياسي والمجتمع المنتج وعقد السلم الاجتماعي الذي تمثل فيه المؤاخاة والمساواة والعدالة الاجتماعية أركانًا مقدسة.

وسائل التعليم الحديثة مع نشأة الدولة العربية أُدخلت بفعل السياسات الغربية ، ومع ذلك جرى الالتفاف على أغراض التعليم ومناهج الدراسة لترويج الثقافة القبلية والطائفية وأيديولوجيات جماعات الحكم.

ومع مرور قرن على دخول الحداثة ، لم تجد الحرية فضاءً عربيًا في التعليم أو

الثقافة أو المعتقد أو الإعلام أو السياسة ، ويتعرض من يتداولها أو ينادي بها إلى أحكام تكلفه مصيره. وفي الربع الأخير من القرن العشرين كانت النُخب التنويرية المحدودة تعيش حالة من الاغتراب والتقية والملاحقة ، ومعظمها يعيش في الغرب أو خارج بلده.

في نفس الاتجاه ، انحرفت السياسات الثقافية الحكومية والأهلية مع بداية سبعينيات القرن الماضي ، للترويج للتراث والتاريخ والفكر الديني السلفي ، بدء من مناهج التعليم والخطاب الإعلامي والسياسي ودور النشر ، وسادت المجتمعات العربية أفكار وشخصيات ونخب دينية ، وبشكل انعكست آثاره التدميرية على المجتمعات ومستقبل البلدان العربية الشرق أوسطية نفسها.

وجاءت إجراءات الخصخصة وإملاءات البنك الدولي والديمقراطية المشوهة لتطيح بالأنظمة العلمانية ، وتروج للفوضى والحكومات السلفية ، وتصفية منجزات الحداثة والتنمية الاجتماعية والاقتصادية.

العنف والفوضى وثالثهما التخلف ، هي سمات العالم العربي في مستهل الألفية الثالثة. وتعود أصولها ومظاهرها المحتذاة تحت عنوان السلفية والابتعاث لما قبل ألفين أو خمسة عشر قرنًا من السنين.

وعندما يفرض على الناس العيش في ظل تقاليد ما قبل المدنية والتحضر ، بينما تنتشر وسائل الاتصالات الحديثة ومدنية ما بعد الحداثة الغربية ، يمكن استشفاف حجم الازدواجية والانفصام التي تعيشها الشخصية الاجتماعية ، والإفراز المنطقي لها الممثل بالعنف أو الالتواء أو الانهيار.

من جهة أخرى ، لا بد من تأشير الظاهرة الأكثر خطورة في الشرق الأوسط في أعتاب الألفية ، ألا وهي تجارة الموت والمجازر الشعبية والتصفيات الجسدية على أيدي مافيات مأجورة. وكان معدل القتلى في بعض السنوات العراقية عقب الغزو الأميركي [50-100] قتيل يوميًا. ناهيك عن الجرحى

والمعوقين وما يرافقها من تخريب البنى التحتية والمؤسسات المدنية والمدن والآثار.

ومن الغريب أن السياسات الغربية التي كانت تتهم بعض الأنظمة الثورية بمخالفات مواثيق حقوق الإنسان ، تتجاهل تمامًا حفلات القتل والمجازر الجماعية المزدهرة في بلدان عربية منذ ثلاثة عقود.

إن الحصيلة العامة لمجريات الألفية أو القرن الأمريكي ، هي تدمير مقومات الحياة والمرتكزات الأساسية للدولة المدنية والمجتمع العصري ، ودفع العرب لدهاليز فترة مظلمة تحكمها جماعات الفكر السلفي الرجعي وبما يحكم سيطرة الغرب الكاملة على المنطقة وتحويلها إلى سوق للاستهلاك والحصول على المواد الخام.

النخبة... غياب أم تغييب ؟!

لابد من الأخذ بالتقسيم الاجتماعي بين النُخبة ، والعامة.

إن الطفرات الوراثية والإبداعية تتحقق لدى أفراد ، فرد في جيل ، قبل أن تستفحل وتتحول إلى حالة عامة (الحالة المصرية بعد 25 يناير مثلاً).

وعندما أقرأ عن تاريخ المملكة البريطانية في مجالات الأدب والفكر والسياسة والاقتصاد والأخلاق والدين ، أرى دور النُخبة والتجمعات البسيطة في أيامها وما أسفرت عنه منجزاتها وأنشطتها في ذلك الوقت ، أو ما ترتب على دراسة أعمالها ونشاطاتها من قبل أجيال لاحقة ؛ أندهش أمام بساطة حياة أولئك الأفراد وما واجههم من ظروف وتعقيدات وتفاهات أحيانًا ، ولكنها بالنتيجة ، أضافت قطرات زاخرة في بحر الفكر والثقافة البريطانية اليوم.

شخصية ملغزة مثل شكسبير لم تمنع بلده من الاحتفاء بآثاره وفكره ، بل تحول إلى ألفباء الحياة الأوربية. ولا يمر يوم أو أسبوع في ألمانيا لا تكتب عنه الصحف ويورده التلفاز. ولشخصيته مكان في مواد التعليم الابتدائي في كثير من بلدان أوربا.

تعتدُّ بريطانيا بيرنارد شو الفيلسوف والأديب الموسوعي ، بينما تحتفل به أيرلندا لكونه أول أيرلندي يحصل على جائزة نوبل. وما من خلاف بين أيرلندة وإنجلترا في هذا الصدد.

كما تعتدُّ الكنيسة بوليم بليك وتشارلز داروين اللذين أحرجاها بنقدهما المبكر للفكر الديني.

الميول الاشتراكية والشيوعية لبيرناردشو وأورويل وباوند لم تمنع الدولة الرأسمالية من الاعتداد بأعمالهم وأفكارهم التي تشكِّل لبنة أساس من تاريخ الفكر والثقافة والسياسة البريطانية.

كل هؤلاء نخب خدموا المجتمع ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. ولكن بلدانهم تعتز بهم بدون تهميش أو إلغاء أو اعتماد نزعات انتقائية أو استبداد عرقي أو ديني أو سياسي.

فلا غرو أن يكون للنخب الأكاديمية والثقافية والاجتماعية دور محدود وبدائي في العهد الأول لبناء الدولة العراقية ، لكن مجيء الجمهورية قلب المعايير الاجتماعية والقيمية في البلاد ، وجرت عملية تدمير وتهميش للنخب ، وربطها بمؤخرة العربة. ثم تبارت الحكومات المتتالية في تدمير وتهميش النُخب ، حماية لشرعنة وجودها السياسي.

في كتابه ، وصف حنا بطاطو تنامي حجم العسكر ودورهم كطبقة نخبوية جديدة دخلت ساحة الصراع السياسي عبر إزاحة النُخب التقليدية السابقة.

وشهدت قيادة حزب البعث صراعًا بين الجناح العسكري والجناح المدني ، وبشكل تدريجي ومستمر [مايو / نوفمبر 1963- 1968م] ، انتهى لتسيد طبقة الفلاحين مقاليد السلطة على حساب المثقفين والأكاديميين.

كأنما كتب على العراقيين ، مع تغير كل حكومة أن يمسحوا آثار القديمة ويتبرءوا منها ، ويعلنوا ولاءهم للحكومة الجديدة ، أو ينولهم العقاب.

الحكومة ليست مجرد هيئة إدارية لتسيير أمور البلاد وتحسين مستواها ، وإنما هي تقدم نفسها بمثابة نخبة اجتماعية سياسية على قطاعات المجتمع الالتفاف حولها والتصفيق الحاد والمستمر لها ، وفق آلية الثواب والعقاب.

حكومة صراع طبقات وطوائف ومراكز نفوذ تقليدي مرتبطة بقوى خارجية.

الحكومة – غير الشرعية / الأخلاقية - تستخدم أجهزة الدولة ومؤسساتها لخدمة أغراضها الخاصة واستمالة المجتمع للخضوع لها. والمدرسة والجريدة والوظيفة الحكومية هي ممتلكات خاصة للخطاب الحكومي ، لا يمكن المرور بها دون توقيع البراءة والولاء.

والأنكى منه ، تتحول المعاملات الإدارية المتعلقة بحقوق الأفراد وحياتهم إلى رهينة ومناسبة لإذلال المواطن لتوقيع البراءة والولاء ، سواء عن طريق الرشوة أو التزكية الحزبية أو التهميش والحرمان.

في التسعينيات رافقت أحد الأخوة اللبنانيين لمراجعة سفارة بلده في فيننا لتبديل جوازه للمرة الثالثة. إذ عقب تغير كل حكومة تتغير الإجراءات وتجدد الجوازات (!!). ولأسباب معينة كان متوجسًا من المراجعة ، وربما بحاجة لمن يخبر عائلته إذا اختفى في السفارة. عندما تقدم بالطلب دعاه القنصل للمقابلة. حضرت معه المقابلة. نهض لاستقبالنا كأصدقاء. ثم دعانا للجلوس ، وتحدث بكل ودية كأصدقاء قدماء ، اعتذر عن كل الازعاجات والممارسات البيروقراطية ، راجيًا نسيان كلّ شيء واعتبار الأمر على ما يرام بعد الآن.

انتهت المعاملة بشكل حضاري ولائق. ولكن هل كل القناصل كذلك ؟... ولا كل موظفي الحكومة أيضًا ؟.

كم من الموظفين والقناصل والمسؤولين يشعرون بمعاناة المواطن الغريب والأسير والمنزوع الحقوق في بلده ، لمجرد اختلاف العقائد أو الأيديولوجيات وكل حاكم يتصور نفسه أكثر وطنية وشرفًا ممن عداه.

مع تغير الحكومات ، - وهو تغير انقلابي - ، تتغير هيكلية المجتمع وأولويات الدولة ، وتضطرب الأدوار ويظهر لاعبون جدد ، يعرفون طبيعة نهايتهم فيخدمون أغراضهم الخاصة قبل حلول موجة جديدة.

إن المشكلة المترتبة هنا هي انعدام النُخب الجديرة. فالنظام السياسي المهترئ المدعوم بعوامل خارجية وموازين صراعات دولية وإقليمية ومحلية لا يصنع نخبة ولا ثقافة وتنمية ولا هوية وطنية.

تدمير النُخب والمزايدة عليها ، هو تدمير للعقل وتذييله ، لصالح صراعات غريزية جسدية مؤقتة. وفي مقدمة مظاهر الغريزة الخوف والغيرة والحسد

والحقد ونزعة الانتقام والإذلال وجداول الولاء والمحسوبيات المترتبة على ما سبق.

في المثال البريطاني يمثل الملك رمز الوطن والضمير الأعلى المراقب والمحايد. وهذا ما يتجسد عبر آليتين : الانتخابات وترشيح رئاسة الوزارة من قبل الملك / الملكة. فالملكة هي التي فضلت دزرائيلي على غلادستون الذي عدّه السياسيون نوعًا من المجازفة حينها. ولكن دزرائيلي أثبت جدارته في خدمة مصالح بلده. والمجتمع البريطاني ما زال لليوم مجتمعًا طبقيًا ونخبويًا. وتلعب النُخبة دورها التاريخي في المحافظة والمراقبة والبناء والإضافة. ورئاسة الحكومة رغم صورتها السيادية إلا أنها لا تتجاوز النُخب ولا تنطق من ذاتها.

ولكن ما هو الواقع

فوجئت مرةً عندما نعتتني اثنتان من المقربات إليَّ بأنني شخص فاشل ، وكنت حينئذٍ أعتدُّ بنفسي كشخص حافظ على مبادئه فوق ثلاثين عامًا - آخرون أيضًا من هذا الباب ، زهدوا في الدنيا وقبلوا أن يخرجوا منها بشروى نقير - ، لم أملك إزاء ذلك غير أن أبتسم تقديرًا لمشاعرهما النبيلة.

لكن مثل هذا الرأي ليس قصرًا على أصدقائي وصديقاتي ولا عليَّ شخصيًا ، فكثيرون هم من يستخدمون هذا المنظار أو المنظور ، ممن يتفقون مع هربرت سبنسر في (أن الحياة هي الانسجام أو التكيف مع الواقع).

لا أنكر هنا عدم قدرتي على مسايرة الواقع. الواقع بكل تلاوينه ومستوياته ، لإيماني بأن الواقع العربي أيديولوجي شمولي مثل أنظمتنا العربية ، ولا أستطيع المراءاة بإدعاء وجود واقع اجتماعي وواقع ثقافي وواقع سياسي وواقع اقتصادي وواقع ديني وواقع فلسفي أو وجودي ، وكل منها مستقل بتعريفه ومنفصل عن سواه. وهذا ما جعل التقاطع مع أحد مستويات الواقع العربي ، اختلافًا مع كل الواقع بقضه وقضيضه.

وللبقاء في نطاق التجربة ، وباعتباري من بلاد (شرق المتوسط) حسب تعريف عبد الرحمن منيف (•) حيث يسيل النفط والدم والسائل المنوي سويًا ، كنت في صغري أسخر من سواليف والدتي الخرافية عن الجن والملائكة والطقوس والتقاليد الدينية المقترنة بالنذور والقرابين والشموع ، وأحلامها عن رجال صالحين يرتدون ثيابًا بيضاء أو خضراء أو حمراء أو سوداء ، تعرفهم بأسمائهم ، وتجبرنا على ارتداء ثياب سوداء أيامًا معلومات من كل عام خشية انقلاب الأرواح علينا وإصابتنا بسوء.

• الروائي عبد الرحمن منيف [1935- 2004م] كتب عدة روايات منها ثلاثية (شرق المتوسط).

ومع تطور وعيي الثقافي والسياسي اكتشفت أن البلد يحكمها (الدولاب الدموي ببغداد) حسب توصيف الشاعر مظفر النواب (•).

و(هل مرّ عام والعراق ليس فيه جوع) / السياب (•)...

و... (عجبت من خضر جنات منشّرة .... على الضفاف ومن جوع الملايين / الجواهري (•)

(أنظر لوضع بلادنا ..... غلط يصحّح في غلط) / علي الشرقي (•)

•

تخللت طفولتي صور فيضان مدمر وأحداث حظر تجوال وحرب أهلية ، ثم حروب الخليج الأولى والثانية والحصار وما تلاه حتى اليوم (•). وكنت مثل معظم أبناء جيلي مادة تلك الحروب والظروف السياسية والاقتصادية والأمنية غير العادية وقد تجاوزت الخمسين وبلدي ينتقل من كارثة لكارثة أكبر.

وفي خلال كل ذلك يتكاثر الناس ونفوس العراق في تزايد وقفزات ، دون أن يفكِّر أحد في أي ظروف وأجواء غير طبيعية يترعرع المواليد الجدد وانعكاساتها على تكوينهم النفسي والاجتماعي والفكري ، وبالتالي شخصياتهم واتجاهاتهم السلوكية عندما يكبرون.

ومعظم الحراك الاجتماعي والسياسي والإرهابي اليوم هو من مواليد أجواء الحصار التسعيني الذي دمر البنية الاجتماعية والقيمية للعائلة والمجتمع العراقي!.

- الشاعر مظفر النواب (1934) غادر العراق عام (1964) ويقيم منذ التسعينات في سوريا.
- الشاعر بدر شاكر السياب (1926- 1964).
- الشاعر محمد مهدي الجواهري (1900-1997).
- الشاعر علي الشرقي (1890-1964).
- استمر الحصار الاقتصادي الدولي على العراق من أيلول/ سبتمبر1990 حتى الغزو العسكري الأمريكي في مارس 2003 والمستمر حتى الآن.

ما هو الواقع المطلوب الانسجام معه خلال تلك الحياة ؟.

وما هو معيار الفشل والنجاح في ظل ظروف تعسفية مفروضة كالقدر ؟...

الحقيقة أنني لم أخسر شيئًا ، ولكنني كسبت نفسي ، هذا على صعيد شخصي طبعًا ، رغم أنني فقدت حياتي الطبيعية ، والحياة فقدت قيمتها بالنتيجة ! - لأن الحياة في الواقع هي وقت ضائع !-.

أما على صعيد عام فلم أهتم بالمزايا والامتيازات التي تقدمها مؤسسة الثقافة الرسمية ، - إذ اعتبرت نفسي كاتبا رضيت البقاء على هامش المشهد أو خارجه! -. هل كانت هذه خسارة ؟...

عندما توسعت في النشر خارج العراق سألني البعض : لماذا لم نقرأ لك من قبل ؟... لماذا ؟...

المشكلة أن إنساننا الشرقي لا يصنع واقعه ، وإنما يستقبل ما يقابله بلغة القدر والمرسوم ، وما عليه غير التعامل مع الواقع بحسب ما يناسبه ويخدم حاجاته ومصالحه ومزاجه الشخصي.

فالواقع يتغير ، ولكن الناس لا تتغير ، الناس تفعل نفس الشيء في كل زمان ، تميل مع الريح حيث مالت ، وبالتعبير العراقي ، كل من يتزوج أمي أقول له: عمي !... ملكيين أيام الملكية ، وجمهوريين أيام الجمهورية ، بعثيين أيام البعث ، وسلفيين أيام السلفية.

عندما سقط الملك سخر منه الناس وانطلقت تظاهرات جماهيرية تندد بالحكم الملكي وترحب بالجمهوري. يقول شهود عيان أن الناس رفعوا الملك وهو داخل السيارة في شارع الرشيد من وسط بغداد في يوم الثالث عشر من تموز عام 1958م ، واحتفلوا بسقوطه في اليوم الثاني.

وفي نفس المكان من شارع الرشيد ، احتشدوا لتحية عبد الكريم قاسم. وعندما بدأت الثورة المضادة في الرابع عشر من رمضان / فبراير 1963م ، تخلى

الناس عن الزعيم. فارتدى بدلته وعبر النهر إلى مبنى الاذاعة حيث قُتل هناك وحيدًا وبدأ حكم جديد ، وهكذا دواليك.

إن الفرد الذي لا يتخذ موقفًا ولا يصنع واقعه الشخصي والوطني المسؤول ، يصدر عن براغماتية عميقة في التسلل عبر ثغور كل تغير طارئ في حركة الأوضاع.

وفي حمأة اللهاث وراء النزعة الفردية والانتهازية والوصولية لا يمانع في سحق أخيه وجاره وابن وطنه... ولماذا يقترن كل تغير سياسي أو عسكري بأعمال الفرهود والنهب وتفريغ جرائم القتل والانتقام.

وفي كل وضع سياسي جديد يلعب (المخبر السري) والوشايات الانتقامية والكيدية دورًا رئيسيًا في تغذية الفوضى والمجازر التي يتحمل وزرها النظام أو شماعة الإرهاب منذ بدء الاحتلال لليوم !...

في خلال حكم البعث على مدى خمسة وثلاثين عامًا لم تظهر أي حركة معارضة وطنية حقيقية تمارس دورها السياسي والوطني في حماية الشعب من استبداد السلطة وشرورها. وكان عدد المنتسبين في حزب البعث العراقي يفوق ثمانية ملايين ، أي حوالي نصف المجتمع يومذاك. والنسبة العظمى من الناس تعمل في مؤسسات الدولة ، وعدد منتسبي القوات المسلحة يقارب المليون. ورغم استمرار حرب الثمانينيات ثمانية سنوات ، فقد كانت مصدر تحول اقتصادي واجتماعي في فئات المجتمع المختلفة ، سواء عبر الرواتب والمكافآت المجزية للمقاتلين وعوائلهم ، أو هبات الأرض والسيارات والأموال الممنوحة للمتطوعين في الجيش أو المعوقين والشهداء.

ويمكن للباحث الإحصائي رصد نسبة الزيادة في حيازة العقارات والأراضي والسيارات الشخصية خلال الثمانينيات وما بعدها ، لمعرفة حجم المكاسب المالية والمالية على صعيد الأفراد من سلة نظام البعث الذي انقلب عليه

الأكثرية ، مع بدء الغزو الأمريكي الذي وفر فرصة جديدة لمزيد من الفرهود والنهب وتحقيق المكاسب المادية والمالية !...

ذلك ما دفع بالروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي أن يكتب في عموده الصحفي: (هؤلاء ليسوا من أهلي !)...

في مجتمعات أخرى لا يحدث ما يجري في العراق والشرق الأوسط... فلا أحد يخرب بلده ويسرق جاره وأخاه ويجني على مصير البلد وسمعة الشعب.

هناك مكان للحراك الوطني ، ومكان للنخبة الثقافية والأكاديميين ، ودور للنخبة السياسية والعسكرية ، وموقف للنخب الدينية ! وفي بلداننا ليس غير الغوغاء والفوضى ومظاهر الهمجية المنفلتة في كرنفال غياب القانون والدولة.

بعد الحرب العالمية الثانية ظهر تيار اللامعقول في فرنسا ، للتعبير عن رداءة الواقع الطارئ جراء عوامل خارج إطار التطور الاجتماعي والسياسي الطبيعي في البلاد. لكن هذه الأفكار والأُطر لا تنطبق على العراق مثلا !.

وعندما أنظر الآن حواليَّ وأستذكر كلَّ ما مرَّ ، أعترف أنها حياة سيئة ، ولكني لا ألوم نفسي أنني لم أنتهزها ، ولم أحوِّل هزائمها إلى انتصارات في جعبتي.

أن كل تعامل مع السيئ هو سيء. وكل ما يخرج من السيئ فهو سيء. ربما يخالف هذا إرادة الحياة وإرادة البقاء. ولكن ما قيمة البقاء في منظومة سيئة أو زمن سيء ؟ !...

أنا لا أضع لنفسي ولأمثالي علامة (صح) مدرسية ، ولا أضع علامة (رسوب) أمام الذين استفادوا أو يستفيدون من كل ظرف لصالحهم الشخصي. ولا أريد أن يؤخذ هذا بمنظار السياسة والوطنية ، ولكني أقول بالمنظور الاجتماعي والنفسي ، الذي يأخذ بالاعتبار ظروف النشأة البيئية والتركيبة النفسية لشخصية الفرد. وأسجل هنا مقولة كارل يونغ : (إن الإنسان هو ضحية لتركيبته النفسية أكثر منه مخترعها).

ربما لو اختلفت ظروف نشأتي الاجتماعية وعناصر تركيبتي النفسية لاختلفت خريطة حركتي في الواقع ، وكنت شخصًا ناجحًا في نظر أصدقائي وصديقاتي ، ولما وجدت نفسي منغمسًا (الآن) في البحث والدوران حول مركز الألم.

ربما سعت ظروف الخوف والاستبداد وظروف الحرب والبروباغندا في ترويج طبعة شعبية للفرد تحت عنوان المفهوم الجمعي للأفراد ، وصياغة فرد تمَّ تشذيب عناصر المعارضة والاختلاف منه ، على غرار مبادئ مختبرات البيولوجيا الأمريكية الهادفة لاستنساخ بشر وفق مواصفات جينية معدلة حسب المنظور الإمبريالي الأمريكي للإنسان [•].

في هذه الحالة فقط يمثل شخصي نسخة فاشلة (defect / upsturz). هنا يرى يونغ أن (دولة الجماهير - يقصد دول أوربا الشرقية في ظل النظام الاشتراكي - لا تسعى لنشر الفهم المشترك والعلاقة بين الإنسان والإنسان إنما تتوق بالأحرى إلى التذرية (من الذرة) والعزلة النفسية للفرد. كلما زاد انفصال الأفراد عن بعضهم البعض ، رسخت دولة الاستبداد والمافيا ، والعكس صحيح) - ص69 [•].

وهذا أمر تنقصه الدقة ، لأن دولة الجماهير (الاشتراكية / الدكتاتورية العسكرية عربيًا) سعت لإشاعة ثقافة أيديولوجية شعبية واحدة ، هرمية البناء ، تمثله بدور الرأس والأب في هذه الثقافة وهو ما ينطبق على دولة الدوغما الدينية الشمولية التي رسخت فكرة الطاعة العمياء والعبودية للرأس.

إن خوف السلطة من المجتمع هو ما يدفعها للتدخل الفاعل في تربيته وتثقيفه ليكون طوع إرادتها. ولكن يونغ حسب واقع النص السابق خلط بين المفهوم السياسي لثقافة الأيدولوجيا الواحدة (الفهم المشترك) ، والمنظور النفسي لعزلة الفرد.

- انظر : جورج أورويل في روايته (1984) ، والانسكلوبيديا الأمريكية.
- كارل يونغ - من أنا... ذات لم تكتشف بعد. ترجمة د. أسامة النقاش- منشورات دار الكلمة – مصر 2005

إن عزلة الفرد هي التي تقض مواجع النظام وتثير شكوكه ، مما يخدم اتجاه الأفراد للذوبان في المجموع - المكشوف - الواضح.

يبقى أن القول بالتكيف مع الواقع لتحقيق حياة ناجحة ، واعتبار الفشل في الانسجام هو الموت (ضد الحياة) إنما يسقط مفهوم القيمة الاجتماعية والأخلاقية بغض النظر عن موازين الربح والخسارة المادية على صعد شخصية.

هذه المفاهيم قد تتفاوت من شخص لآخر ومن جماعة وفئة لغيرها ، وبالنتيجة يختلف موقف الأفراد والجماعات فيما بينها ، مما يشكِّل ظاهرة عامة ، باعتبار الاختلاف هو القاعدة والاتفاق هو الاستثناء.

•

- الواقع الأمريكي للتاريخ

منذ اختفاء القطبية الاشتراكية من قيادة التاريخ المعاصر ، أخذت تتضح ملامح واقع دولي جديد يتأسس على مستوى كوسموبوليتيكي في كل بلدان العالم تلعب فيه عناصر الاقتصاد المفتوح والثقافة الشعبية دورًا رئيسًا في صياغة البنى التحتية والفوقية للبلدان والمجتمعات ، وتمارس فيه عوامل السياسة والحرب والدين أدوارًا مساعدة.

لقد وظفت الولايات المتحدة الأمريكية كل منتجات ثورة الاتصالات لخدمة بناء قرية كونية أو عالمية (•) قائمة على قطبية المركزية الأمريكية وتقارب الأجيال الناشئة الجديدة في موضات الطعام والثياب والسلوك والأفكار الأمريكية والنزعات الاستهلاكية وأولوية الجسد والغريزة والمال على ما عداها. هذا الواقع الأمريكي الحديث للتاريخ ينعكس على مفاهيم الحياة المعاصرة والمستقبلة حسب تعريف سبنسر في النجاح أو الفشل ، الحياة أو الموت. وليس من المنطقي أن من لا يساير الواقع الأمريكي يختار الموت.

• مفهوم القرية الكونية عند ظهوره اتصل بتطور تكنولوجيا الاتصالات ، وأصبح مفهومًا سياسيًا بعد ذلك.

إن الفرد هنا يـشعر بذاتـه مـن خـلال اتـصاله بالجماعـة والـذوبان فيهـا وتقليـدها في التقليعات السلوكية وأنماط المعيشة ، ولكنه يفقد شـعوره بذاتـه كفـرد لـه اسـتقلاليته وحرية قراره. فما أن تتغير الظروف التي لا يمكن أن تستمر عـلى نفـس الـشاكلة لمـدة طويلة - وفي مقدمتها عامل السن والظروف النفسية والمزاجية - حتـى يحـس بـالفراغ الذي يدفعه لحال من العدمية. هنـا يـرى يونـغ ان الـذات تبـدأ في اكتـشاف معناهـا عندما يتقاطع الفرد مع المجتمع ، وعندها يبرز عنصر الإبداع.

فالإبداع في جوهره تجديد ومغايرة ، ينشأ من واقع الوحدة والتفكر الذاتي ولـيس مـن قبيل الانغماس والذوبان الاجتماعي.

إن لكل ظاهرة وكل وقت أنصاره ومناوئوه ، ولابد من الاختلاف في الأذواق والمذاهب ، بعيدًا عن أحكام النجاح والفشل ، والحياة والموت.

إن الخوف من الوقوع في اللاجدوى هو الذي يجعل البعض يستغرق في تمجيد الأعـمال والتفاخر وتمييز ذواتهم ، وهذا نابع من ضعفات النفس والهـروب مـن اجـتراح أسـئلة الوجود المغلقة.

ما جدوى مثل تلك الأعمال والأمجاد وماذا بقي منها ومن أصحابها عبر التاريخ ؟...

الهروب من العبث في هذه الحال هو إيغال في العبث ، والهروب من اللاجدوى وقـوع في اللاجدوى.

وبحسب الجامعة سليمان : (باطل الأباطيل كل ما تعمله يد الإنسان ، ما الفائـدة مـن كل تعب الإنسان تحت الشمس ؟ !) (•).

•

• سليمان الحكيم - سفر الجامعة - الإصحاح الأول - من كتاب التناخ العبراني.

- الحياة وقت و الولادة موت

إن الحياة زمـن والعمـر وقـت. والكـائن الحـي جـرم صـغير يتحـرك عـلى خـط الـزمن اللامحدود.

بل أن الإنسان - كما يراه أندريه كـومتس بونفـل [•]- هـو نقطـة تـربط بـين المحـدود واللامحدود ، بين الفيزيك والميتافيزيك ، بين المادي والروحي.

أما يونغ فيقول: (أن الإنسان عاش طوال قرون عديدة يرتع في راحـة الإيمـان بـأن إلهًـا واحدًا قد خلقه على صورته ومثاله. وحتى اليوم هو لا يدرك أنـه مجـرد خليـة في بنيـة ثمرة كائنات كونية. ومن ثم فهو داخل ضمنًيا في خـضم صراعاتهـا. يـشعر الفـرد ، أنـه كفرد كائن لا معنى له ، ويحسب أنه ضحية لقوى لا يمكن التحكم فيها.).

إن مفهومًا عبثيًا خلال كل هذا سوف يعتبر أن الحيـاة وقـت ، ووظيفـة الإنـسان قتـل هذا الوقت.

قتل وقته يعني قتل نفسه.

وحسب تعبير مفكر آخر ، أن الإنسان في اللحظة التي يولد فيهـا أو يخـرج مـن الـرحم إلى العالم ، يبدأ بالموت. وما يسمى بالحياة إنما هي في الواقع صيرورة وسـيرورة عمليـة للموت تنتهي بالعودة إلى التراب.

البوذية والهندوسية ترى أن خط الزمن الذي يدور فيه عمر الإنـسان هـو خـط دائـري مستمر حتى يتطهر الفرد من كل السيئات... أما الديانات الإبراهيميـة فـترى أن حيـاة الإنسان تسير على خط مستقيم وتقترح طُرقًا أخرى للتخلص من الـسيئات المتوارثـة أو المرتكبة من قبل الفرد نفسه... أما الفكر العـربي فيقـدم صـياغة أخـرى غـير بعيـدة في جوهرها عما سبق ، فيقول حاتم الطائي :

• Andre Comte-Sponville, The Book Of Atheist Spirituality, Bantam Books, 2008, London

وما المال والأهلون إلا ودائعُ ..... ولابدَّ يومًا أن تردّ الودائعُ

ثم يتطور مفهوم الوديعة لدى محمد الشافعي إلى فكرة (دَين / قرض) فكل ما يكسبه فرد لابد أن يردّه ، وهو يقترب من جوهر الفكر البوذي.

وفي مجال الاجتماع البشري ، كل ما يفعله الإنسان بغيره ، يُفعَل به أيضًا !... وهكذا يتحقق التوازن / العدل في النظام الطبيعي.

لكي يكون المرء سعيدًا في موته أو بعد موته ، لابدّ أن تمحى كل ذنوبه ، وديونه ، ولا يكون رصيد حساب(حياتـ)ـه سلبيًا. وهكذا يكون كل ما يطلق عليه المجد والترف والعظمة والشهرة إنما يتحقق في نقطة على طريق الموت الطويل. حيث في كل لحظة ، يقترب الموت أكثر ، ويصبح الفرد أكثر يقينية بالغاية التي هو ماض إليها ، بلا رجعة أو حول.

•

- ولكن ما هو الواقع...

الواقع جُملة عناصر فيزيائية مادية ، والفيزياء لا يمكن التعرف عليها بغير الحواس الخمس.

يميز كومتس بونفل بين القدرة على الفكر وبين العقل. ويقول إن القدرة على التفكير بلا عقل لا فاعلية لها ، والعقل بلا قدرة على التفكير يتحول إلى عضو من أعضاء الجسم العادية.

إن الأشياء موجودة لأننا ندركها ، ونحن ندركها لأننا نستطيع التفكير بها.

إن الواقع لا وجود حقيقي له خارج إدراكنا. والشخص الفاقد للإدراك لا يعرف الواقع.

الأعمى لا يستطيع أن يرى. الرؤية عملية فيزيائية ، وفقدان القدرة على الرؤية إسقاط لركن من أركان الواقع. وفاقد المقدرة على السمع ، لا يعرف بوجود

الصوت. الصوت عامل فيزيائي ، وعدم السمع يلغي رُكنًا من أركان فيزياء الواقع.

وبحسب هذا ، فإن التكيف مع الواقع ، يعني العيش بحسب الحواس ، العيش بحسب الغريزة.

فالواقع مرتبط بالمعرفة والإدراك ، والمعرفة والإدراك ترتبط بالعقل والوعي. وهذه ليست واحدة عند الجميع ، فيختلف الواقع باختلاف آلية إدراكه ومستوى الإدراك وتصنيف المعرفة.

وبحسب تعدد ذلك سوف يتعدد الواقع. واقع اجتماعي ، واقع سياسي ، واقع فكري ، واقع نسائي ، واقع رجالي ، واقع طفولي ، واقع طوباوي ، واقع وجودي ، واقع شعري ، واقع علمي ، واقع علماني ، واقع روحي ، واقع لغوي ، واقع انطباعي ، واقع شرقي ، واقع غربي ، واقع هندي ، واقع أفريقي ، واقع عربي ، واقع فرنسي ، واقع ألماني ، واقع أمريكي ، واقع برازيلي ، واقع بوذي ، واقع إسلامي ، واقع مسيحي ، واقع تاوي ،... ،إلخ.

وإذا كان الفرد هو المركز ، فإن الفرد هو الذي يخلق واقعه الخاص (الفردي) ، بمعنى تبعية الواقع للفرد وليس تبعية الفرد للواقع كما هو في الفكر التقليدي الاجتماعي.

•

- صراع مع الطبيعة

ثمة أفق آخر يمكن استقراؤه في مقولة سبنسر إذا تمَّ استبدال مفردة (الواقع) بمفردة لغوية أخرى مثل (البيئة / الطبيعة). ففي المنظور الانثروبولوجي أن استمرارية الجنس البشري هي دالة انتصار الإنسان على عوامل الطبيعة.

ولكن التاريخ سيرورة وصيرورة مستمرة بالمفهوم الجمعي والمفهوم الفردي.

ففي أي لحظة يفشل فيها الإنسان في السيطرة على عوامل الطبيعة وتكييفها لصالحه ، يكون ذلك إيذانًا ببداية الموت والاضمحلال.

إن تكييف البيئة الطبيعية هو بمعنى ما صناعة الواقع البشري. الواقع البشري هو القرية والمدينة والاقتصاد والدولة والبوليس والجامعة ، وهذه كلها منتجات بشرية تختلف عن البرية والغابة والبحار والمحيطات.

كيف يتكيف الإنسان مع واقع يصنعه أو سبق فصنعه بيده وإمكانياته الفكرية ؟.

هنا تتدخل المرحلة التاريخية ومسألة التطور أو مفهوم العصر بكلمة واحدة.

فنحن لم نصنع واقعنا ، ولكننا نعيش في واقع صنعه أسلافنا.

ومع التطور وتغير متطلبات الحياة لم يعد الواقع يناسب تطلعاتنا ويستجيب لاحتياجاتنا ، لذلك نحاول البدء في تغيير الواقع (الثورة) أو البحث عن واقع آخر (الهجرة) يناسب عناصر التغير الجديدة فينا.

الواقع ، أن كل فرد يغير الواقع بما يناسبه وبحسب حدود صلاحياته وإمكانياته. ففي المنزل أو الحجرة يقوم الفرد بين مدة وأخرى ببعض التغيرات والإضافات بحيث يشعر بطمأنينة أكبر أو راحة أفضل.

عندما تجلس في البيت أو المقهى أو العمل تحاول تحريك الكرسي ووضعه بزاوية معينة. في بعض المحلات العامة حيث يجري تثبيت أرجل الكراسي في الأرض تشعر بوجود مقاومة قهرية ولا تشعر بالراحة المرجوة في جلوسك.

نفس الشيء يحدث في السرير ، فمن النادر أن شخصًا يدخل إلى الفراش مثل روبوت ، ليشغل أو يملأ الحيز المخصص له للنوم. يغيِّر مكان الوسادة أو الشرشف وقد يصحو خلال الليل متذمرًا وينام على الأرض.

يشكّل الاقتصاد ركنًا في الواقع المتصل بالمعيشة ، وعدم القدرة على الانسجام مع الحياة الاقتصادية وتأمين متطلبات المعيشة من خلال الحصول على عمل مناسب يهدّد استمرار الحياة ويعرقلها.

أعتقد أن اللغة تقود إلى دوامة فكرية في هذا المجال. فما يدعى في الإنجليزية (survive) وفي الألمانية (überleben) هو ما يترجم في اللغة العربية بمعنى الحياة أو النجاة أو الانتصار على الصعوبات.

فالبقاء على قيد الحياة بالتعبير الغربي يخلو من لكنة النجاح والانتصار وكأن المرء في ساحة معركة أو امتحان أو مسابقة ، ولا يتضمن أية مسحة من تفاخر أو مجد ، فالهومليس (ساكنو الإنفاق والأرصفة) يواصلون حياتهم بالنتيجة مثلهم مثل أبناء القصور والفنادق الراقية وبيوت البلدية والإيجار.

والوقت الذي يقضيه الإنسان اليوم خارج المنزل أكثر من وقته داخل المنزل. حاجة المنزل الأساسية اقتصرت على النوم ، والنوم بحد ذاته هو خروج من الواقع عبر تعطيل الحواس.

•

خلال كل ذلك يبقى الألم (ظاهرًا أو كامنًا داخل الذات) رهنًا بالوعي والإدراك ، الألم هو الضريبة التي تدفعها مقابل الحياة ، جراء جريانها في الوجود ، أو جراء وجودها في المجتمع ، أو جراء كل ما يمكن أن يصدر من الإنسان أو يحسب عليه ، فلكل شيء ثمن.

المخفي والمستور وما بين السطور !

كيف صارت القرية الأمينة زانية.
كانت ملآنة حقًا ، والعدل يبيت فيها.
وأما الآن فالقاتلون.
صارت فضتك زغلا ، وخمرك مغشوشة بماء.
رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص.
كلّ واحد منهم يحبّ الرشوة ، ويتبع العطايا.
لا يقضون لليتيم ، ودعوى الأرملة
لا تصل إليهم.

- أشعياء بن آموص- [•]

زمن انحطاط ، زمن تردي ، زمن سقوط ؛ سقوط شامل ، تدريجي ، عمودي ، أفقي...
ماذا يحدث في العراق ؟...
وهل يستمر العقل متشبثًا في خانة المنطق ، يستجدي تبريرًا لما يحدث تحت أي عنوان ؟.
هل يكفي استمرارنا في التنفس أن نقول : حمدًا لله ، ونحن يحيط بنا هواء فاسد، يتربع على ترويجه لصوص وفُجَّار وخونة ؟.
هل انتهى الرجال ؟... أم انقطع خيط الصواب ؟... أم انتحر سلطان السؤال ؟.
المنطق الحقيقي هو الذي يحاكم الواقع وليس يتشفع له...

• سفر أشعياء بن أموص (1 : 21- 23).

والعقل الحقيقي لا يستسيغ الرداءة ولا يجعل منها عنوانًا لنهضة حلمية ، فما من شجرة تعطي ثمرًا من غير جنسها ونوعها ، ولا ورود تنبت في مستنقع هواؤه مثل مائه راكد.

وما يقام على الخطأ هو خطأ ، والثمرة من نوع الشجرة.

كيف رجع العراق أربعة قرون إلى الخلف ، بينه وبين المنطق الطبيعي أكثر من قطيعة ؟...

الثورة الشعبية التي وصلت متأخرة إلى شوارع العراق ، حملت عنوانًا خافيًا أسوة بثورات تونس ومصر وسواها... الكرامة... الكرامة.

•

- مجتمع بلا خدمات أساسية

منذ عشرين سنة والكهرباء الطبيعية غائبة عن بيوت العراقيين ، والخدمات البلدية غائبة عن الشارع والمحلة ، فالزبالة والعتمة وعناوين الشعليه والقرصنة؛ سمة هاته المرحلة ، وأمام قصر رئيس الوزراء في المنطقة الخضراء (خضراء الدمن) كومة من الزبالة هي شعار حزب وفكر ونظام حكم...

منذ عشرين سنة يستمر التسيّب من نظام التعليم ، ويستمر التزوير في الألقاب العلمية والشهادات الجامعية والعليا. ناهيك عن تردي مناهج التعليم أو التعليم النوعي ، ففقدت الدرجة الأكاديمية قيمتها ، وانخفضت ثقافة حملة (الدال) وسلوكهم بشكل مريع. أما ممارسات سلطات الحكومة المستغرقة في مختلف أنواع الفساد الإداري والسياسي وامتهان كرامة الإنسان وحقوقه فقد تجاوزت كل ما اختزنته ذاكرة الاضطهاد الرافدينية.

تحول العراق من دولة بلا جيش أو أمن داخلي إلى حالة تجاوزت أعداد المنتسبين لكل منهما المليون ونصف ، يمارسون أنواع التعذيب والاضطهاد ضدّ

العراقيين على أساس الهوية (الطائفية والسياسية)... ووجود هكذا قوات مرتزقة على حساب الشعب وكرامة الوطن أسوأ من عدمها.

دولة القانون فقدت نقطتها مع الزمن وصارت دولة (الفانون) والفانوس ، وتحولت الانتخابات إلى (انتحابات) ولطميات.

•

- غزو "متخلف"

العراق أول بلد يتعرض لغزو شامل في القرن الحادي والعشرين ومطلع الألفية الثالثة. فهو أعنف وأشمل وأوسع وأرقع وأخطر مدى ، في دوافعه ونتائجه من الغزو الأمريكي الفاشل لأفغانستان.

ومنذ غشى البلاد أحدث ممارسات وانتهاكات ومخازي كانت الغاية منها تعفير الكرامة العراقية بالرمال (انتهاكات سجن أبو غريب وبوكر). لذلك تعمد الأمريكان فضح الانتهاكات وكشف بياناتها وأفلامها لوسائل الإعلام... فماذا كان ردّ الفعل العراقي ؟... هل كان هناك ردّ فعل البتة ؟... هل خرجت مظاهرات عارمة في الشوارع مثل تلك التي استنكرت رسوم الكاريكاتير الدنماركية ؟... هل طردت الحكومة السفير الأميركي أو سحبت سفيرها أو هددت بقطع علاقاتها التجارية وحظر إمدادات النفط أم... أم... ؟!

هذا الكلام ممكن في ظل وجود منطق ووعي داخل التاريخ. لكن العراق اليوم وأمس وغدًا هو خارج التاريخ ، خارج الوعي التاريخي وديناميكية التاريخ.

العراق تحت الاحتلال... شكل هذا الاحتلال سياسي وعسكري واقتصادي وثقافي وأخلاقي. كل شيء في هذا البلد تحت الاحتلال ، تحت رحمة الاحتلال أو في ظلّ نعمته !.

أما ما غفل عنه الأمريكان فهو تحت رحمة احتلال آخر ، هو الاحتلال

والاختراق الإيراني ، وهذا أكثر تعسًا من سابقه ، احتلال عامودي عرقي شوفوني يتوسل أساليب دنيئة وغاياته أكثر دناءة.

(كلّ ما هو طبيعي يبقى طارئًا... وكل ما هو طارئ هو طبيعي !...)

هذه العبارة المقتبسة بتصرف من قصيدة لفرج الحطاب تتضمن قدرة تعبيرية عالية لما كان ويكون وما هو كائن.

عبارة تحتاج تحديد موعد لاستفتاء العراقيين بشأنها ، لمعرفة عدد الذين يعتبرون واقعهم طبيعيًا ، أو طارئًا ، أو (no change) !...

•

- إلغاء (الكائن)

إلغاء وزارة الثقافة والدفاع كان إجراءً شكليًا ، دالته البنيوية أكثر عُمقًا وبُعدًا من مجرد المعنى اللفظي.

خرج البعض مطالبًا بإعادة هاتين الوزارتين العريقتين في ضمير الوطنية العراقية ، وبحسب اللعبة الديمقراطية تمَّ إعادة هيكلة الوزارتين لاحقًا...

لكن العراق بقي من غير ثقافة ومن غير دفاع. وهكذا صارت في العراق وزارة ثقافة بلا ثقافة ، ووزارة دفاع بلا دفاع.

وما يصح هنا يصح مع هيكلة بقية الوزارات والمؤسسات ، انتهاء بالحكومة التي لا تولد إلا بعد ستين عملية قيصرية. فماذا عن الديمقراطية وحريات التعبير والتفجير والتطبير وما إلى ذلك ؟...

علم و دستأور و مجلس أُمة... كلٌّ عن المعنى الصحيح محرّفُ

أسماء ليس لها سوى ألفاظها... أمّا معانيها فليست تُعرَفُ

من شعر الرصافي العظيم !

•

- وهنا صورة أخرى للمفارقة !

الثورات الشعبية العارمة في تونس ومصر والأردن واليمن والبحرين وعـمان اسـتهدفت أنظمة قائمة وحكومات حاكمة ، ومطاليبها الوطنيـة تنبـع مـن قـراءة عميقـة لأوضـاع البلاد وأزماتها المتراكمة ، وعندما تطالب بالتغيير أو سقوط النظام فهي تستقرئ صورة النظام البديل الذي يستعيد الشعب به أجهزة الدولة لخدمته وليس الانقضاض عليه.

والحال مختلف في الصورة العراقية...

فالنظام ديمقراطي والحكومة منتخبـة وسياسـاتها تحظـى ببركـة البرلمـان والسيـستاني ، والشعب هو الذي قام بانتخاب حكامه وللمرة الثانية على التوالي ، فما هو مبرر الثورة ؟... هذه المعطيـات الديمقراطيـة (المـشوهة والمـزورة) هـي التـي جعلـت (الـذي رأى نفسه) على رأس الحكومة أن ينسب خـروج الـشارع إلى الـشغب والأيـادي (الخارجيـة العميلـة) ، ربمـا يقـصد أحـزاب حكومتـه بالتأكيـد !... وبحـسب الأسـاليب والمراسـيم الديمقراطية تمَّ استخدام أفضل أنواع الأسلحة وأحدثها في المحافظة على استقرار البلاد.

عند هذه النقطة وجد العراقيون باليقين القاطع أن حياتهم ليست مقطوعة تمامًا عـن وسائل الحداثة و(البوست مودرن) ، فـأجهزة مكافحـة الـشغب الإنجليزيـة والأميركيـة تتميز بمواصفات حديثة متطورة تشكّل نقلة نوعية في فن تعـذيب الجماهـير العراقيـة بالرصاص المطاطي والحقيقي وخراطيم المياه والعصي المطاطيـة والكـاتم صـوت. وعـما قريب يتم استخدام العصي الكهربائية أسوة بأساليب المجلس العـسكري لقيـادة مـصر في أعقاب زيارة كاميرون رئيس وزراء بريطانيا لمصر (•).

•

• عقب إزاحة الرئيس الإخواني المصري الدكتور محمد مرسي [2012-2013م] وضعت القوات الأمنية يـدها عـلى باخرة محملة بأجهزة وأدوات تعذيب ومكافحة شغب بقيمة أربعة مليارات على ذمة الحكم الإخواني.

أين هو الموقف الثقافي الـوطني مـن الـراهن العراقـي ؟ أيـن هـي القـراءات الفكريـة، السياسية التاريخية ، التي تنير طريق الثـورة العراقيـة وتـساعد الـوعي الجماهـيري أو الفردي على الانتباه من وطأة التردي والاستذلال التي تنزلق فيها البلاد تحت نير القوى السياسية الطائفية المأجورة ضدّ هوية العراق التاريخية ؟... لماذا تراجع النص الإبداعي بعيدًا عن الوعي السياسي للراهن متسوّرا بالنزعة الفردية ، و(المـشي جنـب الحـايط) - بحسب التعبير المصري - ؟. في ظل هذا التراجع الثقافي وغياب الإبداع الفاعـل انتـشرت محافل الشعر الشعبي تحت مسمّيات مهرجانات طائفية أو بلدية - سـيئة الـصيت - ، وهي في الغالب تمتح من ثقافة التردي الـسائد في الفكـر والمعالجـة والتعبـير ، موشـحًا بفائض من رموز دينية مستهلكة تحتمل وزر جانب كبير مـما يلـتهم العـراق وشـعبه ، هو أقرب إلى شعر رثاء النفس والمناحـات عـلى طريقـة (الملايـات) في حفـلات التـأبين. والبعض يجد في هاته النصوص فرصة للتنفيس عما يعتلج في النفوس من يأس وإحباط وثورة داخلية مكتومة ، تصطدم بسلطة الفتوى وشورة الامام.

عراق اليوم لا ينتمي للعراق التاريخي ، والمشهد السياسي له طارئ بالمرة عـلى الذائقـة العراقية التي لم تكن طائفية ذات يوم ، ونزعة التشيّع المشاعة في بعض النصوص تعتبر ردة فكرية وانقطاعًا عن صيرورة الزمن. ويومًا بعد يوم ، تتقدم المصالح الشخصية على المصلحة العامة والوطنية ، وتتراجع ثقافة بعض المثقفـين والكتـاب منخـرطين كـأدوات رخيصة في خدمة تيار الحكـم الطـائفي البغـيض. المفارقـة الأخـرى في جدليـة التخلـف والاحتلال (الاختلال) هـي دسـامة الامتيـازات الماديـة ورخـص المناصـب والملايـين ومـا يدخل في مجالها ، مما أغرى غير قليل من أجيال الحرمان ونقـص الجـاه ، للبحـث عـن تعويض مادي على حساب جثمان الوطن.

يخطئ من يعتقد أن الهوية العراقية تشكَّلت على يد الاحتلال الإنجليزي للعـراق قبل قـرن مـن الزمـان. ويخطـئ مـن يعتـبر أن الاحـتلال الامـريكي والإيـراني هـو

تصحيح لهوية الدولة الأولى. فالتصحيح المنطقي في أي معادلة لا بدّ أن يكون خطوة للأمام. ولكن ما حدث هو خطوة عارمة للخلف ، يتحمل وزرها القائمون بها واللاهثون في إطارها على اختلاف مسمياتهم وعناوينهم وشعاراتهم.

•

(لا) للثقافة الطائفية...

بعد 2005 تزايد شعور الطائفة الحاكمة بشغور مواقع الثقافة العراقية في الداخل ، ووجود تقاطع بين الثقافة الوطنية العراقية الممثلة للهوية الأصلية الأصيلة وبين رواديد الثقافة الطائفية ، وظهرت أكثر من محاولة استقطاب للمثقفين بادعاءات ومغريات رخيصة لم تجد حينها القبول والاستجابة المفترضة.

حاولت حكومة الجعفري استخدام أكثر من وسيلة في هذا السبيل ، منها ممارساتها مع اتحاد الأدباء العراقيين وتجميد أموال الاتحاد والمساومة من خلالها لاستقطاب الأدباء لتأييد الحكومة والتهويس لها. لقد استخدمت الأموال وسيلة رخيصة لابتزاز المثقفين والأدباء وسوقهم لحظيرة الحكومة ، وكما تجلى ذلك في كلمة ممثل الجعفري في افتتاح المربد الشعري - الذي صار بصريا حسب الخريطة الطائفية ، وهو أول من ابتلع السنارة مع الخيط-. وهي الكلمة التي أنذرت بإمكانية استمالة الأدباء عندما تصلهم (رواتب الحكومة) ، مما استثار احتجاجات في صفوف المشاركين.

كانت للجعفري ريادة التدخل في الصحافة ووسائل الإعلام الملتزمة بالحقيقة وحرية الرأي والتعبير والنشر ، في أكثر من سابقة كانت نتيجتها انشقاق بعض الصحف أو تغييرات في طواقم الجريدة أو تجميد وتهميش من لا يلتزم شروط الحكومة. ولم يخرج خلفه وتلميذه المالكي عن هذا الخط ، مع مبالغة في أساليب الترهيب والترغيب وتكليف البعض لصنع استقطابات جديدة في صفوف الكتاب

ومطاردة الفضائيات والصحف والكتاب والشعراء الخارجين عن التطبيع الرسمي ، وصولاً لأساليب الاغتيالات المباشرة للمثقفين المناهضين وبطرق لا تنقصها الفجاجة كما حصل مع الفنان المسرحي هادي المهدي والشاعر الشعبي رحيم الياسري. ويعتبر عهد المالكي [2006- 2014] هو الأكبر في نسبة اغتيالات الإعلاميين والأدباء والمثقفين والأكاديميين الكبار. كما تعتبر سابقته القضائية مع صاحب ورئيس تحرير جريدة كتابات الإلكترونية ، أكثر أشكال مكافحة الديمقراطية وتصفية الرأي الحرّ قسوة وفضائحية. أعقبت ذلك أنشطة تمثيلية تحت عنوان مهرجان الثقافة العراقية في الخارج ، يحضرها نفر من أزلام الحكومة ومروجي سياستها وتوزع فيها دروع وجوائز يفرح لها البعض. والطريف في تلك المهرجانات الشكلية الخائبة أن المشاركين يوزعون الجوائز على بعضهم ، بما فيهم موظفي الوزارة المشاركين في البعثة المجانية على حساب الإبداع والثقافة العراقية المغتصبة.

كما شهدت الحقبة السالفة ممارسات مختلفة بحق الكتاب والمؤلفين والمبدعين الأحرار ، تفاوتت بين المقاطعة والطرد من العمل حتى التصفية الجسدية ، وهي المرة الأولى التي يخسر فيها العراق هذا العدد الضخم من أدبائه ومثقفيه ، وللأمانة التاريخية لا بدّ من القول أن تلك السياسات الطائفية والشوفونية الجائرة طالت أعداد كبيرة من الأكاديميين وأصحاب الاختصاصات العالية والنادرة خلال الحقبة القصيرة من الحكم الطائفي في ظل الاحتلال. كواكب الفداء هاذه جديرة أن تخلد وتقام لهم نصب وطنية في العاصمة والمحافظات التي ينتسبون اليها ، وتصدر بهم كتب ومجلدات تحفل بها مكتبة كل شخصية عراقية صادقة وأصيلة من أكاديميين وعلماء وأدباء وكتاب ، باعتبارهم أضواء منيرة في ضمير العراق الوطني المدني المتحضر ، مما يذكر باضطهادات المفكرين والفلاسفة والعلماء في حقب سابقة رفضوا التفريط بإخلاصهم وضمائرهم لمرضاة الحاكم.

•

الأمريكان وسياسة الصدمة

كانت هذه واحدة من أسلحة الأمريكان الاستراتيجية في الحرب على العراق. وكان استخدامها المبكر في ليلة السابع عشر من يناير 1991 في الضربة الجوية المفاجئة. تستهدف سياسة الصدمة (attack shock) احداث خلخلة في صفوف العدو بشكل يفوق توقعاته واحترازاته الميدانية. وفي مارس 2003 عوّل الغزاة على سياسة الصدمة في أكثر من صعيد.

1. الاحتلال العسكري الذي جاء مفاجئًا بحجم القوات والمعدات.
2. عدم حصول مقاومة ميدانية بعد اتفاق مع الحكومة الإيرانية والحكومة العراقية.
3. إلغاء مؤسسة الدولة العراقية ولا سيما الجيش والإعلام والثقافة.
4. ابعاد المعارضة العلمانية ورموزها البارزة لديها.
5. تفضيل الأحزاب الطائفية الموالية لإيران على حساب الوطنية العراقية.

وعمدت السياسة الأمريكية إلى ترك البلاد والناس بلا حكومة أو خدمات أو تمثيل سياسي أو إعلامي مدة من الزمن ، كانت كافية لنقل مركز الإرهاب من أفغانستان إلى وسط العراق وخلق حالة من الضياع النفسي والتشرد الاجتماعي يزيد من وطأتها حرمان العاملين من موظفين ومستخدمين في مؤسسات الدولة أو الشركات الخاصة من دخولهم الشهرية ، مع تفشي حالة التسيب في القطاع الخاص والمجالات العامة.

هاته الحالة النفسية والاجتماعية والمعيشية دفعت الشخصية العراقية إلى العودة للتنظيمات الاجتماعية التقليدية كالعشيرة والطائفة والمحلة أو القرية ، لتأمين الحصول على سقف اجتماعي وظهير أمني وأرضية معيشية ونفسية توفر الحد الممكن من الأمن الذي صادره سيناريو الاحتلال.

•

- **خطوة للخلف والأمان الاجتماعي**

لقد نظر المواطن إلى الغياب المفاجئ لخدمات الحكومة وكيانها باعتبـاره خيانـة بحـق المجتمع. هذا الشعور بالخيانة والخذلان يدفع غالبًا ، - مع اختلاف الأفـراد في حـدة ردّ الفعل حسب خصائصهم النفسية - إلى قبول خيارات أكـثر حِـدَّة وشـذوذًا. لقـد تخـلى قطاع واسع من المجتمع العراقي من سُكَّان المدن قبل نصف قرن ، عـن أُطـر العـشيرة والطائفة والعرق. فإذا به فجأة لا يجد الأمان الاجتماعي وضـماناته ، سـيما أن التطـور المدني وآليات العقد الاجتماعي بقيت بطيئة الحركة وضعيفة الفاعلية.

ليس من المستساغ عودة المثقفين والخريجين والمهندسين والمدرسين والكُتَّـاب إلى حظـيرة العشيرة والطائفة ، وعودة نسائهم وأطفـالهم إلى نمـط مـن المعيـشة والـسلوك مـما تـمَّ تجاوزها. هاته العودة لا تكون مجردة أو حركة عادية للـوراء ، وإنمـا تقـترن بدرجـة مـن الاحتقان ومزيد من صعوبة التكيف ، تنعكس سلبًا على آليات الفكر والمشاعر والـسلوك ، وتدفع إلى التطرف والعدوانية أو العنـف والتـوتر والقنـوط والتفكـير في الانتحـار. روى البعض أنهم رأوا أشخاصًا كانت لهم بهم معرفة سـابقة في مواقـف لم يـستطيعوا توقعهـا منهم. ولا يستطيعون فهم كيف تغيَّر أولئك الأشخاص فكريًا ونفسيًا واجتماعيًا.

نعم ، هذا هو السؤال : كيف تغيَّر أولئك الأشخاص ؟... من أشخاص نعرفهم ونحـبهم ، إلى أشخاص لا نريد أن نراهم أو نعرفهم ؟...

هذه هي الميلودرامـا العراقيـة ، المخفـي والمـستور ومـا بـين الـسطور في حركـة تطـور الشخصية العراقية نحو الخلف.

لم تقتصر تأثيرات الحالة عـلى سـكان الـداخل ، وإنمـا تعـداهم لمـن في الخـارج أيضًا... سيما الخارجين بعد واقعة الغزو ، فالكثرة منهم تقمصوا ثقافـة العـشيرة

والطائفة والبلدنة مجددًا ، والأكثر تخندقوا وراء أسوار الطائفة المسيسة.

يعتقد هؤلاء أن الدولة تخون ، والحزب يخون ، والفكرة تخون... أما الدين والطائفة فلا تطرح إلى خارج ، سيما إذا تمسكنا بها جيدًا... دكاترة ، بعثيون ، شيوعيون ، ماركسيون ، تقوقعوا في شرنقة الدين والطائفة ، دون اعتبار لمستويات الأداء الوطني والمساوئ التاريخية والاجتماعية المتفاقمة ، قاصرين اهتمامهم على ما يجنونه منهم. بل أن مجرد الانتماء للجوّ الاجتماعي وحلقات الدين الأسبوعية ، يقنعهم بأنهم ليسوا وحيدين ، مهما جرى أو حدث.

لقد أنجزت سياسات الأمريكان إعادة هيكلة ديموغرافية في العراق ، وفرَّت أرضية عريضة لقيام حكم طائفي ، ومشهد سياسي يقوم على محاصصات طائفية وعرقية. هذا الفكر / الحكم الطائفي لا يعترف بالعلمانية كهوية أو انتماء مدني ، وإنما يؤكد المرجعية الطائفية بصلافة مشهودة عندما يجري تعريف زعيم حزب شيوعي أو حزب وطني علماني بأنه شيعي أو سُنّي - علمًا أن الدستور يحظر وجود أحزاب وتنظيمات دينية أو طائفية - ، ومنافاة التقسيمات العرقية والطائفية والدينية لميثاق حقوق الإنسان. وبالمنظور المدني والحضاري يعتبر اعتماد هذا القياس أو المعيار اليوم ، قرونًا من التخلف ، لا تنفع معها منتجات الإنترنت والديمقراطية والفضائيات والموبايل في ظل تخلف العقل والعقلية. فإذا كان الإنجليز يتحملون تبعات تسويغ مصطلحات السنة والشيعة ، فإن الأمريكان يتحملون مسؤولية إعادة هيكلة الدولة والمجتمع العراقي على أساس عرقي وطائفي بغيض ، مقوضين به ، إمكانية قيام مجتمع مدني علماني متحضر في العراق.

ولكن السؤال الأهم هو : أين هو دور الفرد والمواطن العراقي في حماية نفسه وبلده ، وأين هي الحصانة الذاتية الوطنية أمام المحتل ؟!.

القسم الخامس

في فقه القانون

التعريـف الفقهـي للقـانون أنـه مجموعـة ضـوابط وتعلـيمات تـنظِّم نـشاط الأفـراد وعلاقـاتهم داخـل الجماعـة والمجتمـع ، وتكفـل لهـم الحريـات والحقـوق ، وتحـدِّد واجباتهم بشكل يضمن تفادي وقوع الضرر أو العنف غير المبرر.

ويستكمل التعريف أصل الضوابط القانونية بأنها تـشتق وتـستند إلى أصـول الأعـراف والتقاليد الاجتماعية المحلية والمتوارثة مما ينـسجم إيجابيًـا مـع روح العـصر والرسـالة الإنسانية.

لكن الدرس القانوني الذي يتعلمه طلبة الحقوق يبقى غريبًا عن ذهنية الفـرد والمجتمـع العربي الذي ما فتئ يعاني من حالة اغتراب قانوني وسياسي في ظل الدولة. وينظر للقـانون والنظام وآلياته العسكرية والمدنية باعتبارها أجهزة تسلطية قمعيـة تعمـل عـلى اسـتلابه حريته وحقوقه وتشاركه ريع إنتاجه وجهده الفردي. وهي نظرة موروثة مـن ممارسـات العهد العثماني في جباية ممتلكات الأهالي وسوق رجالهم للحروب.

بعبارة أخرى إن آليات الدولة وممارساتها أدنى إلى آليـات وممارسـات قـوات الاحـتلال. يضاف له طبيعة مجتمعات الـشرق الأوسـط التـي لم تعـرف القـانون المحـلي والحكـم المحلي قبل القرن العشرين تقريبًا. وما زالت تركن لمنظومة القبيلة والعشيرة والطائفـة الدينية أكثر من الساسة الجُدد وسياساتهم الأجنبية.

القوانين المدنية الحديثة وقعت على مجتمعات الشرق الأوسط ، مثل الـدين المقـدس ، نصًا قهريًا خارجيًا جاهزًا ، وما على الأفراد غير الطاعة والخضوع الأعمى أو الجحيم.

لا جـرم أن الدولـة والقـانون وتنظيماتهـا الحديثـة دخلـت مـع الاحـتلال الغـربي في الحـرب العالميـة الأولى ، وقامـت سـلطات الاحـتلال البريطـاني والفرنـسي بمـساعدة

عدد من المستشارين وخبراء الإدارة والقانون بتأسيس الأجهزة الإدارية والتعليمات القانونية المنظمة لها. فالقانون العراقي في أول العشرينيات وضعه محامي بريطاني من أصل يهودي ، وهو ما تكرر عقب الاحتلال الأمريكي بعد قرن منه.

هذا لا يعني غياب فقهاء القانون المحليين فحسب ، وإنما يعني ، وهو الأخطر والأكثر ضرورة ، أن القانون ليس من نِتاج البيئة المحلية وأعرافها وتقاليدها ، ولا من انعكاسات عمليات التطور الاجتماعي والاقتصادي الداخلي. القانون في حالنا مثل أي ماكينة أو سيارة يتم استيرادها وتدريب الناس عليها. وبطبيعة الحال يختلف الأمر ، لو كان أبناء المجتمع أنفسهم قد فكَّروا وصنعوا الجهاز وأداروه من غير وصاية خارجية.

نظرة الفرد الشرق أوسطي للدولة والقانون وكل ما يتعلق بها ، أنها أجنبية محتلة وتخدم المحتل على أساس المصلحة الحقيقية للمجتمع المحلي. علينا أن نقر ونعترف أننا نحمل إرثا سلبيًا جراء الهيمنة الأجنبية على بلادنا ومجتمعاتنا المحلية. وأن الطابع العام لتلك الهيمنة كان العسف والمهانة والاستغلال.

لدينا إرث سيء في الفوقية المقدسة ، فوقية الأشخاص والنصوص والمعاملات ، مما يذكر بتواريخ ممارسات العبودية والعلاقة بين السيد وبين قطعان العبيد.

وقد عانت الجماهير بشكل مضاعف نتيجة عجزها عن صياغة خطابها ومعاناتها في بيان أو مشروع وثيقة تحدد نقاط الألم والخلل ، للمطالبة بمعالجتها وتحويلها إلى مطالبات سياسية. ولم تتوفر للمجتمع العربي الخارج من تبعية العثمانيين الطويلة ، نخبة وطنية سياسية مثقفة تكون لسان جراح الجماهير وترجمان آلامها وأشواقها العصرية ، بدل الوصاية عليها واستعارة أفكار وأيديولوجيات خارجية الأصول هي الأخرى.

ومن الغرابة بمكان افتقاد كاتب أو سياسي محلي بفكر محلي وأدوات محلية طيلة النصف الأول من القرن العشرين ، بينما جرى مطاردة رجال العشائر وقادة الدين المحليين واعتقالهم وقتلهم بتهمة إثارة الشغب ، وهو ما استمرت الحكومات الجديدة ممارسته على غرار سياسات الاحتلال.

وحتى في هذه النقطة ، نجد الحكومات المحلية المتعاقبة ، بل كل حكومة جديدة حتى اليوم - كما في العراق - تعمد إلى تعيين زعماء جُدد للعشيرة والطائفة والمحلة ، وكأنهم جزء من أجهزة الدولة والجيش يتم تغييرها حسب مزاج الحاكم الجديد واضطهاد وتخوين السابقين. وهو ما ورثته الحكومات العربية من الحكومات العثمانية وما قبلها ، مما يزيد في هشاشة النظام المجتمعي والمكونات المحلية وأدراها. ويخلق بدوره طبقات من الانتهازية المحلية التي تتنافس لنوال بركة الحكم وأعطياته وسلطاته المجانية لقاء العمالة والتجسس على بيني جلدتهم وسحق المتمردين منهم على ما يدعى بالنظام والقانون.

نحن مجتمع قبلي ، وللمجتمع القبلي نظام قبلي متوارث من آلاف السنين ، وجزء من النظام القبلي هو مسالة الزعامة التي تمثِّل مؤسسة مصونة معتبرة من قبل الجميع ، كما من القبائل الأخرى.

ما حصل أن ظهور السلطة المركزية لم يحترم استقلالية وإرادة المجتمعات القبلية ويصوغ سياساته بما ينسجم مع طبيعة ومصالح المجتمع المحلي ، وإنما فرض عليها أنظمته ومصالحه ، ولم يترك للمكونات المحلية غير الطاعة والتعاون ، أو اتهامها بالتمرد والعصيان.

فالسلطة المركزية ومصالحها وضعت نفسها في محل المقدَّس ، الذي لا يترك خيارًا للإنسان غير الطاعة أو الموت ، الفردوس أو الجحيم. وهكذا تمَّ مصادرة الجماهير المحلية وحقوقها وحرياتها ومصالحها عبر التاريخ وحتى اليوم.

واليوم أيضًا تستخدم الحكومات الجديدة - في بغداد - تهم العصيان والتمرد ضد

القبائل الرافضة للعملية السياسية أو لها مطالب ومآخذ عليها ، متناسية أن القبائل هي الممثلية الشرعية المباشرة للمجتمع العراقي ، وليس الفئة السياسية ، التي يعمد بعض أفرادها لاتهام القبائل بالعمالة للخارج ، بينما ترفض وتضرب بقسوة من يتهم الحكومة وأحزابها بالعمالة وتنفيذ أجندة الاحتلال الدولي.

تمّ تعديل القانون العراقي خلال القرن الماضي في ضوء القانون المصري وعميده السنهوري ، والقانون المصري يعتمد على القانون الفرنسي (قانون نابليون). ومع ذلك تتردد في الأوساط السياسية والقضائية والديمقراطية بأن (الشعب مصدر السلطات) ، وكأن الشعارات والنصوص الجاهزة تكفي لطمأنة السلطات المحلية أمام الرأي العام الدولي.

في أصل الدولة

الدولة هي إطار مؤسساتي خدمي لإدارة وتنظيم النشاطات والعلاقات العامة داخل الجماعة المحلية ، وبينها وبين الجماعات الأخرى.

وتتضمن المؤسسة العامة جُملة من الدوائر التي يعنى كل منها بنشاط سكاني أو جانب منه ، مثل دائرة الزراعة ودائرة الري ودائرة التسويق ودائرة النقل ودائرة المعاملات الخارجية ودائرة لتسجيل المواليد والوفيات ودائرة للرعاية الصحية ودائرة للرعاية الاجتماعية ودائرة لتعليم الأطفال ومثلها للتعليم المهني وأخرى للتعليم العالي ، إلى آخر ما يتعلق بأمور الزواج والانفصال ودوائر معنية للنظر في الشكاوي والخلافات بين الأفراد والجماعات... مما يشكِّل صورة عامة لمختلف جوانب النشاط السكاني والعلاقات العامة الداخلية والخارجية.

هذه الدوائر تمارس عملها بواسطة أفراد من بين السكان ، ممن لهم أهلية وخبرة في مجاله ، لتقديم أفضل خدمة للمجتمع. ولغرض التنسيق بين أعمال الدوائر ، تكون هناك أُطر إدارية تنظيمية ومالية للإشراف والرقابة والتوجيه والتطوير.

الدولة بهذا المفهوم تبقى مؤسسة خدمة ، والعامل فيها هو خادم للبلد والمجتمع وهو ابن المجتمع ، وليس سلطة عليهم تستغل موقعها للتسلط أو القمع أو الابتزاز.

الدولة ومفهوم الخدمة العامة والمصلحة العامة مفاهيم تتعلق بالوعي الاجتماعي وتدخل في قواعد الفقه السياسي ، باعتبار أن السياسة هي نظام إدارة العلاقات العامة على الوجه الأمثل.

ويعود ظهور الدولة إلى ما يزيد عن ستة آلاف عام في مدنية سومر ومصر القديمة.

كما أن التشريع القانوني عرف أصوله ووضعت أولى الدساتير في جنوب ووسط وشمال العراق القديم يومذاك ، عندما كانت القوانين تُكتب على أحجار ونصب ضخمة وتوضع في ساحة المدينة الرئيسة ليكون الجميع على بينة من من حقوقهم وواجباتهم في أمور دنياهم وعلاقاتهم.

المؤسف أن الشرق الأوسط عانى قطيعة اجتماعية ثقافية مع تاريخه بفعل عوامل متعددة ، شكّلت عائقًا في استمرار الإرث الحضاري الإيجابي للسُكان الجُدد ، بدل العودة لنقطة الصفر والبدء من جديد.

وهذه نقطة أخرى من مسؤولية النُخب المثقفة في رأب الصدع. ولو توفرت هكذا نخب لما كنا اليوم نقتات منتجات الآخرين ونعاني الاغتراب داخل بلادنا.

إن تشخيص ظواهر التخلف والمعاناة ، يكشف أيضًا عن حجم القصور المحلي سواء في الوعي المدني أو دور النُخب. وبدل التقدم للأمام خطوة ، لتجاوز المشاكل ، زادت الاتهامات بين المكونات ، واستفحلت الصراعات حول الزعامة ورفض التنازل ووصاية الغير ، مما زاد من حجم الغياب السياسي والثقافي ، ووضع المنطقة تحت رحمة الاحتلالات المتعاقبة.

وعلينا أن نعترف عمومًا ، أن منطقة الشرق الأوسط منذ غزو الإسكندر المقدوني في القرن الثالث قبل الميلاد ، ما زالت تنتقل من احتلال لآخر ، ومن حكم أجنبي لغيره. وما حدث في العراق وليبيا وسوريا تمهيد أولي لمستقبل المنطقة في القرن الحادي والعشرين.

ويُلاحظ ، رغم فداحة الخسائر ووحشية الممارسات وضياع الأمل ، فإن أداء بلدان المنطقة لم يتغير عن سابقه ، بل زاد سوءًا عندما وضعت رهانها في مشجب الأجنبي ، متأملة النجاة لنفسها على حساب شقيقاتها ، متناسية أحداث الماضي.

وأن العالم عمومًا ينظر للعرب من جهة ، وللمسلمين من جهة أخرى نظرة

واحدة ويتعامل معها وفق أجندة واحدة ، ولا يفـضل إحـداها عـلى سـواها ، إلا وفـق خطة السراكيل والحرب بالنيابة.

إن الأزمة الأساسية في مجتمعات الشرق الأوسط هي أزمـة تربويـة اجتماعيـة ، تتمثـل بالفرد. وما المجتمع غير مجموع أفراده.

ومن غير وعي اجتماعي ويقظة وعي - حسب تعبير توفيق الحكيم - ، والبـدء بتوقيـع (عقد اتفاق اجتماعي) لازم للبدء بإصلاح تربوي ثقافي اجتماعي ، يكون بداية وقاعـدة للعمل السياسي والتشريعي لتحرير الإنسان العربي من العبودية والوصاية.

لقد قفزت بلدان كثيرة للأمام مثل تركيا وماليزيا وإيران ، بينما بقيت البلـدان العربيـة تراوح في خلافاتها العقيمة ودورانهـا عـلى نفـسها. ومـن غـير تجـاوز الخلافـات البينيـة وتبني خطاب استراتيجي موحِّد ، لا أمل في انقـاذ مـستقبل الدولـة العربيـة ، أو تغيـير طابعها القمعي التسلطي والاغترابي.

عن الديمقراطية

الديمقراطية كلمة إغريقية واصطلاح سياسي لوصف نظام يعتمد على انتخاب ممثلين عن الشعب يساهمون في وضع القوانين ورسم السياسات ، إلى جانب الحكومة. كما عرف الإغريق الحكم الدكتاتوري عند استبداد الحاكم وعدم اعتباره بمجلس الشعب.

لا شك أن الإغريق كانوا على درجة متقدمة من الوعي والثقافة كما يتضح من ريادتها الفكرية واجتماعها على أجيال من الفلاسفة العظام على مدى قرون طويلة. وتعود كثير من أصول المعارف والأفكار والقوانين والأنظمة والاصطلاحات إلى منتجاتهم.

لكن الديمقراطية الحديثة تدين لمرحلة ما بعد الثورة الفرنسية. مع أهمية ملاحظة أن مفهومها وتطبيقها كان يختلف كثيرًا عما هو اليوم.

وقد كان للثورة الفرنسية التي قادتها النُخبة المثقفة الفرنسية وصاغت خطابها الفكري والاجتماعي أثرٌ كبيرٌ في تعديل مفهوم الديمقراطية وإعطائها نسغًا حيويًا.

ونجد أن مبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة (العدل ، الحرية ، المساواة) تصبح هي القاعدة الأساسية لنظام الحكم المدني الديمقراطي.

الديمقراطية من أساسها - في عهد الإغريق - كانت ديمقراطية نخبوية ، واستمرت كذلك في أوربا الحديثة. ومن أبرز ملامحها التقليدية فصل حق الترشيح عن حق الانتخاب. فمع كون حق الانتخاب نخبويًا محددًا بشروط صارمة ، فإن حق الترشيح كان أكثر نخبوية ومحدودية بفئة كبار المالكين والرأسماليين والأعيان المنتخبين من قبل الملك. كان حق الانتخاب محصورًا بالرجال فوق سن الثلاثين ولديهم أعمال ثابتة من دافعي الضريبة. كان دفع

الضريبة والعمل شرطًا أساسيًا إلى جانب الجنس. وحتى ما بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن للنساء الترشيح ولا الانتخاب في بريطانيا. وهو حق خاص بالمواطنين الأصليين غير المهاجرين.

أمَّا التطبيق الفعلي لحقوق الحرية والمساواة بين الناس بغض النظر عن الجنس واللون والحالة الاجتماعية والاقتصادية التي دعت اليها الثورة الفرنسية ، فقد تأخرت لما بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي الولايات المتحدة التي كانت تدعو للديمقراطية وتقرير المصير ، كان أُمراء الحرب الأهلية هم النُخبة السياسية التي منها يرشح الرئيس ، فيما تأخر حق السُّود في المشاركة الانتخابية حتى صدور قانون جونسون لعام 1965.

لقد نشأت الديمقراطية في الغرب وتطورت تدريجيًا وفقًا لعوامل وظروف التطور الاقتصادي والاجتماعي. أثرت فيها ظروف وعوامل عدة ، سواء في الصراع بين طبقة الملاكين والملك ، أو بين ممثلي العمال وأرباب العمل وانعكاساتها على الظروف السياسية والاقتصادية للبلاد.

أما على الصعيد العربي ، فلا يمكن الحديث عن تاريخ للديمقراطية ولا ظروف نشأتها وتطورها ، أو التطور الاجتماعي والاقتصادي المحفِّز لها. لقد نزلت الديمقراطية على المجتمع العربي والحُكَّام العرب من السماء ، وبشكل لا يخلو من القهر والإلزام.

ولم يحن للآن وقت للسؤال عن مدى انسجام المجتمع العربي مع الديمقراطية ، ومدى توفر الأرضية المدنية له ؟... بل لا يجرؤ أحد على التصريح برأي ينفي الديمقراطية ، لعدم توفر أرضيتها السياسية والاقتصادية ، أو عدم تهيؤ الثقافة الاجتماعية لمتطلباتها. وهل الساسة العرب والمجتمع على مستوى وعي بالديمقراطية وثقافتها ، أم هي مجرد تقليد سياسي شكلي إجباري لنيل رضا الدول المانحة ؟...

هل الفرد العربي مالك قراره السياسي بنفسه ، وقادر على حماية حقه أمام سلطة العائلة والدين والعشيرة والحزب والحكومة ؟...

هذا المواطن المحكوم بالرعب والقلق وقطع الرزق والعنق ، والمفتقد لأبسط مستلزمات الحياة المادية والمعيشية وتنعدم في ثقافته مبادئ حقوق الإنسان والحريات الشخصية ، هل يوجد من يحميه ويحمي حقوقه إذا خالف تعليمات ووصاية رب العائلة والطائفة والعشيرة والمحلة والحزب ورب العمل وساسة الدولة إذا خالفهم واختار شخصًا خارج توصياتهم ؟.

وما معنى الكرنفالات الدينية والحزبية التي تسبق الانتخابات ولا تخلو من لغة التهديد والوعيد لن يخالف إرادتهم وينتخب غير مرشحيهم ، فكيف بمن يميل لمرشحي جهة مناوئة لهم ؟.

وهل الفرد العربي قادر على كتمان مرشحه عند سؤاله من قبل الآخرين ؟... أم أن المشرفين على الصناديق والانتخابات من الثقة بحيث لا يمالئون جهة ما أو يذعنون لتهديداتها الباطنة أو العلنية.

الانتخابات والديمقراطية العربية مبكرة جدًا ، قبل استكمال مستلزمات بناء قواعد مجتمع مدني وترسيخ ثقافة مدنية ديمقراطية تقرُّ بمسائل الحرية الشخصية واستقلالية الفرد ، وعدم إلزامه بطاعة فتوى رجل الدين أو أمر الحزب وتهديد العشيرة بالبراءة إذا خرج عن الإجماع.

أخيرًا ، تلجأ بعض الحكومات للتعاقد مع شركة خارجية تدير لها عملية الانتخابات من الألف إلى الياء ، وبال الحكومة والمواطن مرتاح ، وكأن شيئًا لم يكن.

وبالنتيجة ، يعود السؤال عن حالة البلاد العربية اليوم في ظلِّ الديمقراطية ، وعنها قبل دخول موضة الديمقراطية الشكلية.

إن الاحتجاجات الشعبية العارمة بعد (2011م) تجيب على هذا السؤال وتشكِّل

أكبر إدانة للديمقراطية وصناديق انتخاباتها التي أباحت حقوق البلاد والعباد ورفعت شِلل المفسدين واللصوص إلى البرلمان والحَكم.

الديمقراطية لا تعني حُكم الشعب ، ولكنها تعني مشاركة ممثلي الشعب في الحُكم، وأن يكون للممثلين صلاحيات وسلطة حقيقية وكلمة مسموعة ، تحترمها الحكومة التنفيذية.

هل الدولة شـرٌّ ؟!

في كثير من تناولاتنا للمفاهيم والأُطر ، يغيب التمييز بين الشرق والغرب ، أي البيئة الحضارية للمصطلح. فالمصطلح ككائن لغوي يرتبط بالحاضنة الاجتماعية والأرضية التاريخية المنتجة له والتي تسمه بسمات وملامح بيئية محلية أو قومية تراثية معينة. المصطلح مثله مثل أي شيء آخر عرضة لسوء الاستخدام أو الاستغلال. وأي خلل يعتور سلامة اتصال المعنى بين المنتج والمتلقي ؛ ينعكس سلبًا على الواقع بكل ما يتضمنه من شمولية جغرافية وتاريخية.

والعرب لديهم مشكلة بنيوية في مجال اللغة. فاللغة العربية هي اللغة الرسمية الفصحى المستخدمة في المكاتبات الحكومية ولغة الإعلام والتعليم والتأليف ، ولكنها ليست لغة الشعب والشارع والبيت.

ثمة تساهل وتغافل مقصود عن طرق الخلافية اللغوية بين العربية الفصحى واللغات المحلية لكل بلد أو مدينة أو جماعة. والواقع أن اللغات المحكية في شرق المتوسط وجنوبه ، إنما هي لغة مختلطة تضم لغاتها الأصلية القديمة ممتزجة وملقحة ببعض العربية ، فاللغة المصرية هي القبطية الممتزجة بالعربية، ولغات العراق والشام هي الآرامية المخلطة بالعربية ، وهو ما يقال عن اللغة الأمازيغية الشمال أفريقية الملقحة بالفرنسية والعربية. وواقع الحال هذا بعد أربعة عشر قرنًا على الحُكم العربي ، مما يعني فشل التعريب لغويًا وثقافي وسياسيًا ، وهي معضلة أخرى في المنظومة الإشكالية لحالة التغريب والاغتراب التي يعيشها أبناء الشرق الأوسط ، وتعيق تطورهم وانسجامهم الاجتماعي في أنظمة وثقافات قهرية.

هم لا يكادون يعرفون شيئًا عن أصول لغتهم وظروف ظهورها ونشأتها

تاريخيًا. وبسبب اقترانها التراثي بالمقدس والقومي الفوقاني يرفضون معاملتها أسوة ببقية اللغات. وبين الجهل والعنصرية ، نسبوا لغتهم لمصدر غيبي فصارت لُغزًا من ألغاز الوجود العويصة كالروح والوجود وما وراءه.

المهم في الأمر ، أن منظري اللغة العربية فاتتهم الصدقية والشفافية في الربط بين اللغة وقاعدة لغات الشرق الأوسط القديمة ، كما نفوا ربطها بالبيئة الاجتماعية المحلية والمتباينة من موضع لآخر ، مما انعكس في تباين الظواهر اللغوية.

اللغة العربية في فقهها تختلف عن اللغات الأخرى باختلاف العقليات. فالعقلية العربية المتمثلة بالتسليم والمطلق والغيب ، انعكست في لغة ترتبط المباني اللفظية فيها بمعاني جاهزة منزلة ، لا يدرك المتكلم سِرَّ الصلة بينهما.

أي أن المعنى في اللغة العربية ليس اشتقاقيًا. والسبب أن اللغة العربية لا تقوم على قاعدة تركيبية أو تحليلية ، ولا تستند إلى وحدات جزئية أو جزيئات (كما في اللغة الألمانية مثلاً) ، مثل المركب الكيمياوي ، بحيث تتغير الخواص والمعطيات ، مع اختلاف نوعية الوحدات الجزئية المشكلة لها. والسبب في ذلك هو انسجامها مع العقلية التسليمية التي لا تعرف المناقشة والدراسة.

فالتفكير والتحليل يختلف عن لُغة المُسَّلمات والمفاهيم المجرَّدة والمطلقة ، فالطفل الذي يتعلم العربية لا يعرف علاقة اللفظ بهذا المعنى. وقد حصل في مرحلة ما بعد السنة الثالثة ، إذ كان أحد الأطفال يتعرف على الأشياء ويسأل ذويه / وكلما تعرف على اسم شيء تبعه بسؤال (لماذا ؟)... وعندما قيل له إن اسم هذا الشيء (بقرة) سأل فورًا (لماذا ؟) ، فقيل له لأنها بقرة... فرفع يده وأشار بها إلى شيء آخر وقال (بقرة)! ، فقيل له على الفور : (لا ؟ ؟ هذه ليست بقرة. هذه بقرة هنا)!. ولكن الطفل ألح بذكائه (لماذا ؟)... وحين يعجز ذووه عن تقديم الجواب يعود ويستخدم الكلمة لوصف أشياء أخرى.

فالأهل منذ الصغر يفرضون على أطفالهم عقلية تسليمية مطلقة كلية لا تحترم التفاصيل والجزئيات ولا تتقبل المناقشة أو التفكير والأسئلة (•). بل أن الكبار غالبًا ما يتندرون من كلام الأطفال وأسئلتهم العويصة.

•

الدولة في اللغة العربية لفظ مستحدث ليس له أصل في حياة العرب وبيئتهم التراثية.

ويحاول اللغويون إعادته لأصل ثلاثي مجرد (دال / يدول) / والتي هي تحريف أو (تصحيف) بحسب المصطلح اللغوي (lignguistic) من الفعل (دار / يدور) ، والأصل فيه أن الأشخاص / الزعماء يتعاقبون عليها / فهي (دولة بينهم != دائرة عليهم).

نقارن ذلك بالمقابل الغربي ، الأوربي والمشتق من أصول إغريقية ولاتينية ، نجد أن اللفظ هو (state, staat) في كلٍّ من اللغتين الإنجليزية والألمانية ، ومعناها (حالة / وضع). أي أن المعنى يعود على أصل الشيء وكينونته أو خصائصه.

والوضع أو الحالة تعود على الطبيعة في الفلسفة. فكلُّ ما في الكون / الأرض / الحياة / البيئة له حالة أو وضع معين.

وتوصف الحالة بأنها (طبيعية ، عادية ، جيدة ، ملائمة ، مستقرة).

فالدولة لدى الأوربي لا ترتبط بالشخص أو الشخصيات ، وإنما لها استقلالية ذاتية ، ولا تخضع للتغير المستمر. بمعنى أن مرجعية الدولة الغربية في ذاتها ، بينما مرجعية الدولة العربية تعود على الحاكم. ونحن نستغرب لماذا تضطرب

• عرض يوتيوب التمدن قبل مدة فيلمًا عن مدارس "إنسانية" خاصة في روسيا يتم فيها استخدام طريقة المناقشة والتحليل في التعليم وتشجيع الأطفال الصغار على المشاركة وتدعيم إمكاناتهم الذاتية في هذا المجال.

البلاد وتتبعثر عند موت الحاكم ، ونخاف من تغيير الزعماء وكأننا نعبر من عهد إلى عهد ، ولا تضطرب الدولة أو البلاد والحياة الغربية عند تغير الحكام والحكومات.

هذا الأمر ينعكس في صورة علاقة / موقف الحاكم من الدولة ، ونظرة / موقف الشعب من الحاكم ، في كل من الشرق والغرب على حدة.

فالعربي يعتبر الدولة دولته ، وهو متفضل على الناس بولايته عليهم ، وله حق السلطان والاستبداد ، بل هو فيها (على شبه الإله في الأرض / الكون) ، يحيي ويميت ، يغني ويفقر ، يبني ويهدم ، ولا يحق لأحد سؤال أو اعتراض ، وإنما العكس. وكلّ من يموت في سجونه أو حروبه أو يفقد صحته أو أحد أعضائه فهو (فداء) للحاكم ، بما يقابل (القربان) المقدَّم للآلهة.

الحالة مختلفة في الغرب ، حيث يجد الحاكم نفسه مدينًا للشعب في مركزه ، ولذا يعمل على خدمة البلاد والالتزام بردّ الجميل لشعبه والذين رشحوه أو انتخبوه وساندوه. فهو لا يتسلط على الدولة أو الناس ، وإنما موقعه في نقطة وسط بين الشعب والدولة. وعندما ينتخب الشعب شخصًا آخر يحترم اختيارهم ويعود إلى بيته أو حياته السابقة.

وفي الأسبوع الفائت شهدت عدة دول أوربية انتخابات جديدة وتغيرات في الرؤساء ، لم يعترض أحدهم على نتائج الانتخابات أو يلتصق بكرسي الحكم ، ودون أن تعتريهم أيّ مشاعر حقد أو احتقان وتهديد ووعيد ضدّ الذين لم ينتخبوه أو يعيدوا ترشيحه وانتخابه.

أما في بلادنا العربية فيعتقد كلّ من (اعتلى العرش) [•] أنه الوحيد الجدير بالكرسي ولا يتركه إلا بالموت. في التراث السياسي يروى أن الملك سليمان إذ مات على عرشه ، بقي على نفس جلسته مدة طويلة (عام تقريبًا) دون أن يفطن

• قارن التعبير الديني [ثم استوى على العرش...].

أحد لموته أو يجرؤ على إزاحته ، وربما اعتقدوا أنه تألّه في مكانه وخشوا غضب السماء إذا حركوه.

والمعروف أن الدولة انقسمت وضاعت من بعده.

فالحاكم العربي الذي يتفنن في تبرير جدارته الفريدة بالحكم بمسوغات دينية أو طائفية أو أساليب عسكرية وسياسية ، لا يتخلى عن الكرسي عن قناعة أو رضا ، حتى لو طال جلوسه أو تجاوز قواعد الدستور ، أو قرفت منه الجماهير.

لماذا ؟... لأنه فوق الدولة وفوق الدستور وفوق الشعب ، وإذا وجب رحيله ، فلا بدّ أن يحلّ الخراب من بعده. وطالما جرى التلويح بحدوث حرب أهلية إذا أزيح قسرا.

وما زالت بلدان مثل العراق ومصر وسوريا والأردن ، تعيش أوهام وكوابيس حصول حرب أو فتنة ، وذلك كرادع نفسي وفكري عن التطلع للتغيير أو التمرد على الحاكم.

ارتباط صورة الدولة بالحاكم ، ليس مسوغا لانتشار الفساد والرياء ، وإنما لتعطيل آلية الدولة والقانون ، وتحولها إلى ولاية أو مشيخة تجري بحسب رغبة الوالي ونزوة الشيخ.

فلا مبادئ ولا ثوابت ولا مشاريع تنمية اجتماعية وبناء ، إلا بحسب ارتخاء مشاعر السلطان واستمتاعه بالحفاوة والمديح والتبجيل والنساء

فلا اعتراض ولا اقتراح ولا نقد ، بل الطاعة ، الطاعة دائمًا من البيت والعائلة والعمل والجيش إلى أعلى مركز في البلاد.

الدولة جاهة ، والحكم صدقة...

وأطيعوا اللـه ورسله وأولي الأمر...

•

الجانب الآخر في مجال المقارنة وسلبيات النظرة العربية ، ينعكس في موقف الناس من الدولة بين الشرق والغرب.

فالفرد الغربي يجد نفسه جزء من الدولة وهي جزء منه ، تعمل في خدمته ويعمل في صيانتها. يخدمها وتخدمه ، ليست هي فوقه وليس هو دونيا لها.

ويفصل الغربي بدقة بين الدولة ، والدستور ، والهوية الوطنية ، وبين الحكومة التنفيذية أو الحاكم أو البرلمان كمتغيرات وجدت لتقوم بإدارة عجلة الدولة والبناء والتقدم.

الصورة عند العرب معاكسة تمامًا ، حيث يجد العربي نفسه ضحية لتسلط الدولة ومؤسساتها ، ضحية للاستبداد والفساد وسوء الظن.

وهو في نظر الحكومة متهم وغير جدير بالثقة أو الخير ، ولذلك تستخدم إدارة الدولة معه أساليب غير محترمة ولا متحضرة في التعامل.

العربي يحكمه الشرطي أو رجل الأمن وجماعات الأمر بالمعروف ، أو الموظف الفارغ والمتكبر.

ويتسم الخطاب اللغوي - الحكومي - بالصلافة والعنجهية والازدراء والتحقير والطرد أو التجاهل (لغة السيد والعبد / لغة الطاهر البار مع الخاطي النجس).

ومن التراث العربي الزراية بأشكال الناس ، وتقييمهم بحسب مراكزهم وعوائلهم وصورهم ، ونسبة كل شيء لإرادة السماء.

المعاملة السيئة تنتج تراكمات نفسية احتقانية داخل الشخصية ، وهذه تبحث عن ثغرة للتنفيس والتغبير ، ينعكس في كراهة الفرد للبيئة والممتلكات العامة ورموز الدولة والسلطة وحتى الناس الذين معه.

فسوء الظن وانعدام الثقة ومشاعة احتقار الفوق للدون هو تأسيس لثقافة اجتماعية سيئة يتم توارثها عير الاجيال ، بكل ما لها من انعكاسات كارثية.

وهكذا تكون الفكرة السلبية الخاطئة لمؤسسة الدولة ضحية للوجدان الشرقي ، بين غرور الحاكم ونزعاته الاستبدادية من جهة ، وموضع انتقام وكراهة المواطن المحروم من حقوقه.

وفي كثير من الأحوال ، تشكّل مواقف المواطنين وتصرفاتهم النفسية المحتقنة ، دافعًا لمزيد من الاستبداد والشرّ من جانب الحاكم والحكومة.

يستخدم البعض تعبير التفاهم أو التفهم لتنفيس الاحتقان بين الحاكم والمحكوم ، لكن الحاجة الحقيقية تتمثل في تضحية الحاكم وتجرده ورفع مستوى وعي المجتمع السياسي تجاه الحياة والدولة والعالم. وتحقيق نقلة ثقافية اجتماعية ، لتمتين أسس الانتماء بين الفرد وبلده.

الدولة مؤسسة حضارية ابدعها الفكر البشري لتنظيم حياة المجتمع وإدارة موارده وقدراته ، وتأمين الاحتياجات والمتطلبات التي تضمن لأبناء البلاد مستوى لائقا من الحياة وضمانات الرفعة والتقدم. ولكنها في النموذج العربي تنقض على نفسها وتدمر أُسس الحياة الكريمة اللائقة والتعايش المشترك والتطلع للأمام.

والعجز عن التصحيح وإضاءة المفهوم وتغيير الصورة التقليدية ، يشيع مزيدًا من اليأس والخيبة لدى المواطن ، مما ينعكس على نظرته المتشائمة للحياة والعالم.

ورغم أن العرب قرفوا من أوضاع بلادهم ويئسوا من الحلم ، وهاجروا إلى دعة الغرب واستقراره ، فالكثيرون يجترون عقلياتهم وتراثهم الذي هو سبب تشريدهم وخراب بلادهم ، فهل من مفكّر ؟!...

هل للدولة أخلاق ؟

الدولة مؤسسة معنوية يحرِّكها مجموعة من البشر ، يرسمون سياساتها ويسبغون عليها صيتها وصفاتها. فما يقومون به يُنسب إليها ، وما يُنسب إليها ؛ يتحمل مسؤوليته ساستها.

وفي ثمانينيات القرن الماضي صدر قرار رسمي في العراق ، أن كل شتيمة ضد الدولة أو واحدة من دوائرها ، يُعاقب صاحبها بالحبس.

الحجر هو مجرد حجر جامد ميت ، لكن الإساءة للحجر يعتبر تجاوزًا ومروقًا وزندقة... هذه البديهية أو المعادلة البسيطة كانت وراء مراوغة مقيتة في الفكر السياسي ، وبشكل أشكل على الناس كيفية تحديد موقف من الدولة وفهمها. فتارة يتم تأكيد وحدة الدولة والحكومة ، وتارةً أخرى تتملص الحكومة من بعض سياسات الدولة وتعتبر تراكمات ماضوية أو شخصية جدًا لأشخاص تتنصل منهم الحكومة.

واقع الحال أن مرجعية الدولة في الفقه السياسي ليست واحدة ، ولابد من تمييز بين المرجعية التقليدية البدائية ، وبين المرجعية الدستورية الحديثة كما أفرزتها الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر. وأن معظم دول العالم تعتمد على النموذج الكلاسيكي العائدة جذوره لدول سومر والفراعنة والصين ، عندما كان الحاكم هو الدولة والدولة هي الحاكم.

في تاريخنا المعاصر ، لا شيء يعلو على إرادة الحاكم ورغبته ، في واقع الحال. وهو نفس النظام السائد في النموذج الإنجليزي والأميركي ، محاطًا ببعض المزوقات البديعية والأُطر الحديثة التي لا تمس جوهر القرار السياسي الخاضع لإرادة الحاكم ونزعته الشخصية. وتتجلى هذه الظاهرة على أشدها في السياسات الخارجية وسيما الحروب الكبيرة ، كما هو حاصل الآن ، والبعيدة كل

البعد عن القرار الشعبي أو حتى البرلماني. وما تزال اللجان التحقيقية في إنجلترا وواشنطن قاصرة عن تحديد مسؤولية حرب العراق ، ولا أحد يأتي على ذكرها اليوم. ومع تبادل الاتهامات بين بلير وبوش ولندن وواشنطن ، فلم ينعكس أثرها على أي من الحكومتين ، ولا غيرت في سياساتهما الحربية في منطقة الشرق الأوسط ووسط أفريقيا.

يختلف الأمر كثيراً ، وكان سيختلف حتمًا ، وينعكس على السياسة الدولية ومستقبل العالم ، لو كانت الدولة الإنجليزية والأميركية تقوم على المرجعية الحديثة كما هي في فرنسا وإيطاليا وألمانيا. فالآلية الديمقراطية الشعبية قبل البرلمانية أكثر حضورًا وفاعلية في الدول الأخيرة.

وقد يسخر البعض من هشاشة الحكومة الفرنسية أو الإيطالية التي تستقيل لمجرد خطأ أو احتجاج شعبي أو فضيحة إعلامية. بينما تغيب مسألة المسؤولية الأخلاقية لصالح صورة البطل الهرقلي الذي يهز العالم ولا يهتز... رغم كل الويلات والكوارث المنعكسة أولاً وأخيرًا على الشعوب وليس أشخاص الحُكّام.

وزراء ورؤساء وزارة في فرنسا وإيطاليا أقيلوا وقُدموا للمحاكمة. بينما يندر سماع أمثلة لها في إنجلترا والولايات المتحدة التي تعتبر نفسها ملاك الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم ، وهي دائمة التشهير والنيل من بلدان الاتحاد الأوربي الضعيفة الأداء ولا تحذو حذو لندن.

ديغول الفرنسي احترم الاحتجاجات الشعبية والرأي العام الفرنسي فأصدر قرار الانسحاب من الجزائر عام 1961م ، بينما لم تفلح المظاهرات والاحتجاجات الشعبية والسياسية حول البيت الأبيض وداوننغ ستريت في تغيير قرار حكوماتها في الحرب المخططة سلفًا أو دفعها للاستقالة. وقد أكمل كل من بوش وبلير ولايتيهما المزدوجة. أما إقالة بلير من الحزب فجاءت من داخل حزبه ، وليس بفعل الرأي العام. فلا البرلمان ولا القضاء ولا الإعلام ولا الرأي العالم الشعبي وما يسمى المعارضة السياسية ، جرؤت على المطالبة بمساءلتهما

وتقديمهما للمحاكمة ، رغم وجود شبه إجماع على ارتكابهما جرائم حـرب وإبـادة ضـد الإنسانية.

إن الديمقراطية الغربية بحسب النموذج الإنجليزي هي ديمقراطية شـكلية دبلوماسـية فارغة المضمون ، ولم تفلح في المساس بالقرارات الأساسية والسياسات الخارجية تحديدًا التي تخضع لعوامل ومؤثرات سياسية عُليا.

لا يفوتنا هنا التنويه ، عن صورة فاعلية الديمقراطية الإنجليزية أيضًا. فعـضو برلمـان أو شيوخ يقال من المجلس لأنه يقود عجلته بسرعة فوق المقررة ، أو يستخدم المواصـلات العامة بدون تذكرة.

بعبارة أخرى ، إنها ديمقراطية الصغار ، الذين يتم تقديمهم أكباش فداء من وقت لآخـر ، لصيانة صورة الدولة الحديثة وإيمانها بالمساواة والعدل ، كما تروِّج له وسائل اعلامها.

إن مفهوم الإرادة الشعبية ما يزال هشًّا ، لهشاشة الوعي الشعبي. واليوم تـسود حالـة من الانحطاط الثقافي الإمبريالي العام ، مما يجعل سدًا بين تـاريخ القـرن العـشرين ومـا بعده ، ويختزل أي احتمال استعادة الإرادة والمصلحة العامة لسياقها الطبيعي.

الطُغاة هم الأكثر شعبية

هذا ما صرَّح به مخرج إيطالي. أن ما ننتجه من أفلام يتناول شخصيات الطُغاة وآثارهم السياسية والعسكرية. الجمهور يقصد السينما لمشاهدة أفلام هرقل وسوبرمان والرجل الوطواط وترنتي وحروب الفضاء وأفلام العنف الأمريكي والياباني. أفلام تمجِّد العنف والفردية والبطولة الخارقة.

أين هي الأفلام الاجتماعية والواقعية الاشتراكية والفرنسية الحديثة ، والأفلام المندِّدة بالحرب وبشاعتها وانتهاكاتها الأخلاقية والقانونية؟. كلها أُودِعت الأرشيف بقدرة قادر ، وانتشرت مكانها أفلام وألعاب وأجهزة وسياسات تمجِّد العنف والتطرف وتنشر الرعب والقلق وتخترق الأعصاب والمشاعر.

ما ينطبق في السينما والثقافة ، ينعكس في انتشار الرياضات العضلية مثل كرة القدم في النصف الأخير من القرن العشرين ، في خط متساوق مع موجة الأغاني الغربية المعتمدة على الزعيق الإلكتروني وجماهير المراهقين الذين يسافرون مئات الأميال وينتظرون أيامًا وساعاتٍ وقوفًا لمشاهدة نجم روك أو بوب أو راب يخلع قميصه على المسرح أو يلقي بقبعته أو شاله نحو الجمهور ، وسط هستيريا وزعيق عصبي.

هل الشعب ينتج النجم ، أم النجم ينتج الشعب؟... لو لم يذهب الناس للمسرح أو السينما ، لماتت حركة المسرح والسينما. ولو لم تخرج الجماهير لاستقبال القائد وتهتف له ، لما تمادى القائد في عظمته وتقمَّص صورة المعبود.

الشعب ليس عبدًا بالتأكيد. هذا أمر يرفضه الناس قبل منظِّري العلوم السياسية ومروِّجي حقوق الإنسان. لكن الأشياء بالأفعال وليست بالزعم. مأساتنا هي التمادي في استخدام اللغة وتصديقها إلى حد صارت هي الواقع البديل الذي يختزل ويهمش - وفي أحسن الأحوال يزوق - الواقع البشري المتهالك.

فالإنسان يحتاج العودة لنفسه ، والتحرر من الصور والشعارات الاجتماعية والسياسية لِما ينبغي ويجب.

يقول بعضهم ، وفي إطار المدرسة الغربية الحديثة لرفع معنويات الفرد ودفعه لتجاوز الواقع ، أن الإنسان هو ما يريد أن يكون عليه ، أو يفكِّر فيه. لكن لا شيء ينبغي أن يتجاوز الواقع ويقفز عليه.

في حفلة للنجم البريطاني التون جون ، أطلق سلسلة من الشتائم ، تناول قسمٌ منها بعض العاملين في المسرح ، وعلَّقت إحدى الحاضرات : أن التون جون قد يكون نجمًا مشهورًا ، ولكنه ليس شخصًا جيدًا بالضرورة !.

هذا التوصيف الدقيق يختصر نقطة الضعف البشري في الانقياد وراء ما يسوؤه ويؤلمه ، وهو يدرك أنه يسوؤه ويؤلمه كما يسوء ويؤلم العموم.

جرِّبْ أن تحضر حفلة موسيقية ، أو قراءة أدبية ، أو محاضرة فكرية. قبل كل شيء يتطلب من الحضور الهدوء التام ، التركيز التام ، الخروج من ذواتهم والانصياع لما يسمعون. حضور هذه المناسبات تراجع كثيرًا وصار لا يتجاوز اعداد الأصابع.

الإنسان كائن صوتي ، ظاهرة صوتية ، هوس فيزيائي.

يمكن منع الإنسان من الطعام والشراب والنوم والتفكير ، ولكن لا يمكن منعه من الكلام والصراخ. الصراخ هو أبرز ملمح في الاجتماعات العامة في الأعراس أو المآتم أو الاحتجاجات والمناسبات الشعبية.

وهنا يتمثل أكبر وأخطر هفوات الأنظمة التعسفية عندما تمنع الناس من الكلام والتعبير عن جيشاناتهم. وفي الغرب ، توفِّر حفلات كرة القدم وأغاني البوب والراب ونوادي الديسكو فسحة للصراخ والتعبير عن الكبت المكنون.

فالكائن البدائي الذي كانه الإنسان قبل مليون عام ، ما يزال قابعًا هناك ، لم يندثر تمامًا ، ولم ينجح التهذيب والتحضر في تقليم أظلافه وأظافره ، وهو يجد فرصته

بفعل الكبت والضغوط النفسية التي تراكمها منتجات التكنولوجيا الإلكترونية والتعسف الاجتماعي الإمبريالي ، فيتوفز وينطلق من قمقمه.

ليس من الغريب هنا السؤال عن مدى خيبة البشرية ، أو فشل المدنية والحضارة في إنتاج واقع جديد يستجيب للحاجات الأساسية ولا تسوده بؤر التوتر والزغل.

فشعبية الطغيان... أو الدكتاتور في صورة تجسده الشخصي ، إنما هو بطاقة عودة مجانية إلى طفولة البشر السحيقة ؛ طفولة الكفالة العامة وانعدام المسؤولية في مجتمعات العبودية والقنانة التاريخية.

فالطفولة ، مهما بلغت من المرارة والشظف ، تبقى جميلة في ضمير الإنسان ، وكلما هرم ونأت به الأيام والآمال والآلام ، ازداد حنينًا وتوقًا لملامح طفولته ، واليد التي تمسح هواجسه ، مهما امتلأت من تغضنات.

القسم السادس

الأناركية... وتقويض دور الدولة

- المصطلح

الأناركية والدولة مفهومـان متعارضـان ، لا يلتقيـان مطلقًـا. إذ أن الأولى تعتـبر الدولـة مؤسسة عنيفة ، لا بدّ من مقاومتها والوقوف لها بالمرصاد. بينما تنظر الدولة للأناركيـة باعتبارها حركة فوضوية خارجة على القانون ومتمردة على النظام.

ويعـود المـصطلح في أساسـه إلى القـرن التاسـع عـشر ، مـن واقـع الاضرابـات العماليـة وتصدي الدولة لها باستخدام إجراءاتها الأمنية والعقابية.

لكن استخدام المصطلح ومفهومه تطور في الأدب السياسي ، ليشمل أي نـشاط معـارض للدولة ، خارج السياقات المدنية والدستورية.

واليوم يتسع المفهوم لكل نشاط يتسم بالعنف أو استخدام السلاح.

وفي القاموس السياسي العربي ظهرت – خلال القرن المـاضي – تعـابير مختلفـة لهـا ذات المعنـى ، منهـا: [مخربـون ، فوضـويون ، متمـردون ، عـصاة ، مغـرّر بهـم ، غوغـاء ، إرهابيون].

هناك منظور آخر ، من جانب التاريخ السياسي ، يضع الأناركيـة في مقابـل المونارکيـة ، معتبرًا أن الأولى تمثل حالة بدائية من ناحية الـوعي والعجـز عـن التنظـيم الاجتماعـي الـسياسي ، الـذي لم يبلـغ حـدّ إدراك ضرورة الدولـة ، كمؤسـسة تتـولى تنظـيم حيـاة الجماعة البشرية ، وتحافظ على أمنها واستقرارها.

لذلك يمكن استخدام تعبير آخر ، يلخص العلاقة بين الاثنين ، هو المدنية.

فالمدنيـة مرحلـة تاريخيـة في التطـور الاجتماعـي ، تطـورت فيهـا العلاقـات العامـة بـين الأفـراد أنفـسهم ، وبـين الجماعـات داخـل المجتمـع ، بمـا يناسـب انـتماءهم

المشترك إلى مجتمع متنوع متعدد منفتح على نفسه وعلى الآخر ، في إطار من التعاون المتبادل والمصلحة (الوطنية) المشتركة.

فالمدنية هي علامة حضارية فارقة بين مرحلة الجماعة البدائية (قبيلة يسودها التشابه ووحدة الأصل والرأي والانتماء) ، وبين مجتمع يتكون من جماعات متعددة مختلفة الأصول والمعتقدات والانتماءات العرقية ، يتشكل لديها بحكم التطور ، انتماء أوسع يحلّ فيه الوطن محلّ القبيلة ، والتعددية والاختلاف ، بدل الوحدة والتشابه.

•

مرآة الواقع

الدولة في الفكر السياسي العربي ، من المفاهيم الحديثة التي دخلت حياتنا مع بدايات القرن العشرين ، وهو التاريخ الذي يعود إليه ظهور معظم الدول العربية المتعارفة حتى الآن.

ومن المآخذ النظرية على هذه الدول ، أن ظهورها لم يأتِ في سياق التطور الاجتماعي التاريخي للجماعات العربية ، وإنما ظاهرة خارجية مفروضة عليها بحكم الغزو الاستعماري عقب سقوط الإمبراطورية العثمانية.

والإشكالية الناتجة أثر ذلك ، هو الفجوة الثقافية / الحضارية بين وعي الفرد / الجماعة المحلية ، وبين مؤسسة الدولة كحاجة اجتماعية وضرورة سياسية.

ولذلك شهدت المرحلة الأولى من تشكيل الدولة العربية موجات متفاوتة من الرفض والعنف والمواقف التي تمَّ ترويضها – نسبيًا – عبر الزمن. ويمكن استقراء أمثلة ، فيما يخص الموقف من التعليم – سيما للإناث – ، والإصلاح الزراعي والأوقاف والأحوال الشخصية.

والمحصلة الموضوعية...

أنه لا يمكن القول ، بأن العرب بلغوا مرحلة التكافؤ بين الوعي الاجتماعي والوعي السياسي. بل أن الطابع القبلي والعرقي والطائفي والديني ، ما يزال هو السمة العامة في الشرق الأوسط ، ولا زال مفهوم المواطن وشعور المواطنة بعيدًا عن المتحقق.

لا يزال انتماء الفرد وولاؤه للعشيرة والطائفة ، للغة والقومية والعرق ، للديانة والمذهب ، للزعامة المحلية ومراجع الدين ، أعمق وأولى من الانتماء والولاء للوطن وقادة الدولة وسيادة القانون.

وما تكشفت عنه الأوضاع في العراق عقب الاحتلال الأميركي ، لا يتمثل في سقوط نظام أو الانتقال من العلمانية إلى الدين أو تطبيع مظاهر الموت والدمار اليومي ، وإنما انحطاط وعي الفرد لمرحلة ما قبل الدولة... ومن شأن هكذا ارتداد حضاري ، أن يستتبعه ارتداد اجتماعي وثقافي في مختلف المستويات...

•

أميركا... بلا منازع

في التاريخ السياسي العالمي ، يتم التمييز بين عالم ما قبل الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، ويعتبر كلّ ما سبق في عداد الكلاسيكي والمندثر. ذلك العالم الذي لم يكن مضى عليه نصف قرن من هيمنة الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية.

شمل هذا التغير مستويات السياسة الدولية وظهور الجمعية العامة للأمم المتحدة (1947) بدلاً من عصبة الأمم الملغاة ، وتمثل في ظهور مجموعة العالم الثالث ، وما شهدته من موجة انقلابات عسكرية ، قوّضت الأنظمة السابقة لها – ملكية كانت أو جمهورية – ، تغيّر معها الخطاب السياسي العربي ، الرسمي والشعبي ، والثقافي والديني ، عن السابق.

الانقلابات العالمثالثية التي أشرفت عليها أصابع المخابرات المركزية الأميركية كانت محاولة ترقيعية ، في عالم ، كان وجود القطبية الثانية (الحرب الباردة) ، يضطرها للتحفظ والمراعاة ، في مدّ نفوذها العالمي.

ولكن منذ العام (1989م) واستفرادها بقياد العالم ، انتقلت من التحفظ إلى التدخل السياسي المباشر – استخدام كلّ إمكانياتها بضمنها العسكرية –. وكان العراق باكورة عملياتها ، وبنجاح ساحق.

وقبل أن تمرّ عشر سنوات على التجربة الأميركية في العراق ، ظهر ما دعي بثورات الربيع العربي الشعبية ، والتي لا تبتعد كثيرًا عن ثورة الشارع الإيراني ضد نظام الشاه (1978م).

ثورة شعبية عارمة – دعم خارجي – صعود الإسلام السياسي للحكم.

ولعلّ البعض هنا يعترض أو يتساءل: هل كان الخميني متواطئًا مع الإدارة الأميركية ؟... يمكن أيضًا ولتطوير الحوار ، عكس اتجاه السؤال ؟...

والدليل الذي سوف يحتج به المتسائل أو المعترض ، هو حادث السفارة الأميركية ، باكورة عمليات الانقلاب !... لكن هذا دليل مزدوج !...

أن الذي يكذب ، يضطر للقَسَم كثيرا.

أما الذي لا يكذب ، فلا يرى ضرورة للقَسَم !.

•

ربيع عربي...

ثمة ملاحظات ثلاثة ، تكشّف عنها مشهد التغيرات السياسية الأخيرة...

ثورات شعبية

صعود الإسلام السياسي

تراجع دور الدولة !.

فالاتهام الرئيس الموجه لأداء محمد مرسي هو عـدم قيامـه - هـو أو حكومتـه (رئـيس الوزراء هشام قنديل) - بمسؤولياتهم السياسية والحكومية. [رئيس الوزراء برَّر ضـحايا خلل وتهاون في أجهزة المواصلات بأنه قضاء وقدر ! ، قارن ذلك بمثيلاتهـا في اسـبانيا أو الهند أو فرنسا].

بالمقابل ، يقتضي المقارنة مع أداء - ما يدعى - الحكومة العراقيـة واسـتغراقها في لغـو وخطب ومشاريع ومقترحات - على صعيد الحكومة والبرلمان - دون انجازات حقيقيـة على صعيد العمل بما يلبي احتياجات الناس وحـل مـشاكلهم المستعـصية ، - بمـا فيهـا أزمات الكهرباء والبطالة والقضايا الأمنية -.

فالدولة العراقية اليوم لا تكاد تعادل غير أقل القليـل مـن مظـاهر الدولـة في مراحلهـا الأولى في العهـد الملـكي ، سـواء في تنفـذ رجـال الـدين والعـشائر في الـبلاد ، أو خـضوع الدوائر والمؤسسات والوظائف العامة للمحاصصات الطائفية - بدل الكفاءات الإداريـة - ، والإلغاء التام لمعايير الوطنية والإخلاص والخدمة.

ونظـرا للعمـر القـصير للدولـة العربيـة - وظـروف ولادتهـا القيـصرية - ، لم تتبلـور مؤسسات رسمية رصـينة لهـا تقاليـدها واسـتقلاليتها الذاتيـة ، فـإن تقـويض المؤسـسة العـسكرية ، يـشكِّل بدايـة تقـويض الدولـة مـن الـداخل. فالعـسكري لا يمثـل الدولـة فحسب ، وإنما ، هو رمز للقانون والنظام ، الأمر الملاحظ في بلاد الغرب.

أما في العراق ، فقدْ فقَدَ عسكري المرور احترامه في عيون الناس ، ولم تعـد إشـارة يـده المرورية تستوجب الالتزام في الشارع. الجنـود والـشرطة هـم موضـع نكتـة وسـخرية ، وأدوات للرشوة والفساد ، قبل كـلّ شيء. ومـن وقـت لآخـر... تـنجح عمليـات تهريـب أعداد من السجناء من سجون بغداد (أبي غريب) وسواها، مما يـدخل في بـاب فقـدان العسكري لقيمته الحقيقية ، الذي يقابل فقدان الدولة لأهميتها واحترامها عمومًا.

وباعتبار أولوية اللغة في الخطاب العربي ، نلحظ ظهور مصطلحات غريبة تتقدم الظواهر ، منها تعبير (بلطجية) في مصر ، أو (شبّيحة) في سوريا ، لوصف فريق الحكومة. ، (سوات) في العراق ، إلى جانب المليشيات الشيعية المتعددة الرؤوس.

ويتم توظيف جماعات الإسلام السياسي ، والفئات المعدمة أو الساذجة من قاعدة المجتمع وبعض المرتزقة أدوات في تحطيم الأرصفة وأعمدة النور وإشارات المرور والأبنية العامة وكلّ مظاهر المدنية... وصولاً لتحقيق صورة غياب خدمات الدولة الاجتماعية والاقتصادية والأمنية... وتحويل البلد إلى – أرض مفتوحة- يدخلها الناس من البلدان المجاورة ويخرجون بدون رقيب !... هذا ما حصل في العراق... وهذا ما يحصل في مصر ،عبر حدودها مع غزة وسيناء أو الحدود الليبية.

وأخيرًا...

إن القوات المسلحة التي كانت الأداة المفضلة لدى الإدارة الأميركية لتنفيذ أغراضها قبل نصف قرن ، صارت اليوم أول ضحاياها وأعدائها ، تمهيدًا... لتقويض دور الدولة والزعامة العربية !.

علم نفس المستهلك

هو أحد متطلبات فن الإعلان ، والأخير هو أحد مراحل لأزمة في علم التسويق.

يشتمل علم نفس المستهلك على مدارس واتجاهات مختلفة ، سواء في التعريف العلمي للمصطلح أو أساليبه واتجاهاته ومدياتها. وهو على العموم من العلوم الحديثة ، ومسائل التفاوت الحضاري بين الغرب والشرق والجنوب.

تعود بداية علم السوق لبدايات مبكرة في أيام الرومان ، ولكن تطورها وتقعيدها الأكاديمي ، اقترن بمرحلة ما بعد الثورة الصناعية والحاجة إلى أسواق دائمة لتصريف الإنتاج. وعلى غرار الاستثمار ، يقوم علم السوق على عقلية المنافسة وطرق الفوز بأفضل نسبة من الجمهور.

ولمَّا كان الاستثمار يعنى بتجويد المُنتَج وتحقيق أفضل معيار نوعي ، فوظيفة علم نفس المستهلك دراسة رغبات جمهور المستهلكين وحاجاتهم وأذواقهم وظروفهم وبيئاتهم الطبيعية والاجتماعية ، واستنتاج معدل عام على شكل توصيات ومكملات يتم مراعاتها في مرحلة الإنتاج أو التسويق ، لتحقيق أفضل مردود جماهيري.

لسبب أو لغيره ، تأخر دخول فن السوق ضمن متطلبات الإنتاج العربي. وعندما فطن المعنيون لذلك ، بقي علم نفس المستهلك غائبًا أو متخلفًا ، ولا مجال لمقارنته بالتجارب الغربية.

مبدئيا، ثمة فجوة زمنية بين الغرب والشرق، لا مجال لتجاوزها ماديًا أو معنويًا.

الأمر الآخر والأهم ، أن المنتج الغربي هو منتج عالمي ، يتجه إلى سوق عالمية. بينما الإنتاج في بلادنا لا يكاد يغطي السوق المحلية ، ولهذا مردود على الاستثمار الإنتاجي والتسويق. وقد يطمئن المنتِج المحلي لكونه يتعامل داخل

السوق المحليـة التـي يعرفهـا ولا يلزمـه إضـافة نفقـات جديـدة تحـت بنـد التـسويق ودراسات علم نفس المستهلك.

وسوف يمر زمن طويل ، قبل أن يفطـن لخطـأه المريـع ، وربمـا بعـد خـسارة مـشروعه وخروجه من سوق الإنتاج. وهي مـن عوامـل فـشل التجربـة الاقتـصادية الإنتاجيـة في بلادنا ، وعدم قدرتها تجاوز السوق المحليـة ومنافـسة المنـتج الأجنبـي ، وعجزهـا عـن الاستغناء عن دعومات الدولة أو حضانة شركات أجنبية كبرى.

يشكّل علم السوق وعلم نفس المستهلك اليوم جـزءًا مـن الثقافـة العامـة ، أو الثقافـة الشعبية ، في الغرب. ويتم تعليمه في بدايات الحيـاة المهنيـة وأسـاليب حـصول الأفـراد على أفضل فرصة عمل ، باعتبار أن جهد العامل وقدراته المهنية هو الـسلعة ، الباحثـة عن أفضل مجال لاستثمارها وتسويقها في النظام الاقتصادي.

هذا التطور الثقافي العام ، جعل مفاهيم علم السوق ودراسـات علـم نفـس المـستهلك ضرورية للتطبيق في غير القطاع الاقتصادي ، سواء في مجال السياسة أو الدين أو قطـاع الثقافة والأدب.

وتخـصص الحكومـات ميزانيـات خاصـة للـترويج لـسياساتها وبرامجهـا الحكوميـة والسياسية داخليًا وخارجيًا.

وفي الفترة الأخيرة عنيت مؤسسات دينية باعتماد نظام السوق وعلـم نفـس المـستهلك أساسا في الترويج لعقائدها وتوسيع جماهيرها وقيادة حملاتهـا التبـشيرية ، سـيما بعـد اندلاع ثورة الإنترنت.

ولاحظ المعنيون أن تأكيـد جماعـات القاعـدة وداعـش المركّـز عـلى الـترويج والدعايـة لنفسها عبر الإنترنت ، واعتبار ذلك أحد عوامل نجاحها واستقطابها الـشباب مـن عمـق بلاد الغرب. وكان لتنظيم داعش أمانة خاصة معنيـة بـالإعلام الإلكـتروني وإنتـاج أفـلام الدعاية والترويج ، ونقل الأخبار.

هذا التطور الكبير حسم مسألة ريادة الغرب الحضارية ، ليس في الاقتصاد ، وإنما في السياسة والثقافة والدين عامة.

ناهيك عن الإمكانيات الإعلامية والفكرية التي يدخل فيها المقروء والمسموع والمرئي ، الكتب والمنشورات والأفلام والبرامج والألعاب.

ويمكن ملاحظة أن ما يسمى بمواقع التواصل الاجتماعي [يوتيوب ، فيسبوك ، تويتر ، وما يظهر لاحقًا...] ، هي فرص جديدة للترويج الإعلامي والإعلاني لمنتجات وأفكار ورموز غربية ، سياسية واقتصادية ودينية ، مباشرة وغير مباشرة.

وأن النجاح الذي تحققه البرامج السياسية والثقافية الغربية خارج حدودها ، إنما يعود بدرجة كبيرة لآثار سياساتها الإعلانية التي تتخلل كل جوانب الحياة الاستهلاكية العامة. بل أن الكثير من مواد المساعدات والمعونة الدولية تحمل رموزًا أو ماركات إعلانية مركبة لا تتصل مباشرة بالسلعة.

أخيرًا... تكرر الحديث عن الغزو الثقافي من قبل بعض المفكرين ، ولم يرد الحديث عن الغزو الإعلاني الأجنبي ، وليس الإعلامي فحسب.

وللأسف لم تحظ هذه الدعوات بالاهتمام ، بل أضعف الاهتمام ، لا رسميًا ولا شعبيًا. وسعى البعض لاعتبارها دعوات (قومية) للانغلاق ، للامعان في تسفيهها ومصادرة الهوية الوطنية والسوق المحلية لترويج الدعايات والمنتجات الأجنبية، وقتل بوادر روح الإبداع والإنتاج الوطني.

في عموم الأفلام الأمريكية تتكرر لازمة كأنها جزء من هيكلية العمل هي [العلم الأمريكي ، عبارة سي آي أي أو أف بي أي ، والبطل الأمريكي المنقذ]. وهو ما يتكرر بشكل أو آخر في الألعاب الإلكترونية وأفلام الكارتون ، وحتى في مجال النكات والضحك.

ولا يكاد صغير أو كبير اليوم من مستهلكي الأفلام والألعاب والمنتجات الحديثة

يجهل صورة العلم الأمريكي أو رموز الشرطة والمخابرات الأمريكية ، بينما يجهلون صور أعلام بلادهم ويمقتون الإشارة لشرطة ومخابرات بلادهم.

هذه الملاحظة أكثر أهمية عند الإنسان العربي الذي يمقت وينفر من كل ما له علاقة بالشرطة والمخابرات والاستخبارات العربية.

والسؤال هنا : لماذا لم تهتم الحكومة العربية في التقرب من المواطن واكتساب ثقته ؟... ما سبب عدم الاهتمام بتحسين صورة الدولة وتطبيع العلاقة بين المواطن والمؤسسة الأمنية ؟...

الخطوة الأولى على طريق التحضر والتمدن هو مساعدة الفرد للتكيف مع مؤسسات الدولة ، ومعالجة أزمة التغريب والخوف وعدم الثقة...

لقد جاءت الدولة العربية بعد قرون طويلة من خضوع العرب للسيطرة الأجنبية وأساليبها المقيتة في البطش والجباية والتجنيد ، وكان أولى بالحاكم والمسؤول العربي معالجة الصدع واستعادة الثقة والأمان بين العربي والدولة باعتبارها تخدمه وتمثله.

لكن المؤسف ، أن يقيم الحاكم العربي سلطانه على أساس الخوف ، مبتدئا عهده بالبطش وحملة اعدامات ، وينشر صوره بالبزة العسكرية والجبروت ، لتكون رسالته الشخصية لكل فرد.

عقدة العسكرتاريا الحاكمة لا تعني حرفيًا بتسلم أفراد الجيش للسلطة ، وإنما انتهاج أساليب النظام العسكري في الإدارة والحكم.

هذا الحديث لا يعني اختصاص العرب بعقدة العسكرة والرعب دون سواهم.

فالنظام السياسي في كل مكان كان عسكريًا متعسفًا حتى فترة ما بين الحربين من القرن العشرين. وكان الملوك والرؤساء يجمعون بين السلطة المدنية والعسكرية في آن.

لكن السؤال هو سبب اجترار الحُكَّام العرب المعاصرين تقاليد الدولة القديمة ، وإعراضهم عن تقاليد الدولة المدنية الحديثة. وسبب اعتماد الرعب والرهبة قاعدة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، بدل العلاقة الإنسانية المبنية على الثقة والطمأنينة بين الراعي والرعية. والنتيجة ، أن المسؤول الحاكم بالرعب والرهبة والقوة ، انقلبت عليه اللعبة ، وأصبح هو ضحية الرعب وعدم الثقة من قبل المحكومين.

ولماذا لا يتعظ المسؤول من حوادث التاريخ السياسي ، ومن قصص ملوك بيزنطة وفارس وصدر الإسلام الذين قتلوا بأيدي مواطنيهم؟. ناهيك عن الآثار النفسية والاجتماعية والسياسية لسياسة الخوف ودورها في تمزيق المجتمع والوطن ، وجعله فريسة للسيطرة الأجنبية.

ثمة ضرورة ملحة لاستعادة الثقة بين الناس ، وبينهم وبين السلطات ، وثقة الفرد بنفسه.

انعدام الثقة هو الفراغ الارتكازي الذي ينسف كل كيان الشخصية.

ونعرف اليوم بشكل أفضل ، معنى شخص مهزوز أو متذبذب أو حتى خجول.

غياب الثقة داخل العائلة والجماعة والمحلة ينسف القاعدة الضرورية لبناء عائلة ومجتمع متماسك. غياب الثقة والأمن بين الفرد والمؤسسة ينسف قواعد الانتماء والمواطنة والوطنية ، ويتحمل المسؤول والحكومة مسؤولية إعادة بناء الجسور والروابط النفسية والاجتماعية بين المؤسسة والمجتمع ، بين صاحب الإدارة ومادة الإدارة.

وبغير ذلك تتحول البلاد إلى سلسلة من زنازين وسجون ، يسجن كل مسؤول داخلها نفسه ، كما يسجن كل مواطن نفسه فيه خوفًا من جاره وحكومته.

واليوم انتشرت موضة جديدة هي الحراس الشخصيين حول البيت والسيارة وداخل حجرة النوم. لكل مسؤول وسياسي ونائب طاقم حماية وحراس

شخصيين. لكل زعيم عشيرة أو طائفة أو رجـل أعـمال طـاقم حمايـة مـسلحة وحـراس شخصيين.

والسؤال هو : عندما يفتقد رجل الدولة الشعور بالأمن ويستأجر لنفسه حماية خاصـة ، فكيف يشعر المواطن العادي بالأمن ، وإذا كانت الحكومة عـاجزة عـن تـوفير الأمـن للمواطنين ، فكيف تستطيع تـوفير الأمـن الـوطني والقـومي. ومـا هـو مـبرر وجودهـا عندها ، ولماذا يدفع الناس الضرائب لحكومة لا توفر لهم الأمن والخدمات الأساسية.

وما الفارق عندها بين حكومة تسرق شعبها ، وبين احتلال أجنبي يسرق البلد ؟

هل الديمقراطية كلمة عربية ؟ !

"كلمة (المتحضر) إذن لغو ، لا يضيف شيئًا جديدًا... على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حسّ القارئ ، تلك الظلال الأجنبية الغربية التي كانت تغبش تصوّري وتحرمني الرؤية الواضحة الأصيلة !" - سيد قطب

•

متى عرف العرب الديمقراطية ؟...

هل الديمقراطية مفردة أليفة في لغة العرب أو تقاليدهم أم ثقافتهم ؟...

هل الديمقراطية تراث شرق- أوسطي أو إسلامي ، وهل هي جزء من برامجهم أو أهدافهم ؟ ؟...

أليس من العجب ما تنضح به بعض وسائل الإعلام والخطب السياسية الدعائية للبعض منذ زمن ، وكأن الديمقراطية كانت دائمًا نصا من نصوص (الشريعة) والشرعية !... ومنذ متى كانت الديمقراطية باب الشرعية في العرف السياسي العربي ؟...

لماذا تكتسب الأشياء معنى بعد فقدانها ، فيرتبط استذكارها بدافع التظلم والشكوى ؟... فيكون استخدامها سلاحًا مغرضًا لإدانة الآخر ، ووسيلة لتمزيق المجتمع ، وأداة سياسية رخيصة لتحقيق أغراض شخصية أو فئوية بحتة لا أكثر ؟ !...

إن السؤال الذي ينبغي على كل فئة ترفع مزاعم الديمقراطية ، أن تجيب نفسها عليه... هل سبق لها اعتماد الديمقراطية في برامجها الاجتماعية التثقيفية ؟... وهل كانت هدفًا ومطلبًا سياسيًا في نشاطها السياسي المعلن ؟... أم أنها مجرد ورقة سياسية رخيصة تمَّ اكتشافها مؤخرا ، لتسلق سُلم السلطة في ميكافيلية

مقينة ، تعمل باتجاه واحد ، مثل كل شيء في تراثنا ! ؟...

أولاً : إن الشرعية الوحيدة التي تدين لتراثنا العربي قلبًا وقالبًا ، طريفًا ومتلدًا ، هي العنف بكل أشكاله ، سواء كان عنفًا اجتماعيًا ، سياسيًا أو ثوريًا.

وكل الأنظمة والحكومات التي سادت الشرق الأوسط منذ القرن السابع الميلادي حتى ثورات الربيع العربي قامت على العنف والاستبداد ، واستمرت به. والقرار العربي تاريخيًا هو الذي يأتي من فوق ويفرض على الما دون بالقوة ، مثل أمر سماوي يحمل توقيع صاحب الجلالة والمعالي.

ثانيا: سِجلُ الأدب العربي السياسي والاجتماعي والثقافي ، يؤيد شرعية الأنظمة والحكومات والديانات والسلطات العنيفة على مدى التاريخ ، ولا توجد أي دعوة أو شكوى مظلومية باسم الديمقراطية. فما هي المرجعية التاريخية والتراثية للبكائيات المتأخرة ، علما أنها لا تصدر من قاع الجماهير الكادحة وإنما من أرباب السلطة وأدعيائها عقب فقدانها الصدارة.

ثالثًا : إن مزاعم الديمقراطية والشرعية ومطالباتها ، لا تحتكم للوسائل والأساليب الديمقراطية المتعارفة في القاموس السياسي في بلادها الأم (الغرب الأوربي) ، وإنما هي أكثر التصاقًا بلغة العنف اللفظي والمادي ودعوات التهديد والتحريض والتكفير ، ولا تتورع عن استخدام المرتزقة وتعددية الأساليب التي تجعل من مجرد التظاهر أو الاعتصام محض واجهة دعائية إعلامية ، لتغطية حملات الإرهاب والجريمة المنظمة الفاعلة من وراء ذلك على أرض الواقع.

رابعًا : الديمقراطية كحركة اجتماعية ومسلك تربوي ، تنبع من الحراك السياسي الوطني الداخلي ، لا تسمح أن تجعل من الجماهير البسيطة ومن مصالح بلادها مطية ، لمصالح خارجية إقليمية أو دولية. فلا يكفي أن تأتمر بأوامر الخارج وبرامجه ، وإنما تستند إليه وتتوجه إليه بالدعوة العلنية للتدخل في شؤون البلد الداخلية ، خدمة لأطماعها في السلطة. ويأتي التقاء المصالح

الغربية في المنطقة مع بعض جهات خليجية إطارًا لدعم صدارة (جماعات) الإسلام السياسي في قيادة البلاد العربية ، لمرحلة ما بعد الأنظمة العسكرية والقومية ، كما حصل في العراق وتونس وليبيا ومصر ، ويجري العمل له في سوريا وبإشراف التحالف الأميركي الخليجي دائمًا.

فإذا كانت الديمقراطية – والديمقراطية فقط - هي ما يقض الضمير الأميركي والبريطاني ، فلماذا يستمر سكوتها على غياب الديمقراطية لدى حلفائها الاستراتيجيين في منطقة الجزيرة والخليج العربي ، وتصم آذانها عن ممارسات الاعتقال السياسي واضطهاد حقوق المرأة وقمع الأقليات الدينية والعرقية ، وغياب الرأي الآخر ؟.

ولماذا تتجاهل – سياسيًا وإعلاميًا - استشراء العنف الداخلي والفساد السياسي والتجاوزات العنيفة على حقوق الإنسان والمرأة والأقليات في العراق ومصر وسوريا. فحرص (! !) أميركا وبريطانيا في مصر والعراق وسوريا وغيرها يجب أن يكون متناسبا في كل بلدان العالم ، وليس البلدان ذات الأصول العلمانية والسياسية (السابقة) التي لا تدور في فلكه.

مما يجعل الديمقراطية المزعومة مجرد أداة لاختراق تلك البلدان والتخلص من أنظمتها (غير المتواطئة مع الغرب) ، وتنصيب حكومات كاريكاتورية هزيلة – باسم الأغلبية الدينية - لا تملك من أمرها خيرًا أو شرًّا ، غير استدرار المناصب والمال العام ، والإيغال في افقار وإذلال شعوبها.

خامسًا : أصعب المفارقات في تاريخنا السياسي الحديث هي مفارقة الإسلام والديمقراطية... فالإسلام باعتباره ترجمة سياسية لتقاليد القبيلة وعاداتها الاجتماعية وقيمها المتوارثة ، لا تسمح بالخروج على سلطة الأب وشيخ القبيلة وزعيمها ، وتعتبر سلطة الأب والشيخ - البطرياركية - مصدر الزعامة الشرعية الوحيد ، وكلمتها هي القانون.

تحفل النصوص الإسلامية بمفاهيم طاعة أولي الأمر بحسب التدرج التنازلي بدء من [الله- الرسول- الحاكم- الأب والزوج] ، وتقرن الخروج عن طاعة أي منهم بمعصية الخالق.

علمًا أن الإسلام عمومًا وتفصيلا يدخل في باب الأحزاب الراديكالية المتطرفة ، ويعترف بالعنف الثوري وممارسته المباشرة دون رجوع لمصدر قرار أو سلطة أو حكومة ، وهو ما يجري اليوم من قبل جماعات الإسلام السياسي على اختلاف مسمياتها.

ومن تلك النصوص الخطيرة [من رأى منكم منكرًا فليغيره... بيده أو بلسانه أو بقلبه] !... ومصدر الخطورة ليس مجرد الاحتمال الأول ، وإنما اعتماد الجميع عليه وتجاهل ما سواه ، وهو العنف الثوري في القاموس السياسي الحديث أو الفوضى الأناركية.

إن الشعب هو مصدر السلطات في النظام الديمقراطي.

أمَّا في الإسلام ، فإن الله هو مصدر السلطات ، ويتجسد الله في نصوص القرآن، وهذه النصوص تنقسم إلى ناسخ ومنسوخ ، وتتعدد التشريعات وتتضارب ، لكن السائد منها عمليًا هو ما ارتأته جماعات السلفية المحتكمة لفقه ابن تيميه (القرن الرابع عشر الميلادي).

وهي تتمثل اليوم في الوهابية والإخوان المسلمين ومختلف الجماعات الإسلامية المتفرعة عنها ومنها تنظيمات القاعدة ، والتي تدخل جميعًا تحت باب الإسلام السياسي ، أي الجماعات الساعية للسلطة والحكم كهدف أساس لعملها ، بينما يجري تبرير أطماع الحكم بأنه وسيلة لفرض الشريعة وتطبيق الحدود !.

تطبيقات الشريعة والحدود الإسلامية ترفض وجود (المختلف) في الدين أو المعتقد أو الرأي ، وفي نفس الوقت (تفرض) على عموم أفراد المجتمع من سن الثالثة (عمر الطفولة) الالتزام بتطبيق مظاهر فروض الشريعة الإسلامية ،

والتـي أضـافت لهـا الـسلفية الوهابيـة الالتـزام باللبـاس الإسـلامي [الحجـاب للمـرأة والدشداشة واللحية للرجل].

وبهذا يكون تحت طائلة التهديد المباشر كل مـن : [الجماعـات الدينيـة التـي لا تـدين بالإسلام ، الجماعات الإسلامية التي ليست عـلى مـذهب الـسلفية الحاكمـة ، جماعـات العلمانيـين ، والليبراليـين ، والوجـوديين ، والأنـاركيين ، والـلا دينيـين ، إضـافة جماعـات المجتمـع المـدني المعـاصرة مـن حركـات جندريـة تطالـب بحقـوق التكـافؤ والمـساواة والمعاملة بالمثل وحماية القانون].

ومنذ واقع الاحتلال الأميركي للعراق تمَّ ارتكاب مجازر دينية وطائفية وعرقيـة وحزبيـة إضافة لارتفاع صارخ في معدلات اضطهاد المرأة واستخدام العنف ؛ مما يـشكِّل ظـاهرة اجتماعية وجريمة سياسية تواجهها الحكومة المحلية والمنظمات الدولية بتجاهل تام.

إن الولايـات المتحـدة وبريطانيـا وحلفاءهـا ، قامـت باسـتخدام العنـف والجـيش والمليشيات والمرتزقة (الأجنبية) والإرهاب (الدولي) ، ومختلف الأساليب العنفية ومنهـا المحركة دوليًا لتغيير الأنظمة في كل من افغانستان والعراق وليبيا وسـوريا. مـما أدخـل المنطقة حمامًا ساخنًا من العنف الداخلي والإقليمـي ، تغطيـة لـبرامج تـدمير الهويـات المحلية الأصلية وتغيير جغرافيا الموازنات الدمغرافية والأثنية في الشرق الأوسط.

وإزاء انعدام عوامل الامن والاستقرار يستمر تجنيد المرتزقة – بمزاعم إسلاموية - ودعم أجندة إرهاب الأهلين ، خدمة لتحقيق المخطـط الأمـريكي الجديـد في الـشرق الأوسـط (الكبير) ، وذلك باستخدام ورقة الدين هذه المرة [من المغرب إلى الهند].

سادسًا : إن الحاجة ماسة اليوم ، ولغرض فهـم مـا يجـري في بلادنـا ، أن يجـري الفـصل تمامًـا بـين الديمقراطيـة الغربيـة عـبر تاريخهـا وتقاليـدها الاجتماعيـة

والثقافية العريقة وثمارها السائدة في مجتمعات الغرب (في المجتمع قبل الحكم)، وبين الديمقراطية ضمن تسويقها السياسي المتأخر للعـرب ، وعـدم انتظـار حـصول معجـزة ، تزاوج بين العقلية العربية القبلية وبين المدنية الأوربية في يوم أو سنة أو حتى أكثر من عقـد – كـما في المثـال العراقـي -. فـما زالـت جـذور العقليـة البدويـة والقبليـة هـي المتحكمـة في حيـاة العـرب الاجتماعيـة اليوميـة وقـراراتهم الـسياسية. ومـا تعيـشه مجتمعاتنا اليوم من انتكاسة ثقافية وردة فكرية واجتماعيـة ، لهـي أفـضل دليـل عـلى عجز العربي عن التحرر من بداوته.

لقد ارتبط دخول معالم الحداثة والمدنية الغربية في بلادنا ، بظـاهرة الدولـة المدنيـة في مرحلة ما بين الحربين من القرن الماضي ، وظهـور أنظمـة وحكومـات علمانيـة طبقـت مشاريع تنمية اجتماعية دعمت تحديث مجتمعاتهـا. لكـن تراجـع الأنظمـة العلمانيـة والثورية ، وصعود الإسلام السياسي في ربع القرن الماضي الأخير ، خـدم صـعود الأنظمـة الخليجية التي تحولت – بحسب دوران رأس المال - قِبلة العمالة والثقافة العربية على حدّ سواء ، إلى جانب استقطاب الشركات العالمية العابرة للقارات.

لقد حققت الناصرية اكتساحًا عربيًا في عهد عبد الناصر ، ومثل ذلك يقـال عـن القوميـة ومداراتها ، التي تركزت في بلدان الشمال [مصر ، ليبيا ، الجزائر ، سوريا ، لبنان ، العراق]. أما المرحلة الحالية فهي تشهد سـيادة الـسعودية وإمـارات الخلـيج ذات الطـابع القـبلي والأطر الدينية التقليدية ورؤيتها الانتقائية في التعامل مع الغرب وخدمة برامجه.

ومن بين تلك البرامج ؛ الديمقراطية... وهنا يأتي السؤال : كيف يعقل أن يكـون الخليجـي عرَّابًا للديمقراطية في بلدان الشمال ، بينما يرفضها على نفـسه ؟... والـسؤال الثـاني : لمـاذا ينبغي علينا أن نأكل ونشرب ونلبس ونفكر كما يريد لنا الآخرون ، أمريكان وخليجيـون ، وليس كما نريد نحن ونختار ، أم أن للديمقراطية هذه معنى آخر !...

أطفال العولمة

أطفالكم ليسوا لكم - جبران

أي امـرأة اليـوم ، بغـض النظـر عـن عمرهـا ومـستواها الثقـافي وموقعهـا الاجتماعـي والاقتصادي والسياسي ، تختلف أوضاعها وظروفها عن الصورة التقليدية للقرن الماضي ، بل عن صورتها الأخيرة في ظل مفاهيم الحداثة.

فقـد سـاهم النمـو المـضطرد في المنتجـات الاسـتهلاكية وارتباطهـا بثـورة الاتـصالات التكنولوجية [التلفزة الفضائية ومواقع الاتصال الاجتماعي والهواتف النقالة] في إخـراج الإنسان من بيئته المحلية المحدودة [العائلة والمحلة والمدينة] ليكون جزءًا من عالم بـلا حدود ، مما انعكس في فصل تفكـيره عـن محيطـه الاجتماعـي وزيـادة معـدل شـعوره بالاغتراب والعزلة والـلـهاث وراء سراب يزداد هروبا كلما تقدمت منه أكثر.

الإنسان الطبيعي ، التقليدي ، شأن أي مخلوق يولد وينـشأ في بيئـة حـضانة اجتماعيـة نفسية داخل عالة نووية ، هي جزء من عائلة أكبر ، تنتمي إلى دائـرة قريبـة تتـوزع في أطراف المدينة أو جُملة من مدن الـبلاد مـشكلة محيطـه الاجتماعـي وانتمائـه الثقـافي والوطني.

في هذه الحاضنة يتكون الطفل / الإنسان نفسيًا وتربويًـا وماديًـا عـبر خطـوط العائلـة والمدرسـة مترسـمًا طـرق مـستقبله وبنـاء كيانـه المـادي وتخصـصه المهنـى وشخـصيته الثقافية. هذا النظام القائم على المواءمة بين أصول التراث ومنـاهج الحداثـة التنويريـة هو الذي أنتج جُملة الأجيال التي ساهمت في انجاز التحـول الاجتماعـي المـدني للقـرن العشرين ، وبنـاء صروح المؤسـسات الـسياسية والاقتـصادية والتعليميـة ، التـي هيـأت بلدانا للوقوف والمشاركة في عالم التحالفات والمواثيق والعقود العالمية.

التغير الذي حصل في الرُبع الأخير من القرن العشرين وتزايد حجم السلع الاستهلاكية والغزو الثقافي بدء من النظم والأساليب الصحية لرعاية الأمومة والطفولة إلى مفردات التعليم وأساليبه والتغير المبالغ في مفاهيم العمل والحياة والنجاح المهني وانعكاساتها على العلاقة بالمال والمرأة والذات. مما انعكس مباشرة على الأُطر والعلاقات العائلية والمجتمعية ، وصار الفرد المتحلل من حاضنته التقليدية ، يمثل إلى حاضنة أثيرية تعويضية تشاركه في الأهواء والنزعات الاستهلاكية الحديثة ممثلة بالكروب الإلكتروني أو الاستهلاكي ، التي لا تتعدى معايير الانسجام داخلها علامة اللايك.

فالطفل الذي لم يستكمل متطلبات تكوينه النفسي والتربوي والاجتماعي داخل العائلة والمجتمع المحلي ، يبحث عن تعويض لمجمل ما ينقصه ويقلقه في مواطن مجهولة غير موثوقة ومأمونة الاتجاهات والشعارات.

فلا غرابة أن يكون القلق والأزمات النفسية والمالية المتصلة هو الطابع والواقع العام لأفراد العوائل الإلكترونية ، وبشكل فتح أبوابًا جديدة في دوائر الصحة العالمية ودوائر البوليس للتعامل من إفرازات المجتمع الإلكتروني.

لقد تسببت التغيرات الاقتصادية الكبيرة خلال ثلاثينيات القرن الماضي في تصاعد موجة الكآبة وتشخيص الشعور بالاغتراب كحلة مرضية ثقافية.

وما يحدث اليوم من ثورة ثقافية إلكترونية هو أقوى وأخطر من موجة التحولات الاقتصادية التي يمكن رصدها والتحسب لها بالقلم والورقة ، ولا تخرج في أساسها عن المحددات التقليدية للمكان والزمان. تلك المحددات التي ينعدم وجودها في السراب الإلكتروني ومتاهاته.

ورغم أنه لم يمضِ وقتٌ طويلٌ نسبيًا على سريان الشبكة الإلكترونية ، إلا أن آثارها السلبية والتدميرية أذهلت الدوائر المعنية بالبحث والرصد والمتابعة في مجالات الصحة والاجتماع والجريمة.

فقد حققت معدلات الكآبة والانتحار والجريمة قفزات عالية غير مسبوقة من جانب ؛ ومن جانب آخر تشكِّل ظاهرة الفقدان وضياع الأشخاص دون إنذار أو أثر يساعد على معرفة مصائر الأفراد حالة غير مسبوقة.

وبينما تعمل دوار الصحة على التعاطي التقليدي مع الحالات المحالة إليها ، فإن العبء الأكبر للتحول الإلكتروني يقع على كاهل دوائر البوليس والعمل على احتواء الإفرازات الجرمية للإنترنت على الصعيد الاجتماعي ؛ أي أن هذا لا يشمل الجوانب الأمنية والمخابراتية للشبكة.

إن حوالي نصف سكان العالم ، وثلاثة أرباع البلدان والمجتمعات تضررت أضرارًا مباشرة وفادحة من جرَّاء ذلك. يأتي في مقدمتها البلدان المتخلفة وما كان يدعى بسكان العالم الثالث. أما المجتمعات الأوربية والغربية عامة ، فهي أقل تضررًا نسبيًا ، باعتبارها جزء من حاضنة المنتج الإلكتروني ، وأكثر أهلية حضارية على التعاطي معه ؛ مع ملاحظة مهمة جدًا ، هو محدودية الاستشراء والاستهتار في التعاطي مع الشبكة وانحسارها في المجالات المهنية ، الاقتصادية والأكاديمية الخاضعة لنظام المؤسسات ، أكثر من الأفراد.

وفي المجتمع البريطاني مثلاً ، يمكن ملاحظة أن المهاجرين من الجيل الثاني والثالث أكثر استهلاكًا وانغماسًا في الاستهلاك الإلكتروني بمجالاته الثلاثة من أبناء الإنجليز أنفسهم. فالتقنين والتنظيم والسيطرة والعقلانية لدى الشخصية الأوربية ما تزال من سماتها الرئيسية ، مقارنة بغير الأوربيين الدين يدفعهم الشعور بالتفاوت الحضاري لمحاولة غزوه ومنافسته استهلاكيًا.

•

مغزى الإنترنت

الإنترنت ، مثل الثورة الصناعية والتنوير والحداثة والعلمانية والدولة المدنية ، واحدة من المنتجات الغربية ، وبالتالي ، فإن مغزاها والموقف منها ينبغي أن لا

يبتعد عن المغزى والموقف من غيرها. ومع مرور ثلاثة قرون على الثورة الصناعية والحداثة الأوربية ، فإنها ما زالت بعيدة وغريبة عن مجتمعاتنا ، رغم أهميتها الكبيرة في إحداث النقلة الأساسية لحياة البشر.

يترتب عليه ، أن مغزى النت والنظرة إليه في الغرب ، تختلف عن مغزاه والنظرة إليه في بلداننا. ففي الغرب يخضع النت للمؤسسات الكبيرة والدولة وقطاع الاقتصاد والسياحة والتجارة ، بينما يشكِّل الأفراد والقطاعات غير الرسمية أكبر المتعاطين معه في مجتمعاتنا.

وما زالت مؤسسات الحكومة حديثة العهد وعاجزة عن تسخيره لخدمتها أو خدمة المواطنين. ذلك ما زاد من ضعف مؤسسات الدولة أمام مواطنيها ، وسهَّل من هزيمة مؤسساتها وانهيارها في احتجاجات الربيع العربي [2010-2013م].

نظام النت هو مادة مهنية لخدمة الدولة وتطوير عمل مؤسساتها وتحقيق أهدافها وذلك في شقيها السياسي والاقتصادي ، ولضمان سلامتهما وحسن أدائهما يدخل الجانب الأمني البوليسي كذراع أساسية مباشرة في العمل. وهذا يرتبط بالفكرة الجوهرية والمغزى الرئيسي لاختراع الكمبيوتر في القطاع العسكري والخدمات الحربية. وأن تسخيره في المؤسسات الاقتصادية والتعليمية أساسًا [بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية] لا يخرج عن الغرض الأساسي منه.

من هذا المنظور أيضًا ، وفي حدود الفلسفة الرأسمالية ، كانت شركة النت شركة احتكارية قابضة ، ورغم تعدد شركات النت الباطنية المتداخلة والمتفرعة من بعضها ، فإن قبضة الشركة الأم ما زالت هي المركزية المتشددة ، والتي تضيف من وقت لآخر ، مواصفات جديدة ومتجددة للسيطرة على حقوق الملكية والتصرف بخدمات وأجهزة النت.

وإذا كان الكمبيوتر الأساس خاضعًا لوزارة الدفاع ، فإن خدمات النت تخضع اليوم ، وحسب الأمن القومي الأمريكي ، لسيطرة المخابرات المركزية

الأميركية. وإذا كانت الأخيرة المحرك الأساسي في الهيمنة الأميركية ، فلا شك أن جانبًا كبيرًا من مشاريع الهيمنة يعتمد على ما توفِّره شركات النت من تسهيلات وخدمات خارقة في هذا المجال.

•

لقد لعبت هوليود دورًا بارزًا في أمرين :

أولهما تصدير الثقافة الأميركية [مفاهيم وقناعات وأنماط سلوك].

وثانيهما ترسيخ احتكار الفن والمرجعية الثقافية ، وقد نجحت بشكل كبير في تحقيق أغراضها ، وتصفية السينمات العالمية المتعارفة السابقة من روسية وفرنسية وألمانية واشتراكية وإيطالية ، ناهيك عن المرجعيات الثقافية لباريس ولندن وموسكو وغيرها ، لصالح مرجعية أمريكية في الثقافة والفكر والسينما والموسيقى ، وبحيث تحول الأميركي المحلي إلى ظاهرة عالمية ، وانحسار الثقافات المحليات الأخرى.

ويعتبر مؤرخو العولمة ظهور مايكل جاكسون في أواسط الثمانينيات أبرز رموز ثقافة البوب الأمريكي التي وجدت فضاء عالميًا غير مسبوق.

لكن هوليود التي مثلت مرحلة انتقالية مهمة في مشروع الانتشار والهيمنة ، كانت طريقا باتجاه واحد. وكان على المؤسسات الصحفية والبحثية القيام باستفتاءات رأي من وقت لآخر ، لقياس أنماط واتجاهات أفكار وأذواق الناس تجاه بعض المنتجات والظواهر الأميركية ، في مناطق متعددة من العالم.

وكانت ثمة ميزانيات أميركية ضخمة تنفق في أصقاع العالم ، لأغراض الدعاية والإعلان وتحسين صورة الأميركي في العالم.

والواقع أنه رغم الحروب والمجازر البشرية التي تكبدتها بلدان أسيوية على يد الأمريكان ، فإن صورة الأمريكي والسلعة الأمريكية والنمط الأمريكي في السلوك والفكر والثياب والطعام هي المتقدمة بلا منافس.

فالدعاية والإعلان جزء من آليات الفكر الرأسمالي الأساسية في كل شيء.

فالفيد-ان ، والفيد- باك ، هي أهم مميزات خدمة النت.

فلا غرو أن تتراجع أهمية أفلام هوليود ورموزها البطولية إزاء ظهور الأفلام والألعاب والتسالي الإلكترونية وظهور رموز وشخصيات وأفكار وميثولوجيات جديدة ، اقتحمت رؤوس الأطفال والناشئة والشباب العالمي ، وأنتجت جيلاً من ثقافة ولغة وسلوك على درجة كبيرة من التماهي في المنتج الأمريكي ومتطلبات شركات الإنتاج والتوجيه.

فالمنتجات الأميركية ، على خلاف المفاهيم التقليدية لعالم الحداثة الاقتصادية الأوربية والصينية ، ليست اقتصادية مادية ، وإنما هي منتجات ثقافية وسلوكية تتعلق بالسياسة والمعتقد والعلاقات العامة.

بمعنى آخر ، إن التبعية الاقتصادية والسياسية وما ترتب عليها من دعوات الاستقلال السياسي والاقتصادي ، لا قيمة لها اليوم ، في عصر ما بعد الحداثة ، أو العصر الأمريكي ، الذي اشتغل على التبعية الثقافية والسلوكية للسلعة النمطية ومرتكزات اللاوعي في أرضية القناعات والروابط المشتركة.

الشعار الأمريكي هو : قل لي ما في رأسك ، أقل لك من أنت !...

وخدمات الشبكة الإلكترونية وشروط دخولها ، تضمن لصاحب المنتج مراقبة واستبيان ما في رؤوس الناس ونفوسهم وحياتهم ، عبر مئات الأميال ، أينما يكن من الأرض.

أشباح روما تملأ أذهان الناس

ونحن أطفال صغار شنفت أسماعنا أسماء شخصيات ورموز تاريخية مثل عنترة وأبي زيد الهلالي وعلاء الدين وهارون الرشيد وبطولات خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي.

وفي كتب التاريخ والوطنية تقاطرت الرموز والبطولات واتسعت لتشمل رموزًا أجنبية شرقية وغربية فعرفنا كسرى وقمبيز وهرقل وهولاكو ونابليون.

وبتلك الحصيلة التاريخية امتلأت نفوسنا ومشاعرنا وأذهاننا ، وكأننا امتلكنا كل مفاتيح المعرفة ، وما علينا غير اختطاط طريقنا على هدى أولئك القادة الأفذاذ.

وبعد تلك الدروس والرموز البطولية ، يأتي دور الواقع لكسر معنوياتنا وقمع طموحنا والحد من قناعاتنا وتصوراتنا الطوباوية عن المستقبل ودورها البطولي في صنع الحياة المجيدة. وقد نجحت مسيرة التغيرات السياسية والاقتصادية في تحجيم الأحلام والآمال والرؤى المستقبلية إلى نهاية الطرف الاخر من المسطرة ، مكتفين بحافة الهامش الباهت من الحياة.

ولكن... فيما تنحدر وتنتهي أمم وشعوب في زوايا الهامش الدولي الراهن ، تبدأ في الطرف الآخر جهة جديدة تعيد ممارسة ألعابنا القومية البطولية ، مستغلة ظروف الفراغ السياسي والتراجع الفكري والثقافي لملء السوق بمنتجاتها البطولية الإلكترونية.

تمثل الإمبراطورية الرومانية صورة الحلم التاريخي المجيد المداعب للمخيلة الغربية عبر الزمن. وقد حاولت غير دولة أوربية تجربة حظها والدلو بدلوها لبناء إمبراطورية عالمية تمتد خارج نفوذها وتنفرد بالقيادة ، قبل أن تصطدم بغيرها وتنكسر وتتضع.

ولعلَّ القارة الأوربية الصغير جغرافيًا قد عاشت أطول فترة وأكثر عددًا من

الحروب البينية بين القرن الثاني عشر والعشرين ، للاستفراد والتسلط دون غيرها. ومن الإمبراطوريات السبع في القرن التاسع عشر إلى إمبراطوريتين في القرن العشرين إلى انفراد الولايات المتحدة الأميركية بالتحكم في السياسات الدولية ، حلم ما يزال يتجدد ويتخذ لبوسا مختلفا والجوهر والمغزى والهدف واحد وحيد لا يخرج عن عقدة البعث والابتعاث المجيد.

ومنذ تسعينيات القرن الماضي والعالم يتمخض بأزمات وحروب وكوارث ، وبلدان تنقلب ودول تتفكك وحكومات تتغير وتبدل أوراقها وشعوب تثور وتصرخ وتعاني كالثور الجريح وهي تتعرض لمختلف أنواع التجارب والسيناريوهات الدولية ، بينما يجتهد منظرو الأمن القومي الأمريكي لابتداع سيناريوهات وأفكار وخطط جديدة يشاغلون بها الشعوب لتأمين أطول مدة وإمكانية لبسط النفوذ والهيمنة.

الإمبراطورية بكلمة واحدة هي فكرة مد النفوذ خارج الحدود الوطنية والقومية ، بدون مبرر غير التلذذ بأوهام القوة والسيطرة. وما من إمبراطورية على مدى التاريخ توسعت وانتفخت ، إلا وانقرضت واختفت من الوجود.

وقد صنع الأكديون في قلب العراق القديم أول إمبراطورية على الأرض قبل خمسة آلاف عام ، فأين هي أكد اليوم !... وتلاهم البابليون والأشوريون والكلدان ، فلم يكن مصيرهم أفضل.

وهو ما انتهى إليه الإسكندر المقدوني ومن بعده روما وبيزنطة ، فكانت النتيجة نهاية مجد أثينا وروما وانقراض بيزنطة لتتحول عاصمتها إلى استامبول. وما مصير الإمبراطوريات العربية الإسلامية والعثمانية غير ما يعيشه العرب والترك من تفكك وتبعية واضطرابات متصلة.

وفي عالم الغرب المعاصر ، كانت بلجيكا وهولندا والبرتغال وأسبانيا والدنمارك وفرنسا وإنجلترا إمبراطوريات عالمية يومًا ما ، وهي اليوم بالكاد تغالب

لتتماسك سياسيًا واقتصاديًا ، فما هو المصير الذي ينتظر الولايات المتحدة وهي تهرب من أزماتها الداخلية وتصديرها خارج حدودها.

يمكن قراءة الحلم الأميركي اقتصاديًا.

عندما هاجر قراصنة المال والذهب إلى العالم الجديد ، وجدوا أمامهم أراضي شاسعة وسلاسل جبلية عملاقة تتوزعها قبائل بدائية قليلة الكثافة هنا وهناك.

ورث العقل الغربي من الرومان الهوس بالعظمة والضخامة والجبروت.

لم تكن للرومان أفكار عظيمة ، ولكن لهم عمران عظيم في بناء المدن والشوارع والطرق والقصور والجيوش الجرارة. وكان العمران العظيم والملكية الكبيرة سبب التفاوت الطبقي بين حاشية النبلاء وأمراء والفرسان ، والأغلبية الساحقة من محدودي الملكية والدخل والعبيد والخدم.

وفي القرنين الخامس عشر والسادس كانت كل الأراضي في أوربا مملوكة ملكية إقطاعية رأسمالية كبيرة للملك والنبلاء والكنيسة. فكان المهاجرون والقراصنة الأوربيون في دأب للبحث عن أراضي كبيرة يستحوذون عليها خارج أوربا ، في أفريقيا ثم أميركا المكتشفة حديثًا.

في الأراضي الجديدة ، يبدأ التنافس لبناء القصور والقلاع وإنشاء مزارع ومصانع كبيرة. ومن هنا يبدأ الحلم الإمبراطوري بالتحقق من فكرة العظمة ، عظمة الملكية ومساحة الأرض وحجم القلعة والقصر وعدد العبيد والخدم ، ومن هنا يبدأ طريق الثروة والسلطة.

كانت البداية ببناء مزارع كبيرة ، دعيت في الاقتصاد بالمزارع الرأسمالية ، الحقت بها حركة بناء مصانع رأسمالية كبيرة ، تزيد منتجاتها عن السوق المحلية وتصدرها للخارج ، وعلى الجانب الاخر ، كان الأوربيون في سباق لبناء أكبر سفينة ، ولاسيما في إنجلترا.

سباق العظمة هو الشغل الشاغل لعقول الطموحين والباحثين عن المال والشهرة والنفوذ.

في القرن الثامن عشر كانت أوربا تستنفذ قدراتها الجغرافية والمادية ، وقد وضعتها مضاعفات الثورة الصناعية على طريق أزمات حقيقية عصية على الحل ، من غير تقديم تنازلات على حساب أحلامها. وقد جاءت أفكار كارل ماركس الاجتماعية الإصلاحية لتضع النار في الهشيم.

فالهروب الجماعي إلى الأرض الجديدة ، كما وصفها الإنجيليون ، كان بمثابة الخروج من سيناء إلى أرض كنعان الجديدة. وقد منحوا أسماء المدن والمعلمات الكنعانية لمستوطناتهم الجديدة وراء الأطلسي. فالحملة أو الهجرة للأرض الأمريكية تجسدت في الاقتصاد والعمران والدين ، والثلاثة تجتمع تحت عنوان المال والنفوذ.

السؤال التالي يتعلق بالجغرافيا أيضًا.

وهو نفس التحدي الذي واجه الأوربيين من قبل. عجز المهاجرون الجدد في تخطي حدود المكسيك والزحف جنوبا. ومن هنا بدأت الإمبراطورية الأمريكية ، بعد أن تجاوز حلمها الإنتاجي الاقتصادي طاقة الأسواق الأمريكية ، وتعبت من اتفاقيات تنظيم التجارة مع أوربا (الجات) ، لتنطلق نحو آسيا وأفريقيا.

وهنا كان على السياسة أن تتولى فتح طرق التجارة ، وكان على الجيش أن يلوح بالعصا ، ورجال الدين أن يلينوا قلوب السكان ، وكان لابد من أزمات وحروب ، تكسر الصخر وتلين العناد وتجعل الحاجة للمخلص والمعونة الأمريكية أمرًا واقعًا.

ليس الجيش والدين وحدهما ، فحسب ، ولكن ثمة الإعلام... الأهم استراتيجيًا.

لماذا لم يخطر للإيطاليين والفرنسيين والروس بناء مدينة إنتاج سينمائي ؟ ولماذا ولدت هوليوود في كاليفورنيا وليس في نيس أو ميلانو... هي أيضًا نتاج فكرة

العظمة والمبالغة في البناء والإنتاج والحيازة. حتى تصميم السيارات الأمريكية يميل للضخامة والسعة ومظاهر الترف والعظمة. نفس فكرة [mass, mega] المتمكنة من العقلية الرأسمالية الغربية.

فكرة العظمة والملكية لابد أن تنعكس اجتماعيًا في مظاهر السلوك والكلام والخطاب الثقافي كما هي مشخصة في لفظة المتكبر / المتبختر [arrogant]. فالشخصية الأمريكية تختلف عن سواها ، في طريقة المشي ، اللفتة ، التلفظ ، النظرة للعالم والناس.

إنه السوبر مان أو الوطواط أو رامبو ، ترنتي ، الكابوي ، البك براذر القوي المتفوق الموهوب والذي لا يُقهر أبدًا. والآن على السينما ووسائل الإعلام ترجمة هذه الصورة وتسويقها وترويجها عن أمريكا والإنسان الأمريكي.

لكن النقلة الأكبر في الخطاب الإعلامي السينمائي اقترنت باسم رونالد ريغان صاحب برنامج حرب النجوم في الثمانينيات.

انتهت أفلام الكاوبوي ورامبو ، البطل المخلص والخير المنتصر في النهاية حسب الدراما الأرسطية. وبدأت مرحلة جديدة قوامها سفر الرؤيا الإنجيلي عن الخراب والحروب والأزمات التي تملأ نهاية العالم وتستعجل ظهور المخلِّص بطل السلام والحب الذي يهزم الشرير.

ولم يكن بوش الصغير كاذبا عندما صنف البلدان بحسب رؤيا هوليود الإنجيلية إلى محور الشر ومحور الخير ، معتبرًا أن كل من لا يؤيد الولايات المتحدة يكون من محور الشر.

ما يجري في العالم اليوم هو هرمجدون. ولابد من تخطيط أرضية الصراع والحرب بين قوى الشمال والشرق بحسب سفر الرؤيا.

كثير من أفلاك الكارتون وألعاب الأطفال والناشئة الإلكترونية وغير الإلكترونية المنتشرة في وسائل الإعلام والأسواق العالمية تتبنى قصص التوراة والإنجيل

بتأويلها السياسي الجديد ، والتي سبق أن وصف المهاجرون الأوائل الأرض الأمريكية بأرض الموعد التي منها يخرج مخلص العالم.

وليست ألعاب وأفلام الأطفال فحسب ، عامة الإنتاج السينمائي في هوليود خاضع للرؤية الإمبراطورية الدينية التي حاول تجسيدها قسطنطين الأول تحت شعار : [إله واحد ، مسيح واحد ، إمبراطور واحد].

السؤال هو لماذا ينبغي أن يقترن الخطاب الإعلامي الإلكتروني الجديد بأدوات الدمار الشامل والإبادة الشاملة ، ويلقن الأطفال لغة العنف ومفردات الإبادة الباردة – أي بدم بارد - [shootimg, killimg, destroying, fire, dead] التي تقتل فيهم البراءة والطفولة وتملأهم بصور الموت والروبوت القاتل ، فلا يكون في عالمهم شيء غير الموت وأمريكا.

لماذا لا يُترك الأطفال خارج ميدان السياسة الدولية والمحلية سواء ، لم لا يترك لهم ألعابهم البسيطة وأفكارهم المحلية البريئة بعيدًا عن القصص الدينية الأخروية وصراعات النفوذ والمصالح ؟...

بينما ندَّد الإعلام الغربي منظمات حقوق الإنسان بتعليم الأطفال على السلاح أو استخدامهم في الحروب في بعض البلدان ، لا أحد يجرؤ على تشخيص ووقف الغزو الأمريكي الإلكتروني لأذهان الأطفال وبرامجهم الاجبارية في بلدان العالم المختلفة [•].

وبدلاً من توم وجيري وبباي يحفظ ألأطفال قصص شمشون الأمريكي وفظاظته التي لا تناسب الصغار ولا الكبار.

ومن وقت لآخر ، يصرح أحد الخبراء أن الألعاب الإلكترونية زادت من ميول الأطفال نحو العنف ، بلا مجيب.

• عرضت وسائل الإعلام فيلمًا عن عائلة أمريكية تقيم في واشنطن ، يفتخر الأب فيها بتعليم أطفاله الأربعة على استخدام السلاح ، ويحتفظ في بيته بخمسة عشرة قطعة سلاح مختلفة. وهو من مؤيدي حمل بوش الصغير في حمل الأطفال لأسلحة شخصية. ويبدو أن الفيلم كله دعاية إعلامية للحملة الآنفة.

وهناك موجة عنف متزايد تجتاح المدارس الأمريكية والبريطانية ، ناهيك عن الـشوارع والحياة العامـة في أوربـا ، دون أي إجـراء سـياسي تربـوي إعلامـي للحـدِّ مـن الـسموم الإلكترونية المفروضة على وسال الإعلام.

ولنعد جميعًا إلى قول المفكر برترانـد رسـل : إن لم يـضع البـشر نهايـة للعـدوان ، فـإن العدوان سيضع نهاية للبشر !.

هل من مسيح جديد

لا شيء يتكون من ذاته ، وبغير قوة خارجية.

من هذا المبدأ ظهرت فكرة الألوهية ، المحرِّك الذي لا محرِّك له ، وبالتعبير القرآني البليغ : (لم يلد ولم يولد) !.

كل شيء ، كل شخص يوجد / يولد رغمًا عنه.

كل شيء / شخص ، يوجد / يولد وقدره معه.

والإنسان يولد بلا إرادته ، ويبقى مسلوب الرأي والقرار حتى يبلغ أشده أو يكاد، وعندها يكون قد رضع واقعه وتأقلم وتكيف واكتسب هوية محيطه وحاضنته. ومن واقع مكوناته البيئية يصدر في شعوره وفكره وانفعاله وسلوكه. وفي كل ذلك هو يطبع ويقلد بيئته وسماتها وثقافتها.

هل الإنسان حُرٌّ أم محكومٌ بقدر [•] ؟... هذا أعوص الأسئلة ، بل أعوص من الوجود نفسه... إنه سؤال مخيف ، مرعب ، لأن جوابه معروف مسبقًا. بل أنه من البديهة بمكان أنه لا يستوجب السؤال. السؤال متاهة ، كارثة ، فضيحة ، انتحار. السؤال هو الجواب.

كلهم وقفوا عنده ، وما من مخلوق لا يتوقف عنده ولو للحظة ، سيما عندما تشتد عليه الضائقة... ربي لِمَ خلقتني ؟!... لماذا ولدتِني يا أمي ، ولماذا صنعتني يا أبي ؟... هذا هو السؤال المستحيل. ولأنه مستحيل ، لا يجيب عليه المعني به. لا الأب ، ولا الأم... إنه سؤال مفعم برائحة الادانة والاستنكار... وفحواه بالأحرى : ما أنا إلا دودة ، لا إنسان ! ، قاله أيوب وداود ويسوع الناصري.

وأصل العبارة : ما أنا إلا دمية تلهو بها أصابعك !...

• كتاب (مخيَّر أم مسيَّر).

وهذا هو سر الأمومة غير المقدسة ، هذه هي لعبة الوجود.

منذ أعوامها الأولى تحب الأُنثى أن تمسك دمية في حضنها وتقول لها : طفلي!

عندما كنت صغيرًا ، وعائلتي تقيم في منطقة محدودة السكان ، كنت ألهو مع بنت الجيران ، كنتُ أكبر الفتاة بعام أو عامين ، ولكن اللعب يكون في بيتهم. كانت لعبتي المفضلة هي العجلات ، أو اقتناص الحشرات في البرية ، وكانت لعبتها المفضلة هي الدُمى ، ولديها كثير منها في صورة الحيوانات والدببة... ولكننا عندما التقينا لنلعب سوية ، كانت لعبتها : بيت بيت ، كما نسميها. جمعنا كل أحذية العائلة وصففنا منها حيطان بيت وقسمناه إلى حجرات ، وله باب وسيارة. وفي ذلك البيت تعيش الأم وزوجها وأطفالها. وكانت هي وأنا تينك الزوجان ، وأطفالنا بعض الدُمى التي اختارتها بنفسها ، وكان عليَّ أن أقوم بواجب التبضع وشراء الطعام وأخذ العالة للنزهة.

تلك الدراما الطفولية كانت من تأليفها هي.

وأذكر أنني كنت مُكلفًا بأداء الدور لاستمرار اللعب معها / وهو مبرر وجودي الوحيد في بيت الجيران ، وبغيره سوف أغادر المنزل وأسعى في البرية لوحدي اصطاد الحشرات وأجمع بعض الأعواد اليابسة لمحاربة الهواء واعتلاء أحدها مثل حصان دونكيشوت.

لم تكن تلك لعبة ، ولا دراما أو تسلية ، كانت هي صورة الواقع ، الواقع الذي هو في حقيقته مجرد لعبة أو دراما أو مسرحية ، ولكنه تسلية مرة.

من هنا وصف البعض الحياة بأنها مسرح كبير ، والناس ، كل الناس ممثلون ، مجرد ممثلين ، حتى ولو لم يشعروا أو استنكروا ذلك. وكلنا ، رجالاً ونساء ، نمثل داخل عوائلنا ، بشكل أو آخر. والممثل الناجح هو الزوج الناجح.

والمسرحية الناجحة إلى درجة الإقناع ، هي العائلة الناجحة. ياما قرارات نتخذها بالضرورة وليس بالقناعة. وياما أدوار نؤديها اضطرارًا أو مسايسة

لحركة منطق الأحداث / الظروف ، وليس بمحك الاقتناع أو الإرادة.

لهذا أيضًا جرى اختراع صورة العائلة ومنظومة التقاليد ، مثل سيناريوهات متوارثة ، محفورة في ضمائر الناس رغمًا عنهم ، يؤدونها ويعيشون بحسبها لإنتاج مسرحية أو فيلم ناجح وبامتياز ، وكل خروج على النص محكوم بمقص الرقابة أو الفشل !.

المشكلة ، أن البعض يتماهى في الدور ، لدرجة يعتقد أنه كاتب النص ، وعندها يعجز نظيره والمجتمع / الجمهور والكومبارس ، عن مجاراته والخروج عن أدوارهم التقليدية.

دراما العائلة ، مثلها في أي مقطع آخر من حياة الأرض ، في المدرسة أو المقهى أو الحكم أو الدين ، مجرد أدوار تقليدية مرسومة مسبقا ، وعلى الفرد ، المجتمع الشاطر إتقان دوره للأخير. لذلك نجحت بعض المجتمعات المتمسكة بتقاليدها كالهنود والمصريين ، في اكتساب قدر أكبر من الاستقرار ، رغم مشاكلهم الاقتصادية العويصة ؛ بينما تعاني مجتمعات من اضطرابات مستمرة بسب ضعف قناعاتها أو انعدام التقاليد المشتركة الراسخة لديها ، وميلها للتمرد وتحدي القدر. وكلما تمرد أحد على النص وحاول تعديله أو إنتاج نص جديد ، وقع في حفرة أعمق من السابقة ، وكما يقول "علي الشرقي" : غلط يصحح في غلط !.

فكرة الخروج على النص ، واستحلال دور المؤلف ، كانت مصدر إغراء الفرنسي جان جاك روسو التي أوحت له بفكرة الفرد الحر ، ومبدأ إرادة الفرد وحرية الاختيار. ولكنه عند المناقشة ومحاولة تطبيق المبدأ في الواقع ، وجدها تهدد المجتمع بإشاعة الفوضى والأناركية ، فالبشر مختلفون في خصائصهم النفسية والاجتماعية ومستوياتهم العقلية والثقافية المتحكمة جميعًا في منظومة اتخاذ الفرد لقراراته.

لقد اعتقد روسو في لحظة طوباوية أن البشر أو المجتمع على درجة واحدة راقية من الوعي والإدراك والإرادة ، مثل آدم في الفردوس ؛ عندها استدرك وربط الحرية بالالتزام واحترام حدود الآخر ، ورأى أن الدولة ضرورة لتحديد الالتزامات / الواجبات ، والحقوق / الحريات الفردية.

قبل روسو بكثير ، وقف الكاتب التوراتي في الفصول الثلاثة الأولى من قصة الخليقة ، أمام إشكالية رسم بورتريه آدم الأول ، هل هو مجرد روبوت لحمي يحركه صانعه عن بعد ، أم هو حر يصدر عن وعي ذاته.

وللتخلص من فكرة الروبوت / الدمية ، جعل الإنسان يتمرد على النص ويرتكب المحظور... ولكن كيف يخطر لصنيعة الرب الحسنة والكاملة أن يتمرد ، وأين هو الرب في لحظة التمرد. هنا يجتهد الكاتب ، ويدخل عنصرين جديدين في النص ، الأفعى : محرك الغواية ، وحواء الناقصة الخلق : مطية الغواية.

ترى ما هو موقف الكاتب الفيلسوف العبراني في هذا النص ، هل يعتقد أن الإنسان حر ، أم محكوم ؟ !...

إن تمرد حواء وزوجها على النص ، ترتب عليه عقوبة قاسية وحكم تاريخي ، هو الطرد من الفردوس وتاريخ من معاناة ومقاساة في كل شيء. فالخروج على النص / القدر الأصلي هو خطية !. وهذا هو أساس الفكر الديني. البقاء داخل النص ، الطاعة الكاملة ، عدم السؤال واجتناب المناقشة والشك !.

فكرة الخطيئة نتيجة منطقية للخروج على النص / التمرد أو العصيان. والخطية تنتج الإثم ، والإثم ينتج الألم والموت. وهذه هي قصة حياة المخلوقات الأرضية: أخطاء ، تمرد ، معاناة ، مشاكل ، آلام ، موت وكوارث ومجازر.

عزاء الإنسان الوحيد أن عقله محدود ، وشعوره مقيد ، ومعرفته قاصرة ، ويستطيع إغلاق مداركه واعتزال شبكات الأخبار ، ويتجاهل الأحداث ، أو يبالغ في الأنانية وحب الذات ولا يكترث لغير نفسه ، ولكن حتى في حال الأنانية ،

سوف يكون له الألم والموت بالمرصاد !. ولا منجى أو خلاص ، الفأر داخل صندوق ، والمصيدة فاتحة فاها.

منذ القدم... اكتشف البشر وسائل وأساليب مختلفة للهروب من الحقيقة والألم ، عبر تعطيل الشعور أو دفن الضمير ، وهي مجرد أوهام ومخدرات يحتال بها البعض على وجودهم الأصلي. هذا المخدر أو الوهم لا يمكنه أن يلغي الرقيب الوجودي عندما ينام المرء ، وتنفتح عليه بوابة الأحلام والكوابيس والضمير المقموع.

ان الدين نفسه ، في حالات عديدة ، هو جزء من المخدر عندما يوهم الفرد بالبراءة أو التقوى ونوال الغفران ، رغم أنه يعيش في مستنقع من الخطأ والجريمة. والمقصود هنا ، تسويغ الجهل وإغلاق المدارك عن مصادر المعرفة والأخبار.

الدين ، هو أول منظومة ، أقرَّت بواقع خطية حياة البشر ، ووضعت لها علاجًا تخديريًا عبر منظومة (تطهير) من طقوس ومراسيم تعمل ، تمثل طريقًا للحصول على الغفران وغسيل الوسخ المستمر. والمستفيد الأول من هذا الوهم هو الإقطاع الكليروسي الذي يبيع صكوك الغفران وفتاوى الطهارة وشرائط الأدعية والتعاويذ والطلاسم بمبالغ نقدية وطقوس عبودية وتبعية مهينة.

لا عذر لك أيها الإنسان !... - (أشعياء بن آموص)

سفر أيوب ، هو أقدم نص ديني معترف به من جميع الديانات ، وهو نص كامل عن الكمال والألم والحاجة للخلاص ، غني بالأفكار والتأملات. في أحد سطوره يصرخ أيوب الصابر : أما من وسيط يضع يده علينا نحن الاثنين !. (•) تمنى أيوب لو أنه لم يولد ، أو أنه مات ساعة ولادته وغير ذلك من أفكار وتساؤلات مستحيلة. أما وأنه قد ولد ، فهو يحتاج إلى وسيط / وكيل بجمع المتهم بالمدعي

• سفر أيوب - في كتاب التناخ العبراني.

في دار القضاء. فكرة الوسيط والوكيل هي ملخص فكرة المسيح اللاحقة: المخلص !.

مثل أي ابن أنثى ، وُلِد المسيح وقدره معه. ومنذ صغره عمل أن يكون بارًّا ولا يقرب الإثم ولا يقف في طريق الشر. وفي زمنه ، كاد أن يكون الوحيد الذي بلا خطية ، ولا غش في فمه. أمر لم يتسن لسواه !.

وهو ما اكتشفه الخُطاة ، الغارقون في الإثم والزيغ والجور ، الباحثون والمحتاجون إلى تطهير وغسيل وسخ. هؤلاء الخُطاة ، يدركون أنهم في ضلال، وأنهم هالكون في غيهم ، لكنهم اكتشفوا في لحظة ، أن يموت واحد عن الجميع ، خير من أن يموت الجميع بلا طائل (•).

من هنا اجتمع عليه الخُطاة ، وضعوا عليه رداءً أحمر ، وتاجًا من الشوك على رأسه ، وأصعدوه على حمار ، وهللوا له وصفقوا وهو يقودونه إلى الجلجاثة... هناك حيث جردوه من ثيابه وجلدوه وعلقوه على خشبة : وكتبوا فوق رأسه ، هذا هو المسيح ؛ حامل الخطايا عن البشر. وحده كان حامل خطايا الخطائين ، وكفارة ذنوبهم ، الميت من أجلهم ، من أجل أن يعيشوا هم ويحصلوا على حياة جديدة ويعيدوا كَرَّة الحياة والخطأ من جديد.

قبل مسيح الناصرة بألفي عام ، أي بعد ألفي عام من الطوفان ، ظهر سرجون الأكدي ، محمولاً بولادة معجزية وقدر خارق ، ليهزم الشرّ والخُطاة ، ويبني مملكته العالمية العادلة ، جامعًا الشرق والغرب والشمال والجنوب تحت سلطته ، جاعلاً من أكد المقدسة عاصمة مُلكه وعدله. كانت مملكة أكد أسطورة العالم القديم ، حلم وحدة البشر والثقافة واللغة... ومن رحم أكد ظهرت بابل العظيمة التي سوف يستمر صيتها على مدى ألفي عام...

• أن يموت إنسانٌ واحدٌ فداءً عن الأمة ، خيرٌ من هلاك الأمة كلها - قالها قيافا رئيس المجمع اليهودي قاصدًا يسوع.

حيث تتعاظم الحاجة إلى مسيح جديـد ، يغـسل خطايـا الأرض ويبنـي مملكـة العـدل العالمية من جديد...

واليوم ، عقب ألفي عام على مسيح الجليل ، يتمخض العالم مـن الألم ووجـع الخطايـا ، مستعجلاً ظهور مسيح جديد ، أو طوفان جديد يغسل الأرض ويمـسح تـاريخ المـاضي ، ليعيد الزمن / البشر دورتهم / كرتهم من جديد !...

لم يبن مسيح الجليل مملكة أرضية... ولكن بعد ثلاثة قرون منه بنى قسطنطين العظيم إمبراطوريـة بيزنطـة وجعـل عاصـمتها القـسطنطينية / اسـتانبول القريبـة مـن شرق المتوسط ، ويجعل المسيحية ديانة عالمية.

حلم إمبراطوريـة العـدل العـالمي الموحـد توارثـت مـن سرجـون الأكـدي إلى الإسـكندر المقدوني ، إلى قسطنطين وثيودوسيوس ، إلى بـوش الـصغير تلميـذ بيـل غراهـام خليفـة الكوكيز.

فهل كانت ولاية بوش الابن في رأس الألفية الثالثة ، حلم بناء إمبراطورية عالمية مركزها واشنطن ، هي كرة الحلم العالمي الإمبراطوري الجديدة...

لماذا تبنَّى خطاب البيت الأبيض فكرة الخير والشر ، كما لو كان مـسيحًا جديـدًا يتوعـد بغسل الأرض من الشرور ونشر الخير أو العدل الأمريكي.

يتفق معظم المؤرخين المعاصرين عـلى اسـتعادة بـوش الابـن الخطـاب الـديني وفكـرة مجيء المسيح الثاني في الخطاب السياسي الدولي وانعكاسـاته عـلى الـسياسات العالميـة والإقليمية ، سيما في الشرق الأوسط ، الموطن الأصلي لفكرة المـسيح والخـلاص والـولادة الجديدة.

لقد كان بوش مدفوعًا بقدره الشخصي ، وهو يدفع العالم إلى حافة الكارثة.

بل أن اختياره العـراق ، مـوطن بابـل العظيمـة / الزانيـة بحـسب تأويـل سـفر الرؤيـا الإنجيلي تأكيد لوهم الخلاص العالمي على يده.

وما يزال العالم يتمخض بالشر ، مدفوعًا من جوانبه وأعضائه ، لتركيـزه في نقطـة التـوتر التوراتية [بابل- كنعان- آشـور] التـي يعـد بـاراك أوبامـا أن تـستغرق سـنوات طويلـة [لقضاء على داعش] ، وأن القضاء عليها لن يكون سهلاً ، ويقتضي تحالفًا دوليًا وإقليميًا كبيرًا ، إنما هو ترجمة لوعود المعركة العظيمة في سـفر الرؤيـا ، كـما تـسعى المـسيحية الصهيونية لتسجيلها على الأرض ، تمهيدًا للمجيء الثـاني وبنـاء مملكـة العـدل العـالمي الجديدة وعاصمتها أورشليم الجديدة.

اتحاد أُمم آسيا

في عام 1492م تأكد كولمبوس أن الهند الجديدة إلى الغرب من شبه جزيرة إيبريا هـي أرض جديدة لم تُعرف سابقًا ، وعلى الفور قامت الملكة إيزابيل بإرسال حملة عـسكرية صليبية لاحتلال أميركا الجنوبية ونشر الكاثوليكية فيها ، ممهـدة بـذلك لبـدء حمـلات الغزو الغربي لبلاد العالم غـير المأهولـة أو المتحـضرة في الجـزر البحريـة المنتـشرة حـول العالم ثم أواسط آسيا وأفريقيا.

وكانت لتلك الحملات أهداف ثلاثة مُركبَّة : السيطرة على مصادر المواد الأوليـة اللازمـة لتسيير الملاحـة ودفـع عجلـة الثـورة الـصناعية ، نـشر المـسيحية ، نقـل ثمـار الحـضارة والتمدن خارج أوربا.

في ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين كانت معظم مجتمعات آسيا وأفريقيا خاضعة للسيطرة الغربيـة. وفـيما بعـد الحـربين العـالميتين الأولى والثانيـة انـسحبت الـسيطرة الغربية المباشرة تاركة حكومات محلية تدير شؤون بلادهـا ، وتتعامـل مـع الحكومـات الغربية عبر اتفاقيات ومواثيق تدعم مصالح الطرفين.

عمـوم المـستعمرات القديمـة الحاصـلة عـلى اسـتقلالها ، لم تخـرج مـن فلـك التبعيـة السياسية والاقتصادية والعسكرية التي كانت تتحكم بها قبل الاستقلال. وكـل مـا تغـير هو الانتقال من التبعية المباشرة للتبعية غير المبـاشرة. مـما جعـل العـالم – الثالـث / المستعمرات القديمة - ينقسم بين كتلتين كبيرتـين ، بريطانيـة أو فرنـسية ، في الـسياسة والتجارة والتسليح والتبعية الثقافية.

ومع انتقال ميزان القوى الدولية في الخمسينيات إلى الاتحـاد الـسوفيتي والولايـات المتحدة الأميركيـة ، بـدأت بعـض الحكومـات بالانفتـاح عـلى أحـدهما ، مـما أعـاد تقـسيم المجتمـع العـالمي في ظـل الحـرب البـاردة مـا بـين معـسكرين [اشـتراكي ، رأسمالي] ، وقد زاد هذا من الفوارق والخلافـات الـسياسية والاقتـصادية والثقافيـة

بين أتباع كل خندق.

الخلاصة من هذا العرض ، هو غياب مفهوم الاستقلال التام والناجز نظريًا أو ميدانيًا. والدول التي اهتمت به في وقت متأخر ، لزمها استكمال مستحقات التحرر والاستقلال الاقتصادي ، مما أدخلها في خلاف وأزمات مع المصالح الاقتصادية الغربية الحريصة على تأمين حصولها على مصادر الطاقة بأقل التكاليف. هذا الخلاف بين البلدان الساعية للاستقلال التام وبين الغرب استشرى أُفقيًا للبلدان الموالية للمعسكر الرأسمالي في المحيط الإقليمي المباشر وانعكاساته السياسية والاجتماعية والثقافية ولاسيما بين البلدان العربية والإسلامية ، التي جعلت ولاءها الرأسمالي سياسيًا واقتصاديًا فوق انتمائها القومي والديني ، ووجدت خروجها على المحيط الإقليمي القاري ، أكثر ضمانًا لها من التقارب الإقليمي القاري ، أو السعي للتحقيق الموازنة بينهما على أقل تقدير.

وفي المجال العربي والإسلامي ، على أهميته ومركزيته في المحيط الأسيوي تحديدًا ، لم تكن مسميات الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامي غير حبر على ورق ، أو أداة رخيصة بيد الرأسمالية الغربية المؤسسة والساندة لها.

والمعنى المباشر لهذا الغياب المؤسساتي والبلداني ، يعني تعطيل الشعور القومي والديني عن الفاعلية السياسية. في وقت لم تنفصل السياسة الغربية عن هويتها الغربية والمسيحية في كل مستويات أدائها المحلية والدولية ، وإن كانت متسقة في خطاب علماني حضاري منفتح.

في عام 1956م اجتمع ممثلو العراق وتركيا وإيران وتم توقيع ما عُرِف بميثاق حلف بغداد ، وهو أول تحالف إقليمي إسلامي بين ثلاثة دول إقليمية كبرى. وكان يمكن لهذا التحالف أو الميثاق أن يكون نواة تحالف دولي إقليمي آسيوي ، يتبنى خطابًا إقليميًا موحدًا وينتج قوة اقتصادية سياسية ثقافية منسجمة ، يكون لها دور مؤثر في حفظ التوازن الإقليمي والاستقرار الدولي في المنطقة ، ويجنبها التأثيرات المباشرة للسياسات والصراعات الدولية.

فمن منطلق عقلية الأبيض والأسود ، عملت الدعاية المضادة على اعتبار حلف بغـداد ، ردًا على مؤتمر عدم الانحياز قبل عام منه في إندونيسيا. ومن جهة أخـرى كـان للـصراع الإقليمي العربي حول زعامة المنطقة دوره السلبي المباشر في إفشال كل خطـوة ممكنـة للأمام ، كما هو دائمًا ، في الماضي البعيد والقريب والراهن المعاصر.

تم استخدام باندونغ لتدعيم شعبية عبد الناصر وزعامة مصر إقليميًا. بينما دعم حلف بغداد مركزية العراق الإقليمية ، وانتهى التنافس السلبي العقيم – بين مصر والعراق - إلى انهيار المحاولتين ، وانزلاق الواقع العربي نحو الأسوأ.

فعلى الرغم من تحسن الظروف الدولية عقب الخمسينيات وتطور الإمكانات العربيـة الاقتصادية والعلمية ، وبدلاً من انعكاسها إيجابيًا عـلى الحيـاة والإنـسان العـربي ، بـدأ تاريخ جديد من التطاحن العربي العربي والسياسات التدميرية للحكومات العربية ضـد بعضها ، وتغذية الأزمات والصراعات المحلية عند الجيران. فكان الهدر البشري والمـادي العربي يستهلك الإمكانات المادية والعلمية بدلاً من الاستفادة منها في تطـوير معـدلات الحياة العربية والاتقاء بالواقع العمراني والحضاري للبيئة والبشر.

وبدءًا من الانعكاسات الدموية لمـشروع عبـد النـاصر الوحـدوي عـلى كـل مـن سـوريا والعراق والسودان واليمن ، إلى مجازر أيلول في الأردن إلى الحرب الأهلية في لبنـان ثـم العراق ، لم تتوقف عجلة الـدم والهـدر القـومي والإسـلامي حتـى اليـوم ، ولـن تنتهـي بسهولة ولا عاجلا كما نوه عنها باراك أوباما.

واليوم بعد انكسار أو انهيار بلدان الـشمال العـربي [العـراق ، سـوريا ، لبنـان ، مـصر ، ليبيا] وخروجها من دائرة الفعل إلى المفعول والتابع ، انتقل الصراع على زعامة المنطقة للاعبين انتظروا الفرصة طويلاً [إيران ، تركيا ، السعودية] مؤشرين مرحلة جديـدة مـن الهدر والقهر العربي والإسلامي. ولن تنتهي المرحلة الجديـدة دون ظهـور لاعبـين جـدد ومرحلة أخرى من الهدر والقهر.

إن الحل الوحيد ، والطريق السليم للخروج من دائرة التخلف ، وتجاوز صراعات الزعامة العقيمة ، في ظل ظروف بائسة ومخزية ، فلابد لعقلية تجديدية غير تقليدية التفكير والسلوك والإدارة والتخطيط تتولى تحسين مقومات الحياة والمعيشة داخل بلدانها أولاً. ولأجل هذا لا بد من وجود خطاب إقليمي ودولي عام ، يتجاوز العرب والمسلمين لكل البلدان المتخلفة في آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية ، وبحيث تدعم برامجها الواحدة الأخرى ، والكف عن استجداء أسباب الأزمات السياسية والمسلحة ، والتسابق لشراء الأسلحة لإفناء مواطنيهم.

وكما اجتمعت الشعوب الأفريقية في إنشاء منظمة الاتحاد الأفريقي حققت نجاحًا نسبيًا في تحقيق التنمية الداخلية والاستقرار داخل أفريقيا ، بالاعتماد على إمكاناتها القارية. فإن الوقت قد وشك ، لتفكر بلدان آسيا للاجتماع والتشاور والاتفاق على تأسيس منظمة دولية آسيوية تكون سقفًا أمميًا يجمع وينسق خطابًا سياسيًا وموقفًا آسيويًا مشتركًا على صعد الأمن والدفاع والتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، لتدعيم أواصر التعاون والعمل المشترك في تحقيق التنمية وحل الخلافات سلميًا وبأقل قدر من الخسائر ، على أُسس الإخاء والتفاهم والتعاون الإيجابي.

إن نجاح هذا الاتحاد الأسيوي في تحقيق أهدافه وتطوير برامجه ، سوف يحسِّن مستويات الحياة السيوية ويبعث أملاً جديدًا لأبناء آسيا للاهتمام ببناء وتطوير بيئاتهم المحلية وفتح نوافذ جديدة نحو المستقبل ، بدل أحلام الهجرة واللجوء والعمالة المهينة.

ولعبور عتبة الطريق الجديد ، يلزم الفرد النظر للحياة بعيون جديدة وعقلية جديدة ، والتنزه عن أسباب الخلافات الأثينية والبلدانية والدينية ، وغلق كل ما من شأنه تأجيج العنف والكراهية واستسهال سبل الموت والهدر.

رسالة الحياة هي البناء... وعلى الفرد أن يثبت جدارته !.

القسم السابع

لماذا نعيش في عالم سيئ ؟

لماذا نعيش في عالم سيء ؟...

هل نحن نعيش في عالم سيء ؟...

ماذا يعني (عالم سيء) ؟...

ما هو مفهوم السوء أو الرداءة ؟...

ما هو العالم وما هي حدوده ؟...

قد لا تخطر هذه الأسئلة بصيغتها المباشرة على الذهن ، ولكن كل فرد يعيشها كُلاً أو جزءًا ، في لحظة من لحظات يومه أو أسبوعه أو شهره.

قد يختلف البعض في تحديد مفهوم العالم حسب المدارس الفكرية والعقائدية أو حسب المقاييس الجغرافية والاتصالية ولكن ذلك لن ينفي حقيقة وجود الرداءة. وسوف تخضع هذه الأخيرة لنفس معايير الخلاف السالفة في تأويل وتحديد العالم وتبقى النتيجة واحدة: أن العالم رديء.

إذن لماذا علينا أن نعيش في عالم رديء ؟!...

•

التطور هو التمايز الرئيس بين توصيف الكائن البشري والكائن غير البشري. وهذا يتيح له أمرين : أحدهما التغير المستمر في أنماط الحياة والمعيشة والفكر. وثانيهما التحسين المستمر في أنماط الحياة والمعيشة والفكر.

بينما تدرج الكائنات غير البشرية على سُنَّة ثابتة ونمط واحد لا تغير فيه ، وهو ما ينطبق على الكائنات البدائية التي تولد وتقتات وتموت بنفس الطريقة (الفطرة) ، أو الإجرام والكائنات فوق الأرضية الدارجة في مدارات ولوالب مرسومة.

وقد بدأت حياة الإنسان على الأرض من الصفر. من الطبيعة والغابة والكهوف والصيد إلى الرعي والزراعة والسكن والاستقرار وصناعة الاحتياجات اليدوية للمعيشة. وكان للعقل والفكر والحاجة والضمير دور كبير في تحقيق مسيرة التطور الممثلة في نشأة المدنيات الأولى وظهور الأفكار والعلوم والأديان والفلسفات. ويحدِّد المؤرخون ثلاثة فوارز رئيسة في درج التطور البشري ، الفلسفة الإغريقية ، منجزات عصر النهضة في أوربا ، والمكتشفات العلمية في القرن العشرين.

إن مفهوم التطور بهذا الاتجاه ليس سوى خلاصة عمليات متداخلة ومعقدة ، تشارك فيها قوى متفاوتة من الشدّ والجذب والتنافر والتشابه ، وليس من الصحيح النظر إليها كحالة منسجمة متناسقة ذات مدرج طبيعي تنتهي إلى نتائج بديهية.

لقد قوبل كثير من محاولات التطور والتغيير بوحشية وضراوة واستغرق فترات تاريخية طويلة حتى يتحول إلى حقيقة حياتية.

من المؤسف... أنه لحدّ الآن ، تقترن كثيرٌ من محاولات التغير والتطور وتغيير مراسم وأنماط الحياة بالعنف والدم والوحشية ، ما يقدم شهادة على الجذور الأصلية المكتنفة للكائن البشري التي لا يستطيع أو لا يريد الفكاك منها.

والحقيقة ، رغم يأس الفلاسفة والأخلاقيين من ذلك ؛ فأنه ، ما لم يصل الإنسان إلى درجة من التمدن والتحضر والارتقاء يتحرر فيها من خصائص الحياة البدائية والهمجية والانفعال ، لا يمكن النظر للتطور كقيمة حقيقية حققت نقلة إنسانية في الحياة على الأرض.

ومن الطريف ، أنه بينما تجري محاولات حثيثة ، قطعت أشواطًا بعيدة ، لتعليم بعض الحيوانات أنماط متحضرة للحياة أو (الأنسنة) ، بعبارة أدق ، ومحاولات أخرى لتصنيع (إنسان آلي) يحمل مواصفات مثالية ، فإن مساحات كبيرة من

الكرة الأرضية – ما زالت - تشهد صراعات همجية لا طائل من ورائها غير تفريغ نزعة العنف والشرّ الطاغية عليها ، بينما تتدهور مستويات الحياة وتتقدم معدلات الجريمة والعدوان لتنقضّ على المدنيات العصرية وتعيدها للقرون البدائية والهمجية في بِقاع أخرى.

•

يتحمل القرن العشرون وزر التردي الحضاري والإنساني الذي نعيشه اليوم في نقطة تحول الألفية. فكما كان ذروة في المنجزات العلمية والنقلة الحضارية والمدنية في كثير من أصقاع الأرض ، كان في نظر تيار من الفلاسفة والمفكرين الغربيين علامة على التردي الأخلاقي والانحطاط (الإنساني) وزخمًا مضاعفًا لدفع نزعة التشاؤم أو السوداوية.

إن الحياة المعاصرة على الأرض مدينة إلى أمرين رئيسين: الثورة الصناعية في القرن السابع عشر وما بعدها ، وحركة القرصنة البحرية والاستعمار الحديث... وهما الأمران اللذان يستند إليهما التيار الأخلاقي أو الإنساني في إدانة الانحراف البشري.

فالثورة الصناعية وما ترتب عنها وأسفرت عنه زادت من الشقة بين الإنسان والمادة ، والأخلاق والحاجة ، وذلك بانحيازها لقيم المادة والربح والتراكم على حساب المعايير الأخرى. وبشكل جعل من الكائن البشري مجرد (وسيلة) رخيصة لخدمة الآلة الرأسمالية الإمبريالية.

ويقدِّم التاريخ المعاصر ظواهر مقيتة ومزرية في الاستهانة بالحياة والإنسان عبر ازدهار القنانة في آسيا وتجارة الرقيق في أميركا وأوربا التي لم تضع أي اعتبار لكيان الإنسان وكرامته. فكان بعض الرقيق يلقون بأنفسهم في مياه البحار والمحيطات للنجاة من المصير الأسود الذي ينتظرهم ، بينما تشير الإحصاءات إلى أن حوالي ثلث العدد كانوا يلقون حتفهم مع بداية وصولهم

تحت ظروف الحياة والعمل القاسية. وكما تؤكد مواثيق حقوق الإنسان فإن صدور قرار حظر تجارة الرقيق (1807) لم يمنع استمرار ظاهرة الرقيق على صعيد الاستخدام الخاص ، ولم يمنع استمرار مظاهر أخرى للرقيق والعبودية في عديد المجتمعات التي بقيت بعيدة عن يد القانون والملاحقة. كما لم يمنع ذلك من الالتفاف على مضمون القرار والمصطلح لازدهار صيغ ومصطلحات جديدة قائمة على نفس مضامين تجارة الرقيق والعبودية المنبوذة.

الركيزة الثانية هي حركة الاستعمار الحديث ، والتي تمثلت بقيام دول معينة بإنشاء مراكز نفوذ تجارية أو سياسية أو عسكرية أو دينية خارج حدودها الإقليمية والسياسية ، وفي بلاد غير موصولة بها جغرافيًا. فامتلكت بلجيكا وهولندا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة على مدى فترات تاريخية متعاقبة مستعمرات ومناطق نفوذ لها في كل من آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية. وبشكل قسَّم خريطة العالم إلى قسمين ، عالم السيادة وعالم التبعية ، عالم الحضارة وعالم التخلف ، عالم متقدم وعالم رجعي. وكان لهذا التقسيم إفرازات فكرية وثقافية وسياسية لا زالت سائدة حتى اليوم ومضمنة في ثنيات الأعراف والمواثيق الدولية التي لم يكتبها غير الذاكرة الأوربية الغربية السائدة.

على صعيد آخر ، تمثل الكثير من الكيانات السياسية (الدول) القائمة اليوم إفرازات مباشرة لحالة الاستعمار التي تعرضت لها تلك البلدان ، وبالتالي البقاء في حلقة التبعية والدوران حول القوة المستعمِرة ثقافيًا وسياسيا.

•

مرَّت حركة الاستعمار باستحالات عديدة منذ القرن السابع عشر حتى اليوم ، تمثلت بصراعات القوى الإمبراطورية على تقسيم مناطق النفوذ والسيادة في العالم منذ الحروب الأوربية الداخلية التي لم تحسم إلا في الحرب العالمية

الأولى [1914- 1918م] التي رسخت الانتقال من الاستعمار القديم [الإمبراطوريات السبع (هولندا / بلجيكا / إسبانيا / البرتغال / روسيا القيصرية / النمسا والمجر"الهابسبورغ" / العثمانيين)] ، لصالح قوتين إمبراطوريتين وحيدتين [بريطانيا- فرنسا].

ولم يتوقف الصراع بين القوى المتنفذة كما فشلت المعاهدات والمواثيق في خلق الطمأنينة بين الجانبين ، وسيما مع سرعة استعادة ألمانيا لقوتها والتحول لقوة أوربية ثالثة تنافس النفوذ الأنجلو فرنسي. مما قاد إلى تصفية دموية جديدة لعقدة النفوذ الأوربية في الأعوام [1939- 1945م] أسفرت عن خروج أوربا من مجال النفوذ ، لصالح ظهور ميزان قوى عالمي جديد قائم على القوة الاقتصادية والذرية ممثلاً في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والذي انقسم العالم بموجبه إلى ثلاثة خنادق اقتصادية سياسية [رأسمالي- اشتراكي- مختلط].

إن عمليات التحول الميدانية على الأرض جراء سقوط قوى نفوذ وظهور أخرى لم تكن بالبساطة النظرية أو التفهم السياسي أو اعتراف المهزوم بهزيمته وإنما استغرقت من الدماء والوقت ما يدعم رصيد الخسائر في حسابات العالم المتخلف والتابع.

كما يلعب المستوى الحضاري للطرف المنتصر ونزعته الوحشية في الانتقام والاستئثار والتظاهر والغرور دورًا ملموسًا على الأرض في النكاية والزراية بالمستضعفين.

والحال التي تعيشها مجتمعات أوربا الشرقية وبعض بلدان آسيا والبلاد العربية عقب انهيار القطب السوفيتي وانفراد الإمبريالية الأميركية بالسيادة الدولية صورة لمضمون [الثقافة] الأميركية القائمة على الجريمة والاغتصاب والمسخ والعبودية.

•

ويمثــل مــصطلح (العولمــة- Globalization) كقــرين معــادل لــ(الأمركــة- Americanization) ذروة المسيرة التكنولوجية والاستعمارية التـي وصـمت العـصور الحديثة والمتضمنة لكل المخلفات والآفات التي حفلـت بهـا المراحـل الـسابقة. ناهيـك عن مضاعفات عقدة (الخواء) الأميركي التي لا تنظر بعين الرضـا للمجتمعـات الراسـخة والمدنيات القديمة.

ومن هذا المنظور يمكـن تـشخيص انتـشار ظـاهرة القلـق الوجـودي واهتـزاز الثوابـت البديهية والوجودية في جدول يوميات الفرد.

إن الاستعمار أو الغزو ، كثقافة وحضارة ، إنما يحمـل الآخـر خصائـصه الذاتيـة وقيمـه الفكرية والروحية التي تمثل أفضل ما لديه على الأغلب. وهي ظاهرة مقترنة بكثير من حركات الغزو والاستعمار عبر التاريخ.

وهو يكشف سبب اختلاف آثار غزو عن غزو آخر. ورغـم الطـابع العـسكري والعنفـي لكـل حركـة غـزو وهيمنـة ؛ فثمـة أيـضًا الجانـب الآخـر المتعلـق بالمـضمون الثقـافي والحضاري.

حاول الإنجليز وضع قواعد الحكم المدني والقـانون العـصري في مـستعمَراتهم ، وحـاول الفرنسيون توريد ثقافتهم وقيمهم الفكرية إلى بعض بلدان أفريقيا. وفي عـصر التبـشير اعتقد كل من العرب والأوربيون على حِدة أن (الإسلام) أو (المسيحية) هي (الهدى) أو (النور) الذي ينبغي أن يفيء على الآخرين.

إن لقاء المختلف لا بـدّ أن يـستفزّ أفـضل قـدراتهما لمواجهـة الآخـر في حالـة تنافـسية مباشرة أو غير مباشرة ، سلمية أو عنفية ، وعلى مدى المحتوى الإيجابي والعملي لثقافـة كل طرف تتحدد قيمته الحضارية والإنسانية.

وكـما أن قيمـة العلـم تتحـدد بـ(تعلمـه وتعليمـه) ، فـإن قيمـة حـضارة وثقافـة تتحدد بمقدار مـا تعكـسه مـن آثـار جيـدة ومفيـدة عـلى الحيـاة اليوميـة والحاجـات الأساسية للكائن البشري ، وحسب ما ورد في إنجيل لوقا (7: 35) : "والحكمة الصحيحة

تظهر في من يتبعونها" ، أو القول المشهور "الإناء ينضح بما فيه".

الإنسان المعاصر ، ليس إلا مرآة ، تنعكس عليها كل آثار وملامح ثقافة المرحلة والبيئة التي يعيش فيها. وكما ينظر للإنسان الأوربي كممثل لحضارة مدنية تحترم الإنسان وحقوقه وتراعي احتياجاته وكرامته ، فالفرد الوافد أو الممثل لثقافة عربية أو هندية أو أفريقية يعكس قيم وملامح حضارته وثقافته ، وعليها يتوقف مستوى تقييمه وتصنيفه في جداول الأمم والثقافات.

بالمقابل ، تترشح عوامل البيئة السيئة وثقافتها الرديئة على شخصية الفرد وبما يعطيه صورة (إسفنجة) تمتصّ غبار التأثيرات والسموم المحيطة بها ، فتتلبّس بها شخصيته وسلوكه وانفعالاته وقيمه الثقافية والفكرية.

إن الفرد كوحدة اجتماعية ، أو المجتمع ، كوحدة بشرية تاريخية ، قلما تنصرف للتفكير بهذه الانعكاسات والأقيام وآثارها البعيدة.

بعض العثريات الأركيولوجية في أدوات المعيشة أو القبور أو ألوان الشعر ووشم الجلد ، يستنبط منها الباحثون معلومات عن أنماط معيشية أو تعبدية أو فنية لأهل تلك البلاد. ومنها يقاس مدى تطور الحياة والفكر مقارنة بالحقبة التاريخية.

ترى ماذا سيقول سُكَّان المستقبل عن أبناء اليوم. هل سيصدقون ما تسطّره الصحف والمجلدات من (نفخ وردح) ، أم يدرسون ويحللون مظاهر الحياة وأنماط العلاقات وأصناف الجرائم وأعداد المقابر الفردية والجماعية ومعدلات الحياة المتوسطة وغير ذلك مما لا يعنّ لكثيرين.

•

يقول الأوربي المتقاعد اليوم (فوق الستين) ، لقد عشنا الحياة الجميلة.

والحياة الجميلة لهذا الجيل الأوربي هي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي اتسمت بالسلام والتنمية والازدهار السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وهذه

بدأت بالتراجع مع التسعينيات وانفراد الهيمنة الأميركية وتكشف ملامحها المتوحشة شيئًا فشيئًا.

ليست هذه نظرة متحاملة على الثقافة الأميركية ، أو تعبير عن موقف شخصي قدر ما تمثل صورة إجمالية شاملة للانتكاسة الإنسانية والحضارية التي يعيشها العالم ، بل نعيشها نحن أبناء اليوم.

ومع وقوف بلدان أوربا الغربية على الحافة الحضارية وفقدان النفوذ والهوية ، يعود بعض الفلاسفة للقول ، ان مشروع الحداثة الأوربية لم يكتمل ، وقد تضمن بعض الأخطاء البنيوية التي يقتضي إصلاحها ، والعودة لاستكمال مشروع الحداثة.

وفي ذلك تصريح ضمني برفض مشروع البوست مودرنزم الأميركي ، الذي استهدف تدمير العالم ، بما فيه المجتمعات الأوربية الغربية.

لقد تهيأ لأجيال معينة أن تنعم بحياة الهدوء والدعة والاستقرار.

ولكننا نحن أبناء اليوم. أبناء النصف الثاني من القرن العشرين الذي اتسم بالاستقرار والازدهار في العالم المتقدم ، مقابل الانقلابات العسكرية والتغيرات السياسية والتذبذب الاقتصادي في بلاد العالم الثالث الأسيوية والأفريقية والجنوب – أميركية.

لقد اختزلت فترات التطاحن وعدم الاستقرار حياة الأجيال المحصورة ضمن هذه الفئات الزمنية ، وأنتجت ردود أفعال فردية وجماعية وتمثلت مظاهر سلوكية وثقافية واجتماعية ، لا يمكن تحليتها بقطرات من السكر ، أو تخفيفها بإضافة جرعات متزايدة من الماء ، أو تجميلها بإضافة الألوان الزاهية ، أو تكذيبها بالشعارات وتلفيقها بالخرافات.

لقد عانت المجتمعات العربية والأفريقية واللاتينية الأمرين في القرن العشرين ، والأدهى في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وتساوت في حياتها ملامح عدم

الاستقرار السياسي والتخلف الاقتصادي. وبينما كانت أهداف التنمية وتحسين مستويات المعيشة والحياة مشروعة في العرف السياسي التقليدي ، أصبح اليأس والتدهور علامة التبعية / الهيمنة الأميركية. وتعتبر ارتفاع معدلات الأُمية الهجائية والثقافية والنقص الفظيع في متطلبات التعليم والصحة وغيرها من البنى التحتية وارتفاع فئات الشباب ومعدلات البطالة والعنوسة ، أبرز المخاطر الراهنة والمستقبلية ، المنعكسة على هذه البلدان.

وبدلاً من اتخاذ إجراءات حيوية للقيام لتنمية حقيقية أساسية اقتصادية وصناعية في البلاد ، وفسح سقف الحريات والرأي الآخر ، ليستطيع الشباب تحقيق كياناتهم والتعبير عن قدراتهم ، تلجأ بعض البلدان لفتح حدودها أمام الهجرة إلى الخارج والشمال ، وبالشروط الاقتصادية والسياسية المزرية ، وبالشكل الذي تستمر في اجترار حياتها السقيمة بينما تزيد في معاناة المهاجرين وذويهم ، كأسهل طريق للتخلص من أزمات مستعصية ، قد تنفجر آجلاً في وجه النُظم التقليدية التي لا تنظر أبعد من كيفية الاحتفاظ بالُحكم.

الرداءة ، إن كانت لها أسباب تاريخية متوارثة ، ومحفزات راهنة دولية ، وقوى محلية مستفيدة ، تبقى في حلقتها الأخيرة ، جانبًا من مسؤولية الفرد ، في الانتصار عليها وتجنب استفحال أعراضها على شخصه وفكره وضميره ، وهذا هو أحد امتحانات العولمة ، أنه بينما تنحني لها المؤسسات ، يبقى المواطن بمفرده في مواجهتها ، لكيلا يخسر ذاته.

ولعلَّ أكثر ما يوجع في تبعات ضريبة رداءة الحياة والعالم هذه ، انعكاسها على الأبناء والأحفاد والتلاميذ. وهذا يعني استمرار آثار المرحلة الراهنة إلى أبناء الغد. عندها يكون السؤال عن دور الفرد (دورنا) تجاه الرداءة أكثر إلحاحًا ومسؤولية.

•

مظاهر سلوك الفرد والمسؤولية الأخلاقية

لمعالجة ظاهرة معينة ، يمكن تحديد ما لا نهاية من احتمالات الحلول والبدائل. ولكن ، من بين هذه الما لا نهاية ، دائمًا ثمة حل أو وسيلة واحدة هي الأنجع والأفضل.

أحاول تطبيق هذا المبدأ الرياضي الإحصائي في جانب البحث الاجتماعي ورصد أنماط الخيارات الفردية والجماعية في موقف محدد ، وعلى مدى سحابة يوم كامل وأيام متتالية متوزعة في أسابيع وأشهر وسنوات ، منتهية إلى سحابة عمر إنسان.

بدايةً... يفضَّل تصنيف السلوك الفردي في ثلاثة أنماط حسب القوى المؤثرة والموجهة فيها: نمط نابع من الوصايا والتعليمات العقائدية القومية أو الدينية / نمط خاضع لاتجاهات الأعراف والتقاليد الاجتماعية والبيئية / نمط محدود للجزئيات والخصوصيات التي ينحصر البتّ فيها للفرد ذاته.

الفرد ، بحدِّ ذاته كائن مخلوق غير مستقل بذاته ووجوده ، فبالإضافة لتسبّب شخص أو أشخاص في وجوده وحمله صورة من شرائطهما الجينية الوراثية المحددة لصفاته الموفولوجية وقدراته العقلية والروحية وخصائصه النفسية والحسية ، فإن البيئة التي يُولد فيها ، والتي يترعرع فيها تتدخل في صياغة جوانب أخرى من شخصيته الفكرية والاجتماعية. ما يكشف الدور الأكبر للعوامل الخارجية في صياغة الفرد. بعبارة أخرى: إن أهم القرارات الحاسمة في وجود الفرد خارج يده ، فإذا أضيف إليها دور الأحداث والمتغيرات المحلية والإقليمية أو العالمية التي تصادف فترة حياته ونشأته ، كالحروب والأوبئة والكوارث الطبيعية أو الصراعات الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، لا يبدو معها الفرد غير (دمية) أو روبوت ساهمت جُملة أو مؤسسة من العوامل المتضافرة في خلقه وتصنيعه وتوجيهه للعب دور معين. ومع وجاهة هذا

التحليل ، فإن كثيرين ، يرفضون هذا التوصيف ، ويجتهدون في تبرئة العوامل الخارجية (! !) من مسؤولية بعض الممارسات ، وتحميل (الفرد) ، المسؤولية الكاملة أو شبه الكاملة عن المواقف الفردية. ومنه تحميل الجماعة أو الشعب مسؤولية الكوارث السياسية أو الاجتماعية المحيقة به ، ووفق نظرية مسؤولية الضحية في قيادة المجرم لارتكاب الجريمة. لقد اختص اللاهوتيون وعلماء الدين في ترويج وجهات نظرهم (النمط الأول) ، والمفكرون والباحثون الاجتماعيون في تفسير ودراسة (النمط الثاني). فيبقى لهذه القراءة متابعة (النمط أو الشق الثالث) المتعلق بالسلوك الفردي أو دور الفرد في مواجهة الحياة والعالم.

•

هنا تبدو أهمية جُملة الاستهلال الرياضية في تنوع البدائل والخيارات في الموقف الواحد. إن كثيراً من الأفراد يبرِّرون أفعالهم عندما تكون له نتائج غير محمودة ، بأنه لم يكن لهم خيار آخر ، وأنهم اضطروا إلى ذلك اضطرارًا. في مقابل أفعال أخرى تحظى بدعم ورواج ، يتفاخر منفذوها بأنهم ، لو لم يفعلوها هكذا لاكتشفوا مليون طريقة أخرى لتحقيق نفس الأهداف. فالقدرات العقلية والثقافية للفرد ، والإمكانيات المادية والبيئية ، تلعب دورًا طرديًا مع عدد الوسائل والطرق والبدائل والحلول للوصول إلى هدف محدد ، أو الخروج من مأزق معين. وبالتالي ، فإننا بشكل أو بآخر ، نجد أنفسنا ثانيةً وثالثةً ورابعةً في أحضان العوامل الخارجية الموجهة لبناء الفرد وتحديد أو توسيع قدراته وآفاق حريته.

- دور الفرد في التكوين والتربية الذاتية

مهما بلغت ضراوة عوامل البيئة وسطوة التربية الخاصة ، يبقى للفرد فرصة للاختلاء بنفسه ، إن لم يكن في النهار ففي الليل ، للتأمل والتفكر ، في نفسه

وعائلتـه وفي المجتمـع والطبيعـة ، فرصـة لامـتلاك أوقـات فـراغ وممارسـة هوايـات وفعاليات فردية يجد فيها نفسه ويحقـق فيهـا كيانـه الخـاص. بعبـارة أخـرى ، فرصـة لاسـتخدام عقلـه وتوظيـف قدراتـه بمحـض إرادتـه ، وعـدم اسـتمراء دور [الجنـين] – (passive) التابع تبعية مطلقة أو شبه كلية للتلقين والوعظ والتقليد.

إن النفس الإنسانية مـسكونة بـالانطلاق والتمـرد وعـدم الاسـتكانة للقوالـب والغُـرف الـضيقة. وهـذا هـو سِرُّ الإبـداع والتطـور والتجـاوز والتمايـز عـن عـالم الـسكونيات والمجترات على مدى التاريخ. في التشابه قتل للإحساس واختزال للعقل وقدرة المقارنـة. بعبارة أخرى ، إن وعي الزمن (اكتشافه / اختراعه) ، لم يتحقق إلا بعـد اكتـشاف فكـرة التغير وتعدد صور الحالة الواحدة. فتوالي الصور دلالة على وجود تقادم واختلاف عمـر لحظة عن لحظة سابقة. ولـيس التـاريخ سـوى جـدول زمنـي (Chronology) لوقـوع الأحداث. ولكن عدد الأفراد الذين يدركون أو يتوصلون لاكتشاف قدراتهم الخاصة هـو موضع السؤال. غالبًا ما تخطر على ألسنة الأطفال أسـئلة أو جمـل مدهـشة أو خارقـة للواقع أو العقل. طريقة التعامل معهـا ، تتبـاين في خـضوعها لعوامـل البيئـة والثقافـة العامة ، وتضع الموضوع إزاء إشكالية أخرى.

ومنه ، اجتماع عوامل الطبيعة والمجتمـع عـلى خنـق الطاقـة الإنـسانية وتحجـيم ذات الفرد عبر سلسلة طويلة ومتنوعة من الأُطر والنواهي والمحرمات والمثبطات ، واخـتلاق ذرائع وحجج لا تخلو من الوهم والخرافة لتبرير دعاواها وتمريـر أسـاليبها التـي تعـود على زعمائها بمكاسب دنيوية غنية ، بينما يستمر محاصرة الجـنس البـشري في جـداول عقوبات ونصوص تسلطية قاهرة ، ولا يفطن أولئك إلى أنه لولا الخـروج عـلى النمطيـة واختراق (المحرمات) ، ما استمرت الحياة ولا تطورت أساليبها وبلغت العلوم والحضارة هذا الشأن. فالواقع التاريخي يؤكِّد أن الموانع والمعرقلات لم تـستطع النيـل مـن فطـرة الإبداع والمغايرة داخل النفس الإنسانية.

مسؤولية الفرد هنا ، امتلاك وقت لنفسه ، لاكتشاف قدراته وبلورة رؤاه وأسئلته تجاه الآخر. وفي أيام المدرسة الخالية ، كان تشجيع الهوايات الخاصة والأنشطة اللا صفية والتي أنتجت أجيالاً من العمالقة في مجالات الفنون والآداب والعلوم والرياضة ممن كان لهم دور مشرق في إضافة الاشعاع في تاريخنا المعاصر. بيد أن فكرة الهوايات والأنشطة غير المدرسية تراجعت سلبًا في السنوات الأخيرة ، مع اجتياح الصناعات الاستهلاكية مجالات الطفولة والألعاب والتسلية التي اختزلت كثيرًا من حرية القدرات الذهنية والجسدية للطفل ، وجعلت منه (روبوت) يتعامل مع لعبة إلكترونية وفق قائمة الارشادات (Instructions) ، ويُتهم بالغباء من قبل المدرسة والوالدين إذا فشل في تطبيق لعبة معينة تطبيقًا ببغائيًا. بينما جاء التحول اللا مسؤول في برامج الأطفال وأفلام الكارتون (المتحركة) العابرة للقارات والثقافات ، لتقتل قدرات الخيال والخير والجمال والبراءة لدى الأطفال ، لصالح الخيال التقني الممثل بالسوبرمان والوطواط والسبايدر الأمريكي المريض. ان فئة الشباب اليوم على أعتاب العشرينات هم من خريجي ثقافة الأطفال [New Media] الأمريكية ، وهو ما يجعلهم يختلفون عن سابقيهم في خصائص سلوكية وذهنية ونزعات مادية محددة ، يجمعهم بقواسم مشتركة مع أقرانهم من جهة ؛ ومن جهة ثانية ، هم ضحايا أزمة الهوية جراء ارتباطهم ببيئات ثقافية مختلفة بنيويًا عن بيئة الغرب التي أنتجت تلك السياسة.

احتدام أزمة الهوية لدى شباب اليوم وعدم وجود بدائل مرنة ، نقل الأزمة إلى طور (المعضلة) ونقلهم من أنصار مؤيدين إلى مناهضين شرسين لكل شيء غربي. منعكسة بالتالي على سلوكهم المتمرد الموجه ضدَّ الغرب والمتغذي بعوامل وأفكار وجدت فيهم عجينة طيعة لخدمة أيديولوجية سياسية مناهضة للحضارة ، مما زاد مساحة الشرخ داخل ذوات هذا الجيل ، وانعكاساته النفسية والفكرية والسلوكية الضيقة.

إن من الطريف حقًا ، أن تتمتع الأجيال السابقة (قبل السبعينيات) ، بمرونة فكرية وفضاءات نفسية أضعاف ما تَحقَّق للأجيال المتأخرة ، وبشكل مطرد ، أي أن السبعينيين أوفر حظًا من أطفال الثمانيين، وهؤلاء أوفر حظًا من الجيل اللاحق.

ان المشهد الاجتماعي لكل بلد ، هو تلك الفئة المحصورة أعمارها بين العشرينات والأربعينات. وهو ما يرسم أنماط الظواهر الاجتماعية والسلوكية المؤثرة في المجتمع ، وهو ما يوضح حجم القلق الاجتماعي للأجيال الراهنة. فكلما افتقد الأفراد الفرصة الكافية لتحقيق التنمية الذاتية واستكمال دورهم المستقل في صياغة شخصياتهم الخاصة ؛ زادت نسبة التكرار في المشهد الاجتماعي ، وهو ما نشهده اليوم على صعيد المظاهر وقصات الشعور واللِحى والثياب وأنماط السلوك والخطاب التلقيني.

لقد وقعت فسحة الحرية المحدودة في حياة الطفل المعاصر ضحية قرصنة المؤسسة ، فاختزلت كيانه ومسخت شخصيته وألغت تفكيره الخاص... ومصدر المفارقة ، أو الإشكالوية ، أنه بينما هيأت سياسات الإعلام الغربي في العقود الأخيرة كمؤسسة لتحويل الأفراد إلى نسخ مكرَّرة عن نماذج وقوالب مدروسة ؛ يعتقد الخطاب التقليدي العربي نجاحه في سحب البساط من الغرب لصالح أغراضه. والضحية بين الاثنين هو الطفل، الإنسان ، المطلوب منه، والمفروض عليه تحمل تبعات ما يفعله الآخرون ، مع حرمانه من دوره الأدنى ، لتحديد خياراته.

•

-المسؤولية الأخلاقية والدور الاجتماعي للفرد

الاستئثار والأنانية من ملامح عصر العولمة ، التي قلَّصت مساحة المعيار الأخلاقي أو المساهمة الفردية في الفعل الاجتماعي. وهي سمة مغايرة أخرى عن أجيال الستينيات وما قبلهم. إن الاهتمام الأكبر يذهب اليوم إلى ما يحصل

عليه الفرد من مكاسب ويجنيه من فوائد ، دون اعتبار لأهم مسألتين ؛ ما ينعكس على الآخرين من أضرار مقابلة ، مدى أحقيته وشرعية ما يكسبه. بمعنى آخر ، أن التفكير بالانعكاسات الاجتماعية أو الآثار الأخلاقية للممارسات اليومية لم يعدْ شاغلاً لدى الكثيرين ، واستحوذ الاهتمام بالمظهر الخارجي على الاعتبارات السلوكية في مرآة المجتمع. وبينما يجتهد هؤلاء في تبرير وتنزيه سلوكهم ، واتهام الآخر بالجحود والسوء ، فإن الإسفاف يقود إلى مصادمات وتشظيات اجتماعية غير محمودة ، والسبب هو العجز عن تحقيق الانسجام بين بيئة قيمية مستوردة ، وقيم مادية كاسحة تسحق من لا يتماشى معها.

إن زمن البطولة الفردية والمآثر الاجتماعية والذكرى الطيبة قد أدبر ، وظهرت أنماط وقيم جديدة أكثر نفاقًا ورياءً مما يحتمله التأويل اللغوي للمفردة. وهو جزء من مفهوم رأسمالي ، يترجم قلق الشخصية في ظل انعدام ضمانات اجتماعية وبيئية ، تجعل الهروب إلى المادة والمستقبل أقصر الطرق لمراوغة الاضطراب ، والإيغال في الفعل طريقًا لإسكات الضمير.

(الحكمة الصحيحة تظهر فيمن يتبعونها)... لكن هذه الحكمة مكلفة بكل الحسابات ، والزمن تدور عجلاته بسرعة ، وقد تسحق المتباطئين.

في نظرية الاحتمالات ، تتعدد الطرق ولكن طريقًا واحدًا هو الأفضل ، ولكن المدير الإداري اليوم لا يبحث عن البديل الأفضل ، وإنما الأقل كلفة والأكثر اختصارًا للوقت. وبالتالي ، فإن نمو البغاء وعروض الأزياء والتوجه لأغاني البوب وأعمال السمسرة ومافيات السرقة والقرصنة ، يحقق وفورات مالية خلال فترات قياسية ، وهذا نمط العصر: الكسب السريع أولاً وليس الكسب الشريف. الكسب السهل وليس المبدأ الخلقي... قيمة الكائن الإنساني هي آخر شيء يشغل التيار الجديد. كان أجدادنا يقولون : القرش الحلال ينمو ببطء ، والقرش الحرام ينمو كالحريق... هذا هو الفرق بين (بزنس) اليوم وتجار الأمس.

قد لا تكون الظاهرة جديدة بالمرة ، لكنها ازدهارها جاء مرتبطًا بمنظومة قيمية

كاسحة وفي إطار نظام عولمي عابر للقارات والثقافات. فأسفر عن تشابهات وتجاذبات كثيرة بين أبناء بيئات ثقافية مختلفة. في نفس الوقت أظهر اختلاف انعكاسات أبناء البيئات المختلفة [الأفارقة ، أميركا اللاتينية ، الصينيون ، الهنود ، العرب] ودرجة ذوبانهم في المجرى العام على اختلاف معدل قلق الشخصية واهتزاز الهوية بينها. فالعولمة تبقى في أسوأ الاحتمالات مرآة مواجهة وموشور تحليل الثقافات إلى عناصرها الأساسية. والمرحلة التالية للذوبانات هي اختزالات وتلاشيات واستحالات متسارعة.

ضمن هذا المنظور ، ينقسم المجتمع إلى ظاهرتين أو قسمين: التيار المندرج والمنساق مع الموجة الجاهزية ، والتيار العقلاني المحافظ على القيم الاستراتيجية ، والمدرك لسرعة انحلال القيم السريعة الطارئة وآثارها الكارثية المدمرة. وهذا ما يضاعف أهمية الرأي الآخر ، والموقف البديل ، لتعويض الفراغ الأخلاقي والنفسي الذي تشكله الحضارة التكنولوجية أو الإلكترونية أو العولمة اصطلاحًا إمبرياليًا مبطنًا.

إن المجتمع أكثر حاجة اليوم ، وغدًا ، لمراكز إشعاع اجتماعي تتجسد في أنماط السلوك والفكر والمعاملة. فالترجمة الحقيقية للثقافة والوعي ، تبقى قاصرة إن لم تنعكس في ثلاث: الفكر والشخصية والسلوك.

الفرد في مصيدة /

شبكة - (الإنترنت والهاتف الخلوي)

“ It would be nice to know how many more CCTV cameras they are going to put up before calling us the United Camera Kingdom” Foolsold, London

“ If we don’t do something now about the invasion of our privacy then pretty soon we might find we have no liberty to protect.”

- Paul, Reading

- مواطنين إنجليز في استفتاء حول الموضوع لجريـدة (London Lite) الـشعبية ليوم الجمعة الثالث من نوفمبر 2006-

•

(الشعب مصدر السلطات) ، عبارة دخلت في الإرث السياسي للمجتمع المدني المعـاصر ، يقابلها عبارة (حماية الإنسان وتحسين أوضاعه غاية كافة السياسات والإجراءات). وعلى قدر صحّة العبارة الأولى التي تروّس بها مقدمات القرارات والقوانين والمعاهدات والصفقات والأحكام القضائية المتعلقة بالسجن والطرد والإعدام ، تصحّ العبارة الثانيـة في ارتباطها بالتجسس الإلكتروني [Please note that CCTV camera in operation for your safety].

لقـد كـان فـضح الاتحـاد الـسوفياتي لبنـود صـفقة [سـايكس بيكـو] إثـر ثـورة أكتـوبر (1923م) نصرًا إعلاميًا للشعوب المقهورة يومذاك ، لم تعقبه أية فضيحة دوليـة في هـذا الإطار.

نمط الفضائح انتقل من صعيد الدول والصفقات ، إلى الممارسات الداخلية والأشخاص ، ففي هذه الفضائح يمكن تمويه مراكز المسؤولية وتزوير البيانات بين اللغط الإعلامي والموظفين الصغار.

وكما أن فضائح الاغتيال السياسي في بلدان أوربية تنسب إلى موظفين صغار في السفارة يتم (تكبيشهم) فداء لبقاء - الرأس- أو اعتباره حادثًا شخصيًا ، مثل صور تعذيب السجناء في (غوانتانامو) أو (أبي غريب) ، وتبرئة رجالات الحكومة من وزرها ، فإن صفقات (تجارة) التجسس وبيع المعلومات عبر (أفراد) الدوائر الأمنية يُسجَّل في خانة (الفساد الإداري) والتصرف الشخصي ، الذي ينتهي بإقالة الشخص وفتح (تحقيق) إداري أو قضائي بالموضوع ، لإسكات الإعلام والرأي العام.

إن ربط السياسات (الأمنية) للبلدان بيافطة (الأمن القومي) كما وثقتها مضاعفات الحادي عشر من سبتمبر (2001م) في الولايات المتحدة الأميركية ، منح المؤسسة البوليسية في بدايات هذا القرن طراز (حماية وسلطة) المؤسسة العسكرية أيام الحروب العالمية في القرن الماضي.

وكما كان شعار (كل شيء من أجل المعركة !) مسوغًا لتجاوزات الدولة وصمت (المواطن) ، صار شعار (الأمن أولاً...) - القشة - التي تكسر ظهر المواطن ، ومؤسسات المجتمع المدني الحرَّة من أي اعتراض أو نشاط مناهض.

•

خدمة الكمبيوتر ومصيدة الإنترنت

لا غنى للشخص أو العائلة اليوم ، عن جهاز كمبيوتر للدراسة أو العمل أو التسلية أو الاتصالات والتواصل مع الأصدقاء والأهل ، بل هو يدخل في معظم مجالات الحياة المعاصرة. لكن الكمبيوتر ليس مجرد آلة صماء ، ويختلف عن

الراديو والتلفزيون والثلاجة والغسالة والدراجة ، بأنه لا يمكن استخدامه بدون برنامج. وتباع البرامج منفصلة عنه في السعر ، وأحيانًا غير مركّبة في الجهاز. ولا يمكن في هذه الحالة برمجة الجهاز من غير تسجيله لدى الشركة المنتجة للبرنامج.

في حالات معينة يكون البرنامج مركّبًا في الجهاز لمدة تجريبية ، على أن يتم تسجيله خلال ثلاثين يومًا ، وعند عدمه يتوقف عمل الجهاز مما يقتضي الاتصال بالجهة المعنية أو شخص مختص لإعادة برمجته. ولا مفرّ في هذه الحالة من الاتصال بالمجهّز ، وتسجيل تشغيل البرنامج عنده ، بواسطة رقم الإنتاج الملصق في مكان في قفا الجهاز أو في مقدمته ، مع (code) برنامج التشغيل. وفي غير ذلك يعتبر تشغيل الجهاز منافيًا لحقوق الحماية الدولية ، ويمكن للجهات الرسمية مصادرة الجهاز في حملات مداهمة أو تبليغ سرّي. وفي بعض البلدان تمَّ مصادرة آلاف الأجهزة لاستخدامها برامج غير مرخّصة.

عبر تسجيل الجهاز لدى الجهة المعنية ، يتطلب تثبيت اسم الشخص وتاريخ تولده وعنوانه ورقم هاتفه ، ومن خلالها تستطيع الجهة المعنية الإطلاع على كل العمليات الجارية داخل الجهاز.

لدى تسجيل عنوان إلكتروني [e.mail] لدى إحدى الشركات الإلكترونية ، تجد الإشارة الصريحة ، التي تقتضي الإطلاع على سلسلة توصياتها وأنظمة عملها والموافقة عليها بالمصادقة [o.k] ليتحقق ذلك.

ويتطلب تزويد الشركة بُجملة معلومات وبيانات شخصية لقاء الموافقة. عبر ذلك تتمتع الشركة الأصلية بإمكانية الإطلاع على المعلومات والعمليات الجارية في صفحة الشخص أو بريده الإلكتروني. ولا يمكن تحديد حجم اتصالاتها وارتباطاتها في هذا المجال. الجديد هنا ، أن الشخص الذي يراقبك لا يجلس معك في نفس الحجرة ، ولا يجعلك تشعر بأنك تحت المراقبة.

مع بدء تصفح الشبكة ، تظهر جداول تحذير أمنية لا يمكن تجاوزها ، وعدم القبول يعيق ظهور الصفحة المطلوبة. إن الجوهر هنا ، أن كل ما تفعله ممكن الإطلاع عليه ، ويعني عندها قبول الشخص الضمني بذلك ، مما يبطل أي ادعاء قانوني بالمقاضاة حول المسّ بحقوقه الشخصية.

•

الهاتف الخلوي (الجوال)

يطلق عليه الإنجليز الموبايل [Mobile] ، بينما يدعى في بلاد أوربا الأخرى [Handy]. وهو يضاهي من حيث التقنية الإلكترونية والاستعمالية مذياع الترانسستور [Transistor] ، لدى شيوعه عقب الحرب العالمية الثانية وما حقق من نقلة نوعية في حضارة الاتصالات. لقد تضاعف إنتاج واستهلاك الترانسستور بعد الخمسينيات بما ساهم في تقريب الأواصر الثقافية (ثقافة المعلومات) بين أجزاء العالم المتقاصية. ومع تضاعف كمية إنتاج الأجهزة وانتشارها في جنوب العالم وشرقه ، استمرت متناهية في الصغر ، فتجاوزت أحجام (كتب) الجيب ، بالإضافة إلى انخفاض أسعارها وشعبيتها. ولكنّ هذا التناهي في الحجم والتسعيرة ، وضع نهاية لها أيضًا ، عبر ظهور أجيال وأجهزة جديدة ، شكلت تعويضًا عن خدمات المذياع (الفقيرة) ، مثل أشرطة وأجهزة التسجيل (كاسيت) ، وتطور التلفزة وأجهزة عرض الصورة والصوت [Video] وانتشارها.

وإذا كان الترانسستور (المحمول) قد انتهى في صورة (الهاتف) المحمول الذي يتمتع اليوم بخدمات تقنية لنقل الصوت والصورة وتبادل الإيعازات الصورية والصوتية عبر الأثير ، فإن أجهزة التلفزة والفيديو قد انعكست في تقنيات الكمبيوتر وخدمات الإنترنت ذات الشاشة المتناهية في الصغر والسعة والإمكانيات على صعيد واحد.

هذا التطور التكنولوجي الإلكتروني السريع لم يحقق عادات استهلاكية وطفرات في الاقتصاد والتجارة ، وإنما حدّ من استخدام المذياع [Radio] والتلفزة [Television] بشكل فظيع.

وإذا كان من النادر وجود جهاز مذياع لدى قطاعات كبيرة من السكان ، لا سيما الشباب ، فإن أجهزة التلفزة التي تعاني من منافسة انتحارية مع خدمات الإنترنت ، ستشهد انسحابًا فجائيا خلال العقد المقبل ، يتحول معه إلى جزء من تراث الأنتيكا [Antica]. وليس من المستبعد هنا ، أن مؤسسات الدولة التي بدأت بخصخصة [privatization] مؤسسات الإذاعة والتلفزة في العقدين الماضيين ، سوف تلجأ لحماية هذه التقنيات من الانقراض النهائي من الاستعمال عبر إجراءات وسياسات معينة.

•

-مظاهر خارجية وغايات خفية...

هذا الانتشار الواسع والمتصاعد لهاته الخدمتين ، يكشف مساحة الاتصالات الخاضعة للمراقبة ، وحجم السكان الخاضعين للمتابعة الأمنية.

وفي حال بنك الجينات الذي يغطي نسب متفاوتة من تقسيمات السكان داخل بريطانيا ، تسعى الدوائر المعنية تطويرها لتشمل الجميع. فإن الرقابة الإلكترونية عبر استهلاك الأجهزة التقنية والإلكترونية الحديثة ، تضمن سيطرة أوسع من الناحية الدمغرافية ناهيك عن مميزات عملية أخرى مثل زهد التكلفة واستمرار عملية الرقابة مدى الحياة (!).

وكما ورد في الفصل السابق حول كاميرات التجسس الصوتي والصوري في الأماكن العامة ، فهو يعني الحديث الذي لا يتم عبر استخدام الهاتف النقال أو الإنترنت.

•

- حجم توزيع أجهزة الموبايل والإنترنت في دول الاتحاد الأوربي (•)...

-البلد	حجم السكان	موبايل	إنترنت
ألمانيا	82.398	%78	%47
أسبانيا	40.217	%92	%15
إيطاليا	57.998	%102	%34
بلجيكا	10.289	%79	%33
بلغاريا	7.537	%33	%20
برتغال	10.102	%90	%19
بريطانيا	60.094	%84	%42
بولنده	38.662	%45	%23
تشيكيا	10.249	%96	%29
تركيا	68.109	%34	%7
دنمارك	5.384	%89	%51
رومانيا	22.271	%23	%8
سلوفاكيا	5.430	%68	%26
سويد	8.878	%89	%57
فرنسا	60.180	%70	%37
فنلنده	5.190	%90	%51
نمسا	8.188	%88	%46
هنغاريا	10.045	%68	%23
هولندا	16.150	%77	%51
يونان	10.665	%78	%15

• المصدر : The Europe Diary, 2005/2006

- مظاهر خارجية وغايات خفية...

هذا الانتشار الواسع والمتصاعد لهاته الخدمتين ، يكشف مساحة الاتصالات الخاضعة للمراقبة ، وحجم السكان الخاضعين للمتابعة الأمنية.

وفي حال بنك الجينات الذي يغطّي نسبًا متفاوتة من تقسيمات السكان داخل بريطانيا ، تسعى الدوائر المعنية تطويرها لتشمل الجميع ، فإن الرقابة الإلكترونية عبر استهلاك الأجهزة التقنية والإلكترونية الحديثة تضمن سيطرة أوسع من الناحية الدمغرافية ناهيك عن مميزات عملية أخرى مثل زهد التكلفة واستمرار عملية الرقابة مدى الحياة (!).

وكما ورد في الفصل السابق حول كاميرات التجسس الصوتي والصوري في الأماكن العامة ، فهو يعني الحديث الذي لا يتم عبر استخدام الهاتف النقال أو الإنترنت.

•

أليس للفرد أن يتساءل عن مغزى التطور السريع والرخيص في هذه المجالات ، دون غيرها. هل التكنولوجيا الرأسمالية ، التي انطلقت يدًا بيد مع الثورة الصناعية وحركة الاستعمار الحديث في القرن السابع عشر ، تتبع الجمعيات الخيرية والمنظمات الإنسانية كالصليب الأحمر ومنظمة العفو الدولية والكاريتاس لمساعدة المعوزين والمضطهدين وفقراء الأمم ، لتبذل لهم نعمة الموبايل والإنترنت بأسعار رمزية قياسًا إلى أسعار الأدوية وبعض الأغذية الأكثر ضرورة ولزومًا لحياة البشر ، سيما وأن الأزمة التي تهدد المستقبل تتعلق بالأمن الغذائي [شحة الغذاء] وليس [شحة الاتصالات].

يقول خبراء الإعلام والاتصالات [Media & Communication] ، إن المعنى الحقيقي لانتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية [1939- 1945م] ما كان ليكتمل بدون (ثورة) الترانسستور. بمعنى أن حرص الحلفاء [الولايات المتحدة

الأميركية وبريطانيا والاتحاد السوفيتي وفرنسا] عـلى النـصر المعنـوي الإعلامـي لم يكـن أقلَّ من حرصها على تحقيق النصر العسكري الميداني.

لقد أدَّى انتشار الأخبار السيئة في صفوف المحور إلى انكسار المعنويات القتاليـة وتقـديم هدايا سحرية لقوات العدو ، بل أن صدى انتصار الحلفاء في أفريقيا وآسيا كان أكـبر منـه داخل أوربا - ميدان المعارك الرئيسية -. لقد حوَّلت هذه الأجهـزة الـصغيرة العـالم كلّـه ، ساحة لنشر أخبار المعارك وصـدى الانتـصارات ، فكـان الـصدى الإعلامـي لهزيمـة المحـور [ألمانيا وإيطاليا واليابان] في أفريقيا وآسيا نصرًا سياسيًا ، هيّأ لمرحلـة جديـدة مـن النفـوذ والتبعية السياسية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن العشرين.

حسب هذا المستوى من التفسير ، ما كان لأحداث انفجـارات نيويـورك [2001م] هـذا الفعل النفسي والدولي بدون خدمات النقل الفضائي المصور للحدث. لقد انتقد كثـيرون طريقة عرض قناة [CNN] لنبأ ومـا تركتـه مـن آثـار نفـسية هـستيرية ومـدمرة عـلى نفوس النساء والأطفال والشيوخ والمرضى. فالتهويل والمبالغة والانتـشار والتكـرار ، هـو الذي حوّل الحدث (المحلي) إلى حدث (عالمي) ، وهيّأ الـرأي العـام العـالمي لمرحلـة مـا بعد سبتمبر ، التي ما كان يمكن أن تمرّ بلا عقاب أو نتائج سياسية وعسكرية مباشرة.

واليوم ، بعد أن حدث ما حدث ، والشرق الأوسط (الكبير) يتمـرغ في وحـل (التخـبّط) الأميركي ، لا أحد يعنّ له دراسة أصل الظاهرة وعوامل تضخيمها بدل معالجتها وتقليـل آثارها التدميرية.

لا أحد ، يعنّ له تأمل الدور الذي لعبته شبكة الإنترنت حتـى الآن ، في خدمـة أهـداف الحرب (عـلى الإرهـاب) بـالمفهوم الأمـيركي الهونتننغتـوني. مـا هـو الـسرّ وراء التناسـل الجرذي للمواقع الإلكترونية الناقلة للأحداث بما فيها تلك المناوئة (ظاهريًـا) للأمريكـان ، سواء في حرب أفغانستان أو حروب العراق ؟. وما هي الفائدة المنعكسة عـلى العـرب أو العراق من خدمات الشبكة والمواقع تلك ؟.

قد تختلف الآراء كالعادة ، في الأمر. ولكن عمليًا ، حجم الهزيمة (الإعلامية) والتشرذم الإعلامي في صفوف العرب والعراقيين ، أكبر من حجم الهزيمة العسكرية والتشرذم السياسي في الميدان.

على هذا الصعيد ، يمكن تلمس الدور الذي لعبه جهاز الموبايل الصغير في إثارة الزوبعة الإعلامية لحادث الثلاثين من ديسمبر في حفرة مركز استخبارات الكاظمية (العراق) على صعيد الرأي العام الإقليمي والدولي.

إن أهمية ما يحدث اليوم في أي مكان من العالم ، ليست في حجمه وآثاره المباشرة ، وإنما في مدى انتشاره الإعلامي ومضاعفاته غير المباشرة. إن كثيرًا من المنظمات والجمعيات والواجهات والأحزاب و(الطوائف) ، لها وجود (إعلامي) إلكتروني أكثر مما هو كيان حقيقي قائم على الأرض. والعكس صحيح أكثر ، إن أي جمعية أو جماعة ، بدون تأثير (إعلامي) غير قادرة على الحياة والتواصل.

من أوائل الخدمات التي (غزت) العراق عقب الاحتلال هي خدمة الهاتف النقال، ومع تعذر وصول أو استمرار كثير من خدمات البناء وتعمير البنية التحتية ، استمرت شركات الهواتف النقالة وأطباق التلفزة بجدارة ، كشركات وحيدة في ظل الفوضى الأمنية.

•

- النتائج المستخلصة

إذا كانت بداية الترانسستور والكمبيوتر ، اتسمت بخدمة الأغراض العسكرية والحربية ، فإن غاية خدمات الإنترنت والهاتف الخلوي تصبّ في خدمة الأغراض الأمنية (البوليسية) ، وتسهيل عمليات التجسس الشخصي واختراق حياة الأفراد الخاصة.

من الأنظمة المستعملة في سجون بعض البلدان المتقدمة ، جواز قضاء السجناء

أوقات محددة أو أعطال دورية خارج مبنى السجن ، وبـدون مرافقـة البـوليس ، بعـد ربط جهاز صغير في رسغ أو قدم السجين ، له اتصال مباشر بإدارة البوليس حول مكـان وجوده وحركته.

ولا بدّ أن كل صاحب هاتف نقال ، استلم تلك الرسائل الإلكترونية من شركة الاتصالات الخاصة لهاتفه وهـي تهنئـه لدخولـه أجـواء البلـد الفـلاني وتدلـه إلى امتيـازات أسـعار الاتصال المدعومة لكل دقيقة ، أو اسم الشركة الزميلة التي يمكنه الاتصال بها للاستعلام حول خدماتها.

إن شركـة الاتـصالات (الهاتفيـة) المرتبطـة بـشبكة دوليـة ، مقـرات أغلبهـا في الولايـات المتحـدة الأميركيـة. وهـي لا تحـدد فقـط تنقـل صـاحب (الهـاتف) مـن بلـد إلى آخـر [Roaming] ، وإنما ترصد حركته من مدينة إلى أخرى ومن بقعة لأخرى داخل المدينـة ، وتميز وجوده في العراء أو داخل مبنـى إلكـتروني أو بنـاء مـن عـدة طوابـق أو داخـل سيارة ، وهي أمور لا يمكن أن تعنّ للفرد أو تخطر في خيال شاعر.

إذا كان ذلك على صعيد تحديد (إحـداثيات المكـان) بـالمفهوم العـسكري ، فـماذا عـن التنصت لاتصالاته الهاتفية وأحاديثه المتنوعة والتي يمكـن لأي كاتـب قـصة مبتـدئ أو كاتب (ضبط) أن يحصل بجمعها وتوثيقها عـلى أكـثر مـن روايـة تجمـع بـين خـصائص الدراما والكوميديا والغزل والجريمة واللغز والأدب المكشوف. ناهيك عن تبادل الأخبار والتعليقات السياسية والدينية والفكرية حسب طبقات المتحادثين والمتواصلين.

قبل عامين ، أعلنت الدائرة الفدرالية في ألمانيا أن الأقراص المتوفرة حتى الآن ، تتيح لهـا إمكانية الاحتفاظ بالاتصالات الهاتفية والإلكترونية في عموم ألمانيا لمدة ثـلاث سـنوات ، وأنها تبحث في إمكانيات تطوير قدرات الخزن.

وثمـــة تعـــاون دولي بـــين الـــدول المتقدمـــة والمتحالفـــة في هـــذا المجـــال. وبهـــذه

الخدمات تمَّ الوصول إلى أكثر من حالـة في ملابـسات عمليـات الإرهـاب داخـل ألمانيـا وأسبانيا وإيطاليا ، ويتم الكشف بين مدة وأخرى عـن جماعـات جديـدة مـن شـبكات الإرهاب أو الدعارة أو المخدرات الدولية.

في مكان سابق ، تمت الإشارة إلى بنوك الجينات في الدولة العـصرية والفـايلات الجينيـة [Genfiles] في دوائر الداخلية لكل شخص. وهنا يمكن الحـديث عـن ملفـات اتـصالية [communication files] لكـل شـخص توثـق جميـع اتـصالاته الـصوتية (mobile, chat) وصورية [email, message] على مـدى فـترة معينـة ، إن لم تتطـور الإمكانـات لقدرات خـزن لـسنوات طويلـة ، بالعـشرات أو المئـات ، بحيـث يمكـن لأجيـال لاحقـة الاستفادة من المعلومات الـواردة في بعـضها ، وربمـا يستـشف مـن بعـضها نبـوءات أو معجـزات تحـدث بعـد قـرون ، كـما استـشف البـشر مـن نـصوص وحفريـات العهـود القديمة.

طالما غـضب بعـض أفـراد الأجيـال الـسابقة وهـم يكتـشفون أن أحـد عـمال الهواتـف البريدية يتنصتّ على محادثاته الهاتفية مع صديق أو صديقة ، أو أن دائرة البريد تلجأ للإطلاع على مضامين رسائله السياسية أو - الغرامية - بعد أن تفتحها بطريقة (البخـار) ؛ لكن أبناء اليوم يندر أن يغضبوا أو يهتموا لوجود جهة تـسجل محادثـاتهم أو تراجـع رسائلهم الإلكترونية ، أو أن الشبكة تـرفض خدمـة توصـيل رسـائل معينـة ، أو انقطـاع خدمة الشبكة أثناء قيامه بعملية منافية لشروط الخدمة أو الحماية الدولية.

ان المعادلة في هذه الحال ، غير متوازنة الطرفين ، بـين الدولـة والفـرد ، أو بـين الـشركة (الدولية) والمستهلك.

ولا يرى كثيرون ، - راضين أو مكرَهين- ، ضيراً في التنصت ومراقبة اتـصالاتهم ، طالمـا أن الغرض من ذلك لحمايته وخدمته الشخصية ، من الشرّ المتربّص به ، أو بالمجتمع المدني الحديث جراء صراع الثقافات.

في حقيقة الأمر ، وكما أشير في فصل سابق ، أن الفرد (العـالمي) اليـوم لا يعـرف المـدى التي تصل إليه معلوماته ولا الأشخاص الـذين يتـداولون فيهـا ويعرفـون عنـه أشـياء لا يعتقد أو يذكر أنه يعرفها.

الفرد اليوم هو فرد (عالمي) رغمًا عنه ، وأنه بقدر مواكبته واستهلاكه لخدمات تقنيـات الاتصال الحديثة ، يزداد شهرة وعالمية على أولئك الأقل تـداولاً للخـدمات الاتـصالية أو يتعاملون بها بالكاد.

وهـذه هـي إحـدى صـور القريـة (العالميـة) ، أو حـصيلة الأحـلام العولميـة لمثقفـي السبعينيات وهم يتحدثون عن يوم يكون العالم فيه [مجرد قرية صغيرة] ، وأن الثـورة المقبلة هي ثورة اتصالات ومعلومات.

لا أحد توقع بالتأكيد أن الاتصالات ستخدم التجسس عـلى الحريـات الفرديـة ، ومرثـاة الرفاه الاجتماعي والمجتمع المثقف وعالم الأمن والإخاء والمساواة.

•

- التجسس الإلكتروني على الأفراد : ذرائع غير مقنعة وغايات غير مكشوفة

العبارة التي يوردها ميلان كونديرا في روايته (الهوية) (•) على لسان بطلتـه الرئيـسية : " هل تبين لك أنك حتى في بطن أمـك ، الـذي يقـال عنـه "مقـدَّس" لـستَ آمنًـا. أنهـم يصورونك ، يتجسّسون عليك ، لن تفلت منهم حيًّا ، هذا أمر يعرفه كلُّ الناس ، ولكنك لا تفلت منهم حتى قبل ولادتك ، كما لن تفلـت مـنهم بعـد موتـك!".. تتـضمن دلالـة كبيرة في نقـد (المدنيـة الحديثـة) ، عـبر محـاصرة الكـائن البـشري مـن كافـة الجوانـب وتحويله ، بالنتيجة ، إلى مجرد أداة (أسيرة) ، بيـد القـوة الـسوداء الحاكمـة ، أو مجـرد (فأر) في مختبرات العولمة.

في جـدول النكـات العراقيـة التـي انتـشرت أيـام الثمانينيـات ، أن شخـصًا رأى في

• ميلان كونديرا - (الهوية) - رواية - ترجمة : د. انطوان حمصي- دمشق- 1998- ص44

المنام حصول انقلاب على الحكم ، روى حلمه لأحد أصدقائه ، فوشى به الـصديق لـدى السلطات فأُعدم. وكان تعليق ضـابط التحقيـق : علينـا أن نـضع (كـاميرا) في رأس كـل مواطن ، لنعرف بأي شيء يفكِّر في النهار وماذا يحلم عندما ينام.

من المحتمـل أن تكـون هـذه إحـدى تـأويلات روايـة (قـصر الأحـلام) للكاتـب الألبـاني إسماعيل كاداريه (•). لكن ذلك لا يخرج بالموضوع عن إطاره ، فكرة السلطة والهيمنـة والعبودية ، الاستبداد والاستعباد.

•

أنماط التجسس التقليدية...

في ما يوصف بعصور الهمجيـة البـشرية ، كـان الاعـتماد الـرئيس عـلى الجهـد العـضلي (القوة الجـسمانية) في تحـصيل الحاجـات الفرديـة والجماعيـة ، وكـذلك ضـمان الأمـن والاستقرار السياسي والعـسكري. تلـك المراحـل اتـسمت بـسيطرة قـوى الطبيعـة عـلى مفاصـل الحيـاة. فكـان الخـوف مـن الطبيعـة والمجهـول مـبررًا للاعـتماد عـلى العنـف والعضل وبناء الجيوش.

بيد أن تطور قدرات البشر العلمية والعقلية وإمساكهم بمفاتيح وأزرار كثـير مـن أسرار الطبيعة والميكانيكا في المجتمعات المدنية لم يضع نهاية للخوف (من الآخر / الغريـب / المجهول). إن الذي اختلف مع مرور الوقت ، هو كيفية التعامل مـع المجهـول. بكلمـة أخرى ، كيفية الوصول إليه واستكناه جوهره وأبعاده.

هكذا ظهرت فكرة العيـون / (البـصاصين) ، أو المخـبرين (المخـابرات) ، والـوكلاء (الجواسـيس). وكـان هـؤلاء يخترقـون الأوسـاط المعاديـة بـصفات العـاملين في

• إسماعيل كادريه - (قصر الأحلام) - رواية.

التجارة أو مسوح رجال الدين. ومنه أن الرسول ترك عمَّه في مكة ليكون لـه عينًـا عـلى تدابير قريش ضد المسلمين.

وقد لقى كثير من الأوربيين الرحالة في البلاد العربية مصرعهم في القرون الوسـطى ومـا بعدها ، أثر انكشاف أمرهم بين القبائل والشكّ في حملهم معلومـات وأسرار تـستخدم ضدّهم ، وكان بين أولئك من كان في مهمة علمية أو بعثة ملكية كالبعثة التي أشرفـت عليها ملكة الدنمارك إلى الجزيرة العربية. رغم أن بعضهم كان يتحـدّث اللغـة العربيـة ويتظاهر بالإسلام ويحجّ إلى مكة وبيت المقدس ، وصـولاً إلى جـون (الحـاج عبدالـلــه) فيلبي ولورنس (ملك العرب).

وفي بلادنا كانت الشبهة تجعل كل من يؤيد الإنجليز (جاسوسًا لهم) ، أو يؤيد (ألمانيـا) جاسوسًا لها [•].

•

الدولة العصرية ومبدأ (للجدران آذان)...

في مسرحية عادل إمام (شاهد ما شافش حاجه) يقول المتهم للمحقق : هـو أنـا أعـرف اسمي أكثر من الحكومة !. تبين إلى أي مدى شـاع اتهـام الحكومـات العربيـة الـسابقة بالتجسس على المواطنين ، وبما سوغ تسميتها جمهوريات الخـوف ، أو وصـفها بالـدول البوليسية أو المخابراتية.

لم يخطر لأحد ، أنه بعد التخلص من تلك الأنظمة ، يتحول العـالم إلى خليـة مخابراتيـة تجسسية ، لا يستطيع مستخدمو الهواتف النقالة والإنترنت التخفي ثانية عـن الرقيـب السري / الإلكتروني.

لقـد أصـبحت أجهـزة (المراقبـة وجمـع المعلومـات) جـزءًا رئيـسيًا مـن الأجهـزة الأمنية للدولـة الحديثـة. وبالغـت بعـض الأنظمـة بتنويـع وتـصنيف أجهزتهـا الأمنيـة

• قضى المطرب العراقي المنولوجست عزيزعلي ثلاث سنوات في سجن العمارة (في الأربعينات) إثر الإدعاء عليـه ، بعلاقته بألمانيا الهتلرية.

والاستخبارية وزيادة حجمها ومواقع انتشارها. ولعل المرحلة الأخطر بين ذلك، أن يناط بمؤسسات الدولة وأعضاء حزب السلطة ، والأهلين من الحرفيين والمتماحكين يوميًا مع المواطنين ، بمهمة جمع المعلومات وتبليغ السلطات دوريا بالمتغيرات.

وكان المخاتير وأصحاب المقاهي والنوادي العامة وسواق الأجرة في صدارة وكلاء الأمن. بل أن الدولة (الشمولية) سخّرت كل الإمكانيات المتاحة بيدها لجمع ما يمكن من معلومات عن الأفراد الخاضعين لها.

واتخذت هذه مسميات متنوعة وتمويهية باختلاف الخطاب الإعلامي والأيديولوجي ، كالحرس الوطني ، الأمن المدني ، البوليس السري ، المخابرات والاستخبارات ، حراس الثورة أو الجمهورية.

ومن مظاهر تزايد أهميتها لدى أنظمة كثيرة ارتباطها المباشر بمكتب رئيس الحكومة (الدولة) ، وتحكمها في قطاعات الجيش والشرطة ومؤسسات الدولة والمجتمع المختلفة. كما يظهر من انتشار صيتها خارج الحدود الإقليمية مثل وكالة المخابرات المركزية (CIA) في الولايات المتحدة الأميركية ، و(KGB) في روسيا ، و(B15) في بريطانيا ، والموساد (إسرائيل) ، والسافاك والباسداريه (إيران الشاهنشاهية والجمهورية) ، والمباحث (مصر) ، والمخابرات والاستخبارات (العراق وسوريا).

وقد اشتهرت فضائح عديدة عن نشاطات هذه الأجهزة خارج حدودها الوطنية ، لاسيما ما يتعلق باغتيال المعارضين السياسيين ، وآخرها حادث اغتيال الكسندر ليتفيننكو (43 عامًا) (•) المسؤول السابق في المخابرات الروسية في العاصمة البريطانية يوم الخميس الثالث والعشرين من نوفمبر الماضي ، والتي تشير

• نشرت وسائل الإعلام قصة موت العميل الروسي السابق الكسندر ليتفيننكو بعد تعرضه للتسمم أثر تناوله وجبة (مسمومة) في مطعم وبار (Itsu) في البيكاديللي وسط لندن في الأول من نوفمبر. وقد عثرعلى آثار [polonium 210] السامة في المطعم ومكان قريب من سكنه. ولم يفلح الأطباء في إنقاذ حياته لتشبع جسمه بمركبات الغازات السامة التي أوردت الصحف تفاصيلها.

أصابع الاتهام إلى الحكومة الروسية.

والمفارقة هنا ، أن التجسس على المواطنين ، كان من التهم الجاهزة اللصيقة بالدول الاشتراكية إلى جانب انعدام الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لكنها اليوم صفة عامة للدول الغربية ، والتي اتخذت من أحداث نيويورك 2001 ، ذريعة لتوسيع نطاقها وتضييق الخناق على الناس إلى حد مصادرة مبادئ الميثاق الدولي لحقوق الإنسان الذي ميّز المدنية الغربية عن بقية بلدان العالم.

ولعل السؤال الذي يخطر هنا ، هو كيف تجري هذه الحوادث المريعة في ظل أجواء السيطرة والتجسس القائمة على أحدث الوسائل والأساليب الأمنية والتكنولوجية ؟.

وهو قريب من السؤال ، الذي تردد عن كيفية اختراق الطائرات الحواجز الأمنية المشددة للدفاع الجوي الأمريكي دون أن يشعر بها أحد !.

•

متحف المستقبل الإلكتروني...

[ARC] هو الاسم المختصر [Arts Electronic Centre] لمتحف المستقبل [Musem of Future] في النمسا العليا [Upper Austria]. وتلصق به لفظة [Arts] فنون ، لدعم التجارب الجديدة [Enterprice] في التعامل مع الأجهزة الإلكترونية وتوظيف الكمبيوتر لاختراق مجالات حياتية جديدة. وقد أنشئ قبل ربع قرن ليكون أحد ثلاثة مراكز من نوعها في العالم إلى جانب شيكاغو (الولايات المتحدة الأميركية) وطوكيو (اليابان).

يتضمن المتحف نماذج لإمكانيات عملية متعددة ، منها : الرسم الإلكتروني باعتماد الحركة أو الذبذبة الصوتية ، حيث يرتسم نموذج مظلل أو نقاط أو

محيط دائرة أو دوائر جراء حركة ذراع أو حدوث صوت. وتنعكس شدة القرب في قتامة وكثافة النقاط المتجمعة. إضافة إلى إمكانية مشاهدة (مراقبة) جوية لأماكن معينة بوضع جهاز يلبس على الرأس يتضمن ناظور وحاكية ، ويمكن للشخص ربط نفسه بحزام طائر ، يشبه ما يلبسه متسلقو الجبال والأماكن المرتفعة ، مربوط بنقطة في السقف ويمكن التحكم به بأزرار إلكترونية لتغيير الارتفاع والاتجاه والدوران والتقدم نحو الأمام أو التراجع ، بما يتيح للشخص رؤية الأماكن (المنظورة). ومنه جهاز يستخدم الأشعة السينية لرصد أماكن الحركة والتجمعات لأكثر من شخصين في أي مكان في المدينة. وتظهر صورة كتلة قاتمة طولية أو مستعرضة على شاشة كبيرة ، تبين حركتها ووقوفها. وهو من الأجهزة التي حصل عليها العراق في حرب الثمانينيات وكانت تستخدم في الخطوط الأمامية (ضابط الرصد) وكانت ترصد مساحة كيلو متر مربع أمام قاطع الوحدة ، مبينة حجم القوة واتجاه حركتها.

ومن النماذج المعروضة ، أجهزة مراقبة الطرق الخارجية في الولايات المتحدة الأميركية ، عبر كاميرات مثبتة في أقمار صناعية موجهة. وقد عرض برنامج أمريكي لرصد الجريمة ، ملاحظة البوليس في حجرة المراقبة اضطراب حركة سيارة على أحد الطرق الخارجية وانحرافها يمنة ويسرة ، وبعد اشتباه المراقبين أوعزوا لأقرب مركز بوليس لمتابعة الموضوع ، فانطلقت طائرة بوليس مزودة بأجهزة متقدمة استطاعت تصوير الأشخاص داخل السيارة وتسجيل الأحاديث الدائرة بينهم وكانا رجلاً وامرأة يتشاجران ، وكانت المرأة حامل ، وتطالبه بالتوقف. تدخلت الشرطة وأوقفت السيارة وتم معالجة الأمر.

•

التجسس العـام

- مباني المنشآت والأسواق...

إن وجود كاميرات مراقبة في أماكن عامة أو خاصة ، أمر قد يعرفه كثيرون ، لكـن مـا لا يعرف ، هو طبيعة الإمكانيات والخصائص الإلكترونية لهذه الأجهزة.

النموذج الأولي والـذي صـار تقليـديًا هـو مـا يـستخدم في الأسـواق الكبـيرة والمنـشآت والفنادق والمتاحف العامة ويقوم (موظف) خاص بمراقبـة شاشـات كمبيـوتر متعـددة تنقل زوايا ومداخل وبوابات المبنى أو مجريات بعـض الحجـرات. وقـد تـرتبط بعـضها بأقمار اتصالات صـناعية شـأن تلـك المركّبـة في قاعـات المحكمـة العراقيـة التـي تتـولى محاكمة أركان النظام العراقي السابق. ومن المسائل العادية اليوم وجود حجرة سيطرة (حراسة) إلكترونية في كثير من المرافق الرسمية والعامة والسجون ومراكز الشرطة التي تنقل ما تصوره الكاميرات المركّبة في أمكنة بعيدة.

- طرق المواصلات والتقاطعات المزدحمة...

بعـض الأجهـزة المركبـة عـلى طـرق (المواصـلات) الخارجيـة (أو الداخليـة) لا تكتفـي بتسجيل رقم العجلة ونوعها ولونها ، وإنما تصوير الشخص خلف مقود القيادة ، وبهـذا يمكن التعرف إذا كان الـسائق هـو مالـك الـسيارة المثبتـة معلوماتـه لـدى البـوليس أو شخص آخر.

أما السيطرة الإلكترونية داخل المدن ، والجاري في مدن أمريكية وبلدان غربيـة عديـدة ، فلم يعد خافيًا. ومثله الأبنية والمنشآت المراقبة إلكترونيا ، سواء حملـت علامـة تنبيـه [CCTV] أو لم تحمل.

الكثير من محلات البيع والفنادق تستخدم أجهزة المراقبة والتـصوير ، والمؤسـف استخدامها لغير أغراضها ، سيما ما يتعلق بمـشاهد العـري ونـشر أفـلام (بورنـو) مركبة ، مما وضع بعض الأشخاص تحت طائلـة القـانون ، مثـل الممثلـة الإيرانيـة

زهرة ابراهيم. ولا ننسى كثير من الأشرطة التي عرضها الإعلام الأمريكي في خضم حملته الدعائية ضدّ أسلحة العراق الذرية أو صور صوتية أو تلفزية لاجتماعات مزعومة لجهات معينة.

- مراقبة شوارع المدن وساحاتها الداخلية

يوجد نوعان من مستويات مراقبة المدن. الأول وهو ما سبق الإشارة إليه في متحف المستقبل الإلكتروني والذي يكشف مناطق الحركة والتكتلات البشرية (في الليل مثلاً) داخل المدن الكبيرة ، ويمكن الإفادة منه في الأحياء التي تتكرر فيها أحداث العنف أو اختراق قرار حظر التجوال الليلي في ظروف معينة ، أو مفاصل ازدحام السكان أوالسيارات.

وتعتمد لذلك أجهزة خاصة مركبة في أبراج التلفزة العالية أو النقل الفضائي أو الأقمار الصناعية. وتمتلك كثير من الدول (المتقدمة) أو الساعية في ركابها ، كالهند وباكستان أقمار صناعية لأغراض التجسس أو الاتصالات الفضائية.

أما الثاني ، فهو يعتمد أجهزة ذات قدرة تشخيصية دقيقة لنقل الصورة والصوت تركّب في شوارع وأحياء داخل المدينة ، مربوطة بأجهزة كمبيوتر ضخمة وشاشات سكرين متعددة داخل حجرات السيطرة والمراقبة في دائرة الشرطة المعنية.

وهي شائعة في كثير من مدن العالم الكبيرة ، والتي يشار لبعضها في المحلات العامة [CCTV Control Area]. وقد أشار رئيس الوزراء البريطاني في معرض تعليقه على تردي سلوك التلاميذ والطلبة وانتشار كتابات معيبة على الجدران ، في صيف العام (2006) ، إلى نصب كاميرات مراقبة في بعض الأماكن العامة.

وقد نشرت الصحف مؤخرًا تحت عنوان [MICROPHONES TO SPY ON STREET CHAT] خبرًا مفاده أن أكثر من ثلاثمائة كاميرا إنصات يتم

تركيبها في هولندا. تتضمن أجهزة إنصات عالية يجري تركيبها مع الكاميرات في الشوارع ويمكنها التقاط أصوات على مائة يارد. والغاية منها السيطرة على حالات العنف قبل وقوعها. ويعلق مسؤول في الداخلية البريطانية : وأنت تمضي في الشارع تتوقع أن بإمكانك عمل مناظرة خاصة. إذا لم تستطع أن تضمن ذلك ، وهنا يمكن أن يكون شخص يتحدث من الصنف الذي ينبغي حماية المجتمع منه. وهذا يعني إحكام السيطرة على السور.

يذكر أن كاميرات المراقبة الحالية تمسك ما يزيد على ثلاثمائة حالة يوميًا في لندن.

- **شبكات الحماية الإلكترونية للمدن...**

وأنت تقترب بالسيارة من حدود بعض المدن الغربية الكبيرة أو مراكز المقاطعات ، يمر الشارع داخل بوابات عالية أو أقواس تتوزعها أجهزة ضوئية وإشارات تحذير وتنبيه حول السرعة وغيرها. ولكنها في حقيقة الأمر تتضمن رادارات وكاميرات تشخيصية تتولى فحص وتمييز وتسجيل كل بيانات العجلات المتحركة خلال القوس ، وتنتقل المعلومات والبيانات المتعلقة بالعجلات والسائق لمراكز سيطرة الطرق الخارجية.

إن الأجهزة المتضمنة في أقواس المرور الخارجية لا تنحصر في رصد وفحص وإحصاء موديلات السيارات وصلاحيتها ، وإنما تتعداها لأمن الأشخاص والإجراءات الأمنية الخاصة بتجارة وتعاطي المحظورات من أسلحة ومخدرات وسجائر ومشروبات أو بضائع غير مرخصة وما أشبه.

لقد تمَّ ترجمة غريزة الكلب البوليسي على التحسس إلى مجسات إلكترونية عن بعد معين ، بحيث تلتقط إشارات محددة سرعان ما يجري تثبيت كل بيانات وصور السيارة المشتبه بها وملاحقتها فوريا.

ويتمتع البوليس الإنجليزي بإمكانيات فائقة الدقة والمرونة في رصد وملاحقة

المطلوبين والمشتبه بمجر خروجهم إلى الشارع. وتجري ملاحقة الشخص أو العجلة حتى في الأزقة الضيقة والمتفرعة داخليًا ، وذلك متابعة الحافر بالحافر ، بينما تكون دوريات أخرى تتقدم إليه من أكثر من اتجاه ، ودلك بفضل جهاز دليل المرور من نوعية خاصة تتبع الصورة أو الشاخص [figure] مع أدق التواصيف. ويتم إلقاء القبض على الشخص حتى لو كان داخل مجموعة أو زحام وبطريقة تثير الدهشة. ويتساوى في ذلك الهدف ، شخص أو سيارة أو كيس نفايات.

ورغم الازعاج والاضطراب الذي تتسبب فيه حركة عجلات البوليس من جانب السرعة الفائقة وأصوات التنبيه لإخلاء الشارع والدي قد يتضمن رتلاً من العجلات والدراجات البخارية ، لكن المهارة الأمنية للبوليس البريطاني يسجل معجزات حقيقية مند أحداث السابع من يوليو ، ويتمتع بصلاحيات وامتيازات يستحقها بالتأكيد.

في مكان تجاري وسط سوق شعبي مزدحم تحيط به المقاهي والمطاعم ومحلات التبضع الشرقية والأسواق الإنجليزية الكبيرة ، تمَّ القاء كيس بلاستك في حاوية نفايات موضعه أمام أحد المقاهي الشرقية. خلال بضع دقائق زعقت أصوات سيارات البوليس وتم اغلاق المنطقة ومحاصرة الموضع. ترجل بضعة أشخاص يرتدون بدلات ذات تجهيزات إلكترونية خاصة ، من حاوية النفايات وسط دهشة المارة وزبائن المقهى ، وجرى انتشال الكيس ، وبعد فحص محتوياته تبين أنه يتضمن مسدسًا من مسدسات الألعاب ، لا يمكن تمييزه عن المسدس الحقيقي.

لكن الأمر لم ينته عند هذا الأمر.

لقد جرى استخدام مسدس الألعاب هذا في جريمة مسجلة لدى البوليس ، وبدأت حملة تحري سريعة حول الشخص الذي ألقى بالكيس ، وباب العمارة الذي دخل فيه بعد التخلص من الكيس ، وجرى ضبطه واعتقاله فورًا.

لا أحد يتصور أن كيس نفاية مغلق يحظى بالاهتمام والرصد من الرقابة الوقائية ذات يوم. وظيفة هذه الشبكات بالدرجة الأساس حماية فضاء المدينة من أي محاولة اعتداء خارجي أو داخلي بالأسلحة التقليدية أو التكنولوجية الحديثة ، ناهيك عن تعقب المطلوبين أمنيًا أو جنائيًا في قضايا محلية أو دولية.

وتستخدم لأجل ذلك مجسات إلكترونية ذات قدرات تحسس دقيقة لمختلف التغيرات والتوترات من درجات تهديد محددة ، يتم تركيبها في أقمار صناعية موجهة أو أبنية عالية تغطي البقعة الجغرافية للمدينة.

وهي بذلك تشترك مع أجهزة الأرصاد الجوية واستقبال الإيعازات الخاصة بحركة الطيران بوظائف جديدة أكثر تعقيدًا وتنوعًا. وتأتي هذه الإجراءات بعد أحداث العنف التي شهدتها مدن أميركية أو هجمات الغاز في عاصمة اليابان.

إن البرنامج الذي وقَّع عليه الرئيس الأميركي والممثل الأسبق رونالد ريغن في الثمانينيات ، هو برنامج دفاعي حمل اسم (حرب النجوم) [STARS WAR] وهو الاسم الذي حملته ودارت حوله كثير من أفلام هوليود للصغار وللكبار ، يبدو قابلاً للتصديق عندما يتأمل المرء الخيال (العلمي) البعيد لإجراءات الحماية والأمن الغربية والذرائع والإشاعات التي يتم تسريبها بين الحين والآخر ، لتبرير انتهاكاتهم الحياة البشرية بعد انتهاكهم قواعد حماية البيئة.

•

التجسس الشخصي...

- التجسس الإداري الحكومي

البيروقراط كلمة تعني (طاقم المكاتب)=الجهاز الإداري. لكن دلالتها اليوم تشير إلى الروتين وانتشار الأمراض الإدارية في العمل والتعامل مع الأشخاص.

وتتخذ (الأوراق) مرموزًا رئيسًا في تمثيل الإدارة والموظف. لكن تراكم هذه

الأوراق بشكل يتجاوز الحاجة وحدودها والمنطق العام هو ما يسيء إلى الشخص وعملية الإدارة على السواء.

وفي الإرث الروماني كان الموظف عند الحكومة يدعى : أيديت (idiot) ، وهي اليوم تشير إلى مرض عقلي (idiocy) وتستخدم شتيمة عند الألمان.

تتوفر كل شعبة إدارية اليوم على كم هائل من الاستمارات والنماذج لكل حالة وغاية وخصيصة. ولغرض معين قد يتعين على الشخص إملاء أكثر من استمارة وملف. وليست المشكلة في الاستمارة ، التي تعتبر تسهيلاً واختزالاً لكثير من الجهد والكلام ، وأقرب للدقة عند إملائها الصحيح. المشكلة في تضمين الاستمارة أسئلة واستفسارات شخصية لا تتعلق بطبيعة المعاملة وكثير من هذه الأسئلة ، تمسّ الحقوق والحريات والمعتقدات الخاصة ، أو بيانات أولية عن حياته وعنوانه وعمله سابقًا ونسبته الأثنية [ethnic race] ، مما يدخل في باب المعلومات الأمنية ، ناهيك عن طلب أرقام هواتفه في البيت والعمل والشخصي وعنوانه الإلكتروني ، وأحيانًا أسماء وهواتف أصدقائه المقربين.

وتتكرر هذه المعلومات مع كل معاملة ودائرة ومراجعة. وليس على المواطن غير الرضوخ والتوقيع على إقرار بصحة المعلومات وقبول مقاضاته وحرمانه من الحقوق عند مخالفتها الحقيقة.

وقد استمرأت الشركات الخاصة والمؤسسات الأهلية تقليد استمارات الحكومة في معاملة المراجعين ، ولأتفه الأسباب ، ناهيك عن تضييع الوقت والجهد واختبار مدى طواعية الشخص للرضوخ والتحمل والاستفزاز.

وكثير من البسطاء يقعون في مغبة تقديم معلومات لا ضرورة لها ، ويمكن أن تستخدم ضدّهم من قبل جهات لم يتصلوا بها. وإذا كانت دوائر الحكومة تتمتع بضمانات حماية معينة ، فالمؤسسات الأهلية تتعامل في أفق مفتوح ، مع سلسلة شركات ومؤسسات تتجاوز حدود الدولة إلى مؤسسات أجنبية.

الملاحظة الأكثر أهمية هنا ، هي الصلاحيات التي تمنحها الدولة (بحكم القانون)

لنفسها لمراقبة نشاط الفرد الاقتصادي وعملياته البنكية وملفاته الأمنية أو الصحية.

- الداخلية وبنك الجينات...

لم تعد المعلومات والاستمارات الأمنية وتقارير المخابرات والشرطة المحلية والدولية تشبع نهم أو جوع السلطات الأمنية في التجسس على المواطن والاجتهاد في صنع حلقات خناقات جديدة تلتف حول رقبته وليس حول رجليه ويديه ، وذلك هو بنك الجينات [Bank of Gens]. فبحسب مستودعات هذا البنك ، يمكن الاستدلال إلى كشف أي جريمة خلال ساعات قليلة. أن أي قطعة ثياب أو شعرة أو قطرة دم أو إفراز سائل أو أداة مستخدمة في جريمة تكشف هوية جينات الفرد القائم بها. وبالتالي ، فوجود ملف جيني لكل شخص لدى البوليس يساعد في الاستدلال عليه.

ويلقى هذا الأمر معارضة هو الاخر من ناشطي حقوق الإنسان ، ويحذرون من عواقب التشخيص أو الاستخدام الخاطئ لهذه المعلومات. سيما بعد اتهام سلطات الداخلية شخص بمسؤولية جرم معين ، ثبت أنه لم يكن موجودًا في البلاد خلال وقوع الجرم.

ومع ذلك تسعى الدول لاستكمال ملفات بنوكها الجينية لأكبر عدد من مواطنيها. وهنا يظهر أثر التعاون الحميم بين مؤسسات الصحة والداخلية من وراء قفا المواطن. وإذا اعترض ، فمن يسمعه ؟!.

- التجسس الطبي...

كلما زاد اعتماد الإلكترونيات والتقنيات الحديثة في المعالجة والحفظ والاتصال زادت نسبة التجسس واحتمالات سوء استخدام المعلومات ضدّ الشخص.

تبدأ العملية كما أشار إليها كونديرا منذ أسابيع الحمل الأولى ، حيث تلزم المرأة الحامل بمراجعة دورية للطبيب الاختصاص ، تستمر ما بعد الولادة ، إلى سن

الثلاثة سنوات في المرحلة الأولى ، وحتى سن دخول المدرسة في المرحلة الثانية. إن المعلومات التي يخزنها الكمبيوتر (الطبي) في ملفة الشخص لا حدود لها ، ولا توصيف لأبعادها ما يختص بأجهزة الجسم المختلفة ووظائفها ، وخصائص الجينات الوراثية التي هي مستودع تاريخه السلالي وتصنيفه النفسي والعقلي والجسدي.

تبقى هذه المعلومات في ذاكرة الكمبيوتر والمتعاملين معها ، ولا يعرف عنها الشخص أو عائلته شيئًا ، ولا يخامر أحدًا الشكّ ، في السؤال عنها أو الإطلاع على تفاصيلها ، إن لم يكن من أهل الاختصاص ، وتقوده إليها الصدفة.

مثل هذه الصدفة يختلقها الدكتور علي القاسمي في قصة (أخضر العينين) والتي تدور حول علاقة بين هيام وكمال الفائق الجمال ، بالمقارنة بوالديه الدميمين لدى تعرفها عليهم ، فيخامرها الشك والفضول لتقصي الأمر.

[إذن ، ستلعب هيام دور المفتش السرّي شارلوك هولمز ، وستبحث عن مفاتيح السرّ. ستضع يدها عليه. ولا بدّ أن تبدأ من حيث يجب أن تبدأ. من المستشفى الذي ولد فيه كمال. ستطلع على تفاصيل ولادته / (ص47) [•].

وبينما تجلس أمام حاسوبها وهي تتفحص شبكة المعلومات الدولية بحثا عن عناوين مستشفيات الولادة في مدينة إيستلانسنغ في ولاية مشيغان حيث درس أبوه ، تذكرت أن إحدى صديقات الطفولة تقيم هناك في مشيغان ، وقد تستطيع مساعدتها إن هي طلبت منها ذلك / (ص48).

وصلها الجواب وراحت عيناها تكرع الرسالة كرعًا وتقرأ : " يمثل كمالك هذا أوج معطيات تكنولوجيا الجينات والهندسة الوراثية في أمريكا قبل ربع قرن. ركّبه الباحثون في مستشفى مشيغان التجريبي ، استجابة لقائمة طويلة من المتطلبات والأمنيات التي طرحها والده على مجموعة الباحثين ، وتشتمل على

• د. علي القاسمي - (صمت البحر) - مجموعة قصصية - دار الثقافة - الدار البيضاء.

جميع المواصفات الجسمية والنفسية المثالية وطبعًا لقاء مكافأة مجزية" (ص49).

كم من الناس يخطر لهم وتتاح لهم مراجعة ملفات أزواجهم الجينية قبل الـولادة كـما فعلت هيام ؟ وهل ذلك ممكن بهذه السهولة ؟. لا بدّ أن قـوانين خاصـة بهـذا المجـال سوف تحدد ذلك.

ويستمر الكاتب إلى ذروة المكاشفة. [لا بدّ أن الباحثين شخّصوا كل المورّثات الطبيعية للغيرة والرضى ، والحزن والفرح ، والكره والحبّ ، ففرزوها ونزعوهـا مـن كـمال. تـرى هل عاد بشرًا سويًا وهو محروم من جميع المشاعر البشرية التـي تجعـل مـن الإنـسان إنسانا ، أم أنه مجرد إنسان آلي يتحرك وفق برنـامج منطقـيّ عقـلانيّ ؟... هـل سـأتزوج إنسانا يشاركني مشاعري أم كائنًا مركّبًا تركيبًا اصطناعيًا في المختبر ؟ / (ص50)].

وغير الولادة ، فإن كثيرًا من المعالجات والتـداخلات الجراحيـة تجـرى اليـوم مبـاشرة أو غـير مبـاشرة بـالأجهزة الإلكترونيـة واسـتخدام تقنيـات الكمبيـوتر لحفـظ المعلومـات وتسفيرها. وبالتالي فإن السجل الصحي والمرضي للـشخص موجـود في ذاكـرة الكمبيـوتر الموصول بشبكة الإنترنت العالمية ، ويستطيع العاملون في الجهـاز الـصحي والمتـوفرون على كلمة السرّ [pass word] أو الكود [code] ، وعندها لا يصعب عليهم شيء.

وإذا كان قراصنة الكمبيوتر يخترقون أجهزة البنوك والسلاح اليـوم ، فمـن يمـنعهم مـن اختراق أنظمة الصحة والتلاعب والمتاجرة بها.

بالمقابـل ، تتـداول بعـض دول الاتحـاد الأوربي فكـرة [medical card] الكـارت الصحي أو البطاقة الإلكترونيـة لكـل شـخص يتـضمن عليـه كافـة ملفـه وبياناتـه الصحية وتاريخه المرضي ، لتلافي فترة الانتظار ريثما يتم ارسال ملفه الـصحي مـن مستشفاه الأصلي عند تعرضه لحادث طارئ ، ويقلل من الروتين والعمل الإداري. ويـشبه هـذا الكـارت البطاقـة الشخـصية أو البطاقـة الخاصـة بالبنـك لـسحب

النقد والإطلاع على حسابه الشخصي. لكنه يواجه معارضة لسهولة سوء استخدامه في هذا الحال.

•

- العلم والمصداقية الأخلاقية...

انحراف وظيفة العلم من خدمة الإنسان إلى الأضرار والتنكيل به والاعتداء على حقوقه أحد المبادئ التي انطلق منها تيار معاداة التكنولوجيا والذي تبلور في تيار مناهضة العولمة. وقد مرّ هذا الانحراف بثلاثة مراحل أو أنماط :

1. عبودية اقتصادية (الرأسمالية الإمبريالية).
2. عبودية تكنولوجية وإلكترونية (واستخدامها لأغراض تضرّ بالإنسان وكيانه).
3. انتهاك الحرية والحقوق الشخصية (عبر تضمين الملفات الرسمية معلومات لا ترتبط بغاية الاستمارة- ولأغراض أمنية استخباراتية).

لقد بذلت الجماعات المناهضة جهودًا جبارة في وجه عجلة الإمبريالية والتكنولوجيا الرأسمالية ، وباستخدام الإعلام والأدوات السلمية منذ السبعينيات ، في الدفاع عن البيئة وفضح التجارب النووية والأسلحة الممنوعة ، وصولاً إلى مناهضة الأغذية الصناعية [gentechnic food] إلى اجتماعات قمة الثمانية. اضطرت معه الدول المضيفة إلى التكتم على مواعيد الاجتماع أو أماكنها أو منع الناشطين من دخول البلاد واعتقال أعداد منهم ، أو استخدام قوات أمنية تزيد على أعداد الناشطين عشرات المرات. لكنها في نفس الوقت عمدت إلى تشويه عمل أولئك الناشطين ، واتهامهم بالقيام بأعمال عنف ، والإضرار بالممتلكات العامة ، لمجرد تنظيف الطريق من المعارضين لسياساتها وممارساتها الشوفينية التي وضعت المجتمع البشري والمدنية الغربية على محك امتحان أليم وطريق اللا رجعة.

إن دول العالم مجتمعة لا تعرف ماذا تعمل لوقف تدهور البيئة والغلاف الجوي وكيفية حماية حدودها من العنف الدولي ووقف انتشاره وتماديه في الشرق الأوسط ، ومصير القرية العالمية الإلكترونية المخترقة من كل الجوانب.

•

إن جُملة منظومة الأُطر "التجسسية" المحيطة بالفرد المعاصر في المدنية الغربية اليوم ، بالإضافة إلى بقية المؤسسات التي تقتسم قطاعات الحياة والنشاط الاقتصادي والثقافي العام ، تجعل من الشخص [دمية] صغيرة معلقة في فضاء ، بمجموعة متعددة من الخيوط والمجسّات من كافة جهاته.

قد يعتقد البعض أن هذه الأطراف لا تعيق حركته أو أنها تدعمه وتحميه ، لكن الأثر النفسي لمجرد شعور الشخص بأنه تحت المراقبة ، يكفي لتصعيد وتيرة التوتر لديه. وتأكيد مسألة أنه تحت الاشتباه المستمر حتى تثبت براءته.

في القوانين التقليدية لم يكن ممكنًا التعرض للفرد بكلمة أو فعل بدون إذن رسمي خاص ونص قانوني. أما اليوم ، فثمة إذن عام ، ويوميا تحصل الشرطة على صلاحيات متزايدة في التعرض للمواطنين ، بذريعة الأمن العام.

هذه الصلاحيات المتزايدة لأجهزة الأمن والجيش هي في نفس الوقت اختزال لحقوق المواطن وانتقاص حريته الفردية وتحديد نشاطه ووضع وجوده وكيانه في خانة الاشتباه والمهانة ، بينما يحمّل بالمقابل مسؤولية كل ما يجري ، بشكل مباشر أو غير مباشر.

وأخيرًا... ألا تضع الجرائم والأحداث التي وقعت حتى اليوم ، الممارسات والإجراءات الأمنية المتواصلة في محل تساؤل وارتياب ، وتفرغ مبرراتها المزعومة من أي مصداقية ؟.

فرنكشتاين المسكين

الدعاية الأميركية المضادة لنظام صدام حسين لقيت استجابة غير متوقعة من قبل بعض العراقيين ، وبشكل فوري يفوق التصور ، وهو أمر لم يحدث في ألمانيا رغم مرور أكثر من نصف قرن على الدعاية المضادة لهتلر والمستمرة في الإعلام الغربي.

خلال زمن يسير أصدرت المطابع الغربية مئات الكتب عن صدام ونظامه والعراق ، ولم يكن يمر يوم لا يتردد فيه اسم الرئيس العراقي الأسبق في وسائل الإعلام. ولم يتأخر العراقيون في الاستعراض والمشاركة ضمن الدعاية الغربية المضادة لبلادهم ، مانحين أنفسهم صورة الضحية. فيما كان تركيز الإعلام الغربي على الكرد باعتبارهم الضحية الكبرى لنظام صدام ، في مقابل استخدام اليهود في حالة هتلر.

الدعاية الأميركية ضد صدام حسين كانت صورة طبق الأصل من دعايتها ضد هتلر ، مع فارق واحد ؛ أن دعايتها ضد هتلر جاءت بعد موته ونهاية حُكمه ، بينما كانت دعايتها ضد صدام خلال حياته.

وحتى اليوم تعتبر مواد الحرب الإعلامية الأميركية ضد أعدائها حقائق علمية وسياسية فوق مستوى الشك أو المناقشة على الصعيد الإعلامي أو الأكاديمي أو السياسي ، وتلاحق العقوبات الجائرة كل من يتعرض لها من قريب أو بعيد.

فرانكشتاين- مصطلح أميركي ذي صيغة لغوية جيرمانية ، يتكون من مقطعين: فرانك ، كلمة تعود على الفرنسي / الفرنجي ؛ وشتاين ، لفظة ألمانية بمعنى (حجر) ، وتستخدم أداة نسبة تلحق بها أسماء الأمكنة والإعلام والأشخاص مثل بورغرشتاين وآنشتاين. وتقابلها بالإنجليزية كلمة (ستون) بنفس المعنى والنسبة في الأسماء مثل : ونستون ، كنغستون ، برنغستون. والاستخدام الأشهر لها منذ

أيام الرومان هو : مايل ستون [milestone] المستخدمة في تحديد المواقع الجغرافية وحساب الطرق ، وتعادل نقطة الصفر في اللغة العربية.

لماذا (فرانكشتاين) وليس (انغلستون) مثلا ؟...

لابد من هذا السؤال للوقوف على المرجعيات الثقافية التاريخية في اختيار ونحت المصطلحات ، كما أن المصطلح عمومًا لا يولد مرة واحدة ، قبل أن يمر بمراحل من الاستعارة والكناية والاستدلال الشعبي قبل أن يأخذ صياغة رسمية ثابتة تحل محل سواها. والمصطلح حسب تصنيفه في قاموس الذم ، استند إلى مدلول تراثي قديم يعود في أصله لتلك العلاقة أو النظرة السيئة للأميركي نحو الفرنسي تحديدًا ، والعنصر الأوربي الجيرماني عامة.وقد كان الفرنسيون في صدارة الأوربيين في استيطان العالم الجديد الشمالي عقب استئثار الأسبان والبرتغاليين بأميركا الجنوبية. لكن فكرة الإصلاح الإنجيليكاني انطلقت من إنجلترا ، مستخدمة التأويل التوراتي لاعتبار الأرض الجديدة هي كنعان - أرض الموعد ، التي حولت موجات البحث عن الثروة إلى حملات صليبية لإعادة استيطان واحتلال الأرض ومنحها مسميات أرض كنعان ورموزها الدينية. فالحروب الأهلية الأمريكية كانت في أصلها بين المكونات الأوربية المتعددة للمستوطنين والقراصنة التي أخذت صور تحالفات شمالية جنوبية ، شرقية غربية. وتقسيم القارة الشمالية إلى ثلاث دول شمالية وجنوبية وبينها الولايات المتحدة الإنجليزية هي من آثار الصراع القديم على الأرض الجديدة. بل أن الآثار القديمة ما زالت تطبع العلاقات الأميركية مع كل من فرنسا وألمانيا ، بالمقارنة مع العلاقات الودية المتماهية في بعضها بينها وبين إنجلترا.

أول استخدام أدبي للكلمة جاء في رواية ماري شيللي التي حملت عنوان (فرانكشتاين) عام (1918م) واستعيرت عام (1910م) في فيلم من إنتاج ستوديوهت أديسن ، ومنذئذ تعددت استعاراتها واستخداماتها في مجال الأدب

والفن والعلوم. ومنها رواية الدوس هكسلي (عالم جديد آمن) (1932م) ورواية جـورج أورويـل المـسماة (1948) ، اللـذين اسـتخدما الشخـصية في مجـل النقـد الـسياسي ، وتحولت لدى الأخير إلى الدكتور فرانكـشتاين. وفي بـاب الدلالـة عـن كـل عمـل شريـر يسجل ضد مجهول ، أو لا يجرؤ الناس على تسمية من وراءه.

والاسم الكامل للشخصية التي يتعدد التأويل حول مرجعيتها التاريخيـة هـو (فيكتـور فرانكشتاين) كناية عن شبح غير منظور ، يتحكم في الجانب السيء من حركة الواقع.

مصطلح فرانكشتاين يقابل مصطلح "علي بابا" أو "حسن الأسـود" في القـرون الوسـطى في وصف الغرب للعثمانيين مثلاً. ومـا تـزال ثمـة ألفـاظ رمزيـة نابيـة توصـف بهـا كـل جماعة أو شعب غير أوربي الأصول.

يبقى أن شيوع أو إشاعة فرنكشتاين عالميًا يأتي ضمن تيار العولمـة ومـنح المـصطلحات والرموز الأميركيـة صـفة عالميـة موحـدة ، مثـل الثيـاب الجلديـة والكـابوي والوجبـات السريعة كالمكدونالد والبورغر والهوت دوغ وغيرهـا مـن منتجـات الـسينما والـسياسة والحياة اليومية الأمريكية .

وليس من الغريـب أن يكـون العـراق المحتـل أول حاضـنة لمنتجـات الـسوق والـسلاح والثقافة الأمريكية ، ومن بينها مصطلح الإرهاب وفرنكشتاين. وليس من الغريب أيـضًا ان يكون نـوري المـالكي – رئـيس وزراء حكومـة الاحـتلال [2006- 2014م] - هـو مـن يصدر "قانون "4 إرهـاب لملاحقـة وتـصفية كـل مـن ينـاوئ الاحـتلال وزبانيتـه ، فـيما تسجل كل أعمال العنف والجريمة والتـصفيات الفرديـة والجماعيـة ضـد مجهـول عـام اسمه الحركي (فرنكشتاين).

هذا الشبح أو المجهول السياسي في الديمقراطية الغربية ليس سـوى الـسلطة الـسياسية ومن يحبك خيوطها من وراء الكواليس.

•

- تطبيق عراقي...

الولايات المتحدة التـي احتلـت العـراق عـام (2003م) لم تـأت بمفردهـا ، وإنمـا نقلـت بمجيئها تنظيمات القاعدة من أفغانستان إلى العراق ومن تـورا بـورا إلى الفلوجـة. وتـم تسجيل كل أعمال المقاومة ضد الاحتلال والعنف المحلي باسم (القاعدة) التي كان لهـا وجود متواضع على الأرض ، ولكنه وجود خيالي تبالغ فيه وسائل الإعلام.

هدف الولايات المتحدة من وراء الاستخدام الإعلامي لاسم القاعدة كان مزدوجًا: أولهما ، دفع العراقيين للترحيب بالاحتلال الأميركي لبلادهم ، والثاني أن للقاعدة وجـود رئيـسي في العراق ، يدعم مزاعمهـا الـسابقة عقـب انفجـارات نيويـورك حـول علاقـة القاعـدة بنظام صدام.

وبحسب الروح الأسـطورية لدلالـة فرانكـشتاين ، فقـد صـورت وسـائل الإعـلام رمـوز القاعدة تصويرًا أسطوريا بدءًا من شخـصية بـن لادن نفـسه إلى أبي مـصعب الزرقـاوي وأبي أيوب المصري وغيرهم ، قبل أن تتبخر تلك الصور والرموز وتظهر شخصية أبي بكـر البغدادي عقب الانسحاب الأمريكي الرسمي من العراق وتجـري نـسبة أعـمال العنـف والمقاومة والمعارضة إلى تنظيم داعش الذي وصفه المؤرخون الغربيون باعتبـاره الجيـل الثالث من تنظيم القاعدة.

ولم ينقطـع الإعـلام العراقـي الرسـمي عـن ترديـد اسـم القاعـدة ونـسبة كـل الـشرور المصاحبة للاحتلال والفساد السياسي إليها.

في السياسة المحلية كان ثمة شبح آخر يتهدد مناماتهم ويقظتهم ، ليس هو شـبح القاعـدة الإعلامـي الـذي يعرفـون حقيقتـه أو مغـزاه الرسـمي. فقـد تعـارف المسؤولون المحليون في كل موضوع يتعلق بمطالـب النـاس للإصـلاح والخـدمات البلدية لتوجيه أصـابع الاتهـام للنظـام الـسابق وحجـم الخـراب المـوروث ، مـع ترديد وترويج المطالبة بتطبيـق قـانون اجتثـاث البعـث كـضرورة لعـودة الأمـن

والاستقرار والتنمية. وكان نوري المالكي أكثر مسؤول رسمي اعتاد ترديد اتهاماته لحـزب البعث في معظم خطاباته ، وسيما للرد عـلى المظـاهرات الـشعبية التـي عمَّـت بغـداد والمحافظات العراقية عام (2011م) متهما إياها بوقوف البعث وراءها ، ومـبرِّرًا لنفـسه بذلك تسليط مليشياته الأمنية الرسمية وغير الرسمية لمنعها وتصفية نشطائها.

وبينما تحولت المظاهرات في المحافظـات الغربيـة الـست إلى اعتـصام مفتـوح ، أطلـق العنان لاستخدام أنـواع الـبطش العـسكري والبوليـسي والـسياسي ، واصـفًا المعتـصمين ومطالبهم الوطنية بمؤامرة بعثية ، وبالشكل الذي أنـتج مـا دعـي لاحقًـا بأزمـة الأنبـار ومجازر الفلوجة والحويجة وظهور تنظـيم داعـش في يونيـو (2014م) وسـيطرتها عـلى أربع محافظات شمال وغرب العراق وطرد قـوات الحكومـة ، مـما شـكّل سـببًا مبـاشرًا لسقوطه وتحميله مسؤولية الأحداث.

حـزب البعـث في تاريخـه وفكـره ونـشأته كـان حزبًـا عربيًـا وطنيًـا ، عُـرِف بـسياساته التنموية ونهجه الواضح والصارم في التـصدي لقـوى الاسـتعمار والـصهيونية والرجعيـة المحلية. وقد أنجز خلال حُكمه نهـضة عمرانيـة وثقافيـة وتنميـة اجتماعيـة اقتـصادية يشهد لها المعنيون. كما بنى أحد الجيوش العقائديـة القويـة في المنطقـة والعـالم ، مـما سوغ استهدافه من قبل القوى الإمبريالية العالمية.

ولكنه في نفس الوقت ، ومثل كل الأنظمة الأخرى ، لم يكن معصومًا من الأخطـاء عـلى الجانب الآخـر ، وفي مواجهـة التحـديات المحليـة والإقليميـة المناوئـة لخطـه الـسياسي وقوته المهددة لمستقبلها. تلك القوى غير البعيدة عـن مـمالأة الأهـواء الخارجيـة وكـما أعلنت الأيام حقيقتها اليوم.

هـذه الـصورة المـوجزة بكـل تفاصـيلها ، هـي موضـع حـرج وأرق وتحـدي للطغمـة السياسية التي جاءت مع الاحـتلال ، سـواء في نـشأتها وتاريخهـا أو في أدائهـا وولاءاتهـا الخارجية المفضوحة. فحاولت عبر تشويه النظام السابق تبرير نفسها وإسباغ نـوع مـن الشرعية على نفسها وانسياقها مع العدو.

عمدت كل سياسة الاحتلال والحكومة المحلية لاستخدام مسميات القاعدة والنظام البعثي للتغطية على مشروعها التخريبي واللا إنساني في العراق والمنطقة ، مطلقة العنان لنفسها لتحقيق الاستغلال الأمثل لفرصتها التاريخية النادرة ، بشكل غيب عنها وعي الجماهير للعبة ، وعدم خنوعها الأبدي.

ففي الحادي والثلاثين من يوليو (2015م) سقطت عباءة فرانكشتاين وانكشفت عورة الاحتلال وزبانيته وعادت الجماهير العراقية لتأكيد مطالبها الوطنية بالإصلاح ومكافحة الفساد والمفسدين.

وفي حين لم يتورع ساسة الاحتلال في تسمية رموز القاعدة والنظام السابق في باب الاتهام والتجريم ، صدرت تعليمات رسمية ودينية مشددة بعدم تطرق المتظاهرين للمسميات السياسية والدينية ، وحصر المطالب والشعارات في الأُطر السلمية العامة.

فالسلطة السياسية وباسم الديمقراطية والعمل المدني ، تستمر في الدفاع عن فلسفة فرنكشتاين وعدم إسقاطه سياسيًا.

وإذا كانت الثقافة الغربية على مدى يقارب القرن حتى الآن ، قد حافظت على معصومية الشبح الشرير ، فإن نسخته العراقية والعربية في طريقها لحفظ التقليد الغربي وتعريبه وتعريقه لخدمة سلطة الشر الديمقراطية ، وإبقاء الجماهير في حلبة الدوران حوله.

الوجودية والعولمة

- محاولة في استقراء الواقع الإنساني -

يمكن توصيف التاريخ البشري في ثلاثة مراحل أو عناوين رئيسة :

- صراع مع الطبيعة
- صراع مع الحضارة
- صراع مع الذات !

•

الإنسان الطفل والطبيعة الأم...

فتح الإنسان عينيه ، فوجد نفسه في الطبيعة / على تماس مباشر وغير مباشر معها ومع تأثيراتها.

كأي طفل ؛ يكتشف ، يتعلم ويتلذذ... ومثل الطفل تنقصه التجربة والوعي ، ولا يكاد يميز / أو يعرف ما هو جيد وما هو سيء. لم تكن الذاكرة قد تكونت بعد ، ولا المدارك... وكانت المشاعر في غضاضتها الأولى ، لم تنضج ولم تتولد العاطفة.

يختلف العلماء والفلاسفة والمؤرخون في تقييم الكائن البشري الأول وتوصيفه وتفسير كُنهه وأصله ومآله عمومًا. وعلى صعيد أدقّ ، الاختلاف في تمييزه عن الكائنات الحياتية الأخرى ومنها الأقرب شبهًا إليه ، بدءًا من الفقاريات حتى الهومو سابينز (Homo-Sapiens).

هل يكمن امتيازه في الشكل ، أو العقل ، في قواه الظاهرة (الجسدية) ، أو قدراته العقلية ، في خصائصه النفسية أو لغز الروح ؟.

الإجابة هنا تختلف ، باختلاف المنظور المستخدم في الرؤية ، وطبقًا لمرجعيات

القراءة ، مع الأخذ بنظر الاعتبار ، أن كل مرحلة من المراحل ، استتبعت مفهومها الخاص ، ومن المبالغة بمكان ، افتراض ، أو تصور حريتنا المطلقة في إمكانية النفاذ للمفاهيم الفكرية والاجتماعية والنفسية في علاقتنا مع (الآخر).

في هذه المرحلة تراكمت التجربة وتشكل الوعي ؛ الذاكرة والمعارف ، المدارك والأحاسيس وبدايات العواطف. وبدأ الإنسان حثيثًا في توظيف تجاربه ومداركه ومعارفه لتسخير مقدرات الطبيعة للاستفادة منها في تأمين احتياجاته اليومية ، الفردية والاجتماعية.

•

من الطبيعة إلى المادة... الخط أو المثال

لم يعد الإنسان عبدًا مطلق التبعية لمقدرات الطبيعة ، وفي هذا امتياز عن عالم الحيوان ، وكلما زاد استقلاله عن عوامل الطبيعة وتأثيراتها ابتعد في مضمار الحضارة ، وامتاز الأفراد والجماعات البشرية عن بعضهم البعض بذلك.

لكن السؤال هنا :

إلى أي حدّ استطاع الإنسان تقليد الطبيعة وتسخيرها لاحتياجاته ؟.

إن الطبيعة في سماتها وخصائصها هي صورة للكمال والمثال ، فهل كان الكمال سمة أو خاصة لعمل الإنسان ونشاطاته الأرضية ؟. ان الطبيعة بجريانها الدوري المنتظم ، تنتج تراكمًا معرفيًا يساعد في تقدير تبعاتها والتحسب لها في جانب الطمأنينة والفائدة. ولكن النشاط الإنساني يفتقد سنة الجريان الدوري وفق حسابات رياضية فيزيائية وزمانية دقيقة ، تؤهل للتحسب لما يطرأ عنها.

في هذه المرحلة ترتبت آثار سلبية ثانوية أو رئيسة أحيانًا ، تبع النشاط البشري وتحول الصراع من اتحاد البشر في مواجهة عوامل الطبيعة ، إلى تمزق البشر في فئات متصارعة ضد بعضها.

ليس من باب الصراع على القوت والاستقرار ، وإنما عمل كل جماعة لتفادي أخطاء الجماعة الأخرى ، وتقليل المضار الملحقة بها.

ومن هنا ظهرت عوامل متعددة تحكمت في إنتاج التمايز الحضاري والاجتماعي والاقتصادي بين الجماعات البشرية أولاً ، وبين الأفراد داخل الجماعة الواحدة نفسها (التفاوت الطبقي واختلاف المصالح).

•

فكرة الشرّ والفضيلة

الحضارة باعتبارها منتجًا بشريًا تتشكل من صنفين من الإنتاج : المادي والعقلي. وهذا يقود إلى التمييز بين الحضارات المتعددة ، ما يعتمد الإبداع والتجديد منها ، وما يعتمد التقليد والاجترار. ويترتب عليه حضارات متواصلة متوالدة في ذاتها ، وحضارات مرحلية منقطعة ، تتحكم عوامل اجتماعية وسياسية - خارجية - في ظهورها واندثارها. بعبارة أخرى ، ثمة حضارات أصيلة وحضارات هجينة.

هذا على مستوى التعريف والتصنيف !... أما على مستوى التقييم ، فلم تنجُ حضارة من ارتكاب أخطاء ، ترتبت عليها كوارث بيئية أو اجتماعية.

والسؤال هنا :

هل كان بالإمكان تفادي الضرر الحاصل (الشرّ !) ؟...

هل الضرر تلقائي أو مقصود ؟...

هل الشرّ كامن في العمل أو في البشر ؟...

هنا افترق العقل البشري في تيارين أو أكثر ، مميزًا بين الفكر الديني والفكر المادي ، وما بينهما.

•

- الواقع و التصور

منذ البدء استخدم الإنسان عقله في معاملاته الحياتية ، رغم أن الدور الأكبر كان للغريزة كمهماز وموجه. وبفضل ما يتمتع به من غريزة ونقاء روحي ، ارتسمت في مخيلته (مخيلة كل جماعة على حدة) أشكال وصور تقريبية للطبيعة والكون الأكبر. بعض هذه التصورات كان متجسدًا في الواقع في أشكال التضاريس الأرضية أو الإجرام السماوية أو النبات والحيوان. وما لم يكن مجسّدًا عمل على تجسيده في أشكال وتماثيل ، ذات أبعاد دلالية وسيميائية أكثر منها واقعية مباشرة.

كانت الميثولوجيا عنصرًا مهمًا لتشكيل علاقة كونية بين الفرد أو الجماعة والطبيعة (باعتبارها روحًا تحكم الأرض وتتولى منح الحماية والبركة والقوة). إن إدراك الإنسان لضعفه وما ينطوي عليه من نقيصة ، كان مهماز حاجته لحماية فوق عادية وغير مرئية. وقد استغرق زمنًا غير قليل لبلورة مداركه وتصوراته بالشكل الذي تنتظم في صورة أفكار وعقائد ، يتم ترجمتها في طقوس وممارسات وتقدمات للحصول على البركة والتكفير عن الأخطاء.

ويمكن استقراء ثلاثة أغراض للتصور الأول...

- عقد صلة مباشرة مع السيد الأكبر / الملك العظيم / صاحب الطبيعة والخلق.
- الحصول على الحماية والقوة والبركة.
- السعي للمثال والتكامل.

•

فلسفة الإغريق

يعود الفضل للإغريق في جمع الميثولوجيات القديمة ودراستها لوضع قواعد الفلسفة العقلية في القرن السابع قبل الميلاد ، وهو ما يضاهي انتقال الإنسان من حالة البدائية إلى الحركة الحضارية.

إن الدلالة الإغريقية لمعنى كلمة (فلسفة) هي أوسع كثيراً من دلالتها في العصور الحديثة (ما بعد القرن السابع عشر). وهو ما يشتمل على جُملة العلوم والمعارف والآداب والفنون التي ينتجها العقل والمخيلة.

ويرجع الفضل لفتوحات الإسكندر المقدوني في نشر معارف الإغريق والتأسيس للهلنستية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وهو ما يضاهي أثر حملة نابليون على مصر (1789م) في حركة التنوير والثقافة الحديثة.

بذل علماء الإغريق وفلاسفتهم وقتًا أكثر لدراسة الكون (خارج الأرض). حيث كان التصور الأول أن الأرض مركز الكون كما ثبته بطليموس السكندري في كتابه (المجسطي) في (150) ق.م. واستمر هذا الاعتقاد حتى القرن السادس عشر ، حيث أثبت نيكولاس كوبرنيكوس (1473- 1543م) مؤسس علم الفلك الحديث ، أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل يوم وحول الشمس مرة كل عام.

لقد حاولت فلسفة الإغريق وضع القواعد الأساسية وتنظيم المناهج والأطر لمختلف مجالات الحياة والفكر والسلوك ، الخاصة بالفرد والجماعة والدولة. وعندما نلتفت اليوم في أي جانب من جوانب الحياة المعرفية ونتحرى جذورها فلابدّ أن نلتقي بالأصل الإغريقي أو اللفظ اللاتيني للمفردة.

لقد نقل الإغريق الإنسان من عصر الغريزة إلى عصر العقل ، ولكن أثر الميثولوجيا والغيبيات لم يتغير كثيراً في حياة الناس.

ويمكن القول على العموم ، إن الجهد الفلسفي للإغريق انقسم إلى جانبين : البحث في الفلك والكونيات ، والبحث في قواعد الفكر والسلوك البشري.

ويعبِّر كتاب (جمهورية أفلاطون) عن قدم الاهتمام بتنظيم الحياة البشرية داخل المجتمع وتقسيم الأعمال ، وهو ما يتأصل أكثر فأكثر مع أرسطو [384- 322 ق.م.] الذي دعا لنشر الفلسفة العقلية المشهور بقوله : إن علينا أن نتفلسف ، إذا

اقتضى الأمر التفلسف ، فإذا لم يقتضِ الأمر التفلسف ، وجب علينا أن نتفلسف ، لنثبت عدم جدوى التفلسف. !. وهو مؤسس علم المنطق وصاحب كتاب الشعر ووصيته الشهيرة لكل فرد : (أعرف نفسك !).

ويمكن القول إنه مع أرسطو بدأت الخطوات الحقيقية للفلسفة الاجتماعية الإنسانية أو الفكر الاجتماعي مركزًا على بؤرة النفس والسلوك البشري. وبذلك انقسمت الفلسفة بين الاهتمام بالكونيات والكليات ، وبين الاهتمام بالاجتماعيّات والجزئيات. أرسطو كان معلم الإسكندر المقدوني منذ طفولته ، وهو الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى مستوى الأرض !.

•

- الدين و الفلسفة

اجتماع الدين مع الفلسفة مفارقة من مفارقات العقل ، وذلك لاختلاف المرجعيات والأساليب ، ولكن ما يجمعها في سلة واحدة في هذا المضمار ، هو الغاية (الإنسان) ودرجة تقربه من الكمال (اللـه).

أمَّا الأمر الآخر الذي يجمع الدين والفلسفة في سلة واحدة ، فهو علم المنطق ، الذي وضع أصوله أرسطو. ولا يوجد فكر ديني لا يقوم على المنطق !.

يقول أحد الكتاب في مجال المقارنة والالتقاء بينهما : إن الدين يبدأ بغير المنظور (الايمان هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى / (عب 11-1) ؛ وينتهي بالمنظور الذي هو (الإنسان).

أمَّا العلم فهو على العكس من ذلك ، يبدأ من المعلوم / المنظور ليكتشف المجهول. كما أن العلم يبدأ من الشك ليصل إلى الايمان ، بينما يبدأ الدين بالإيمان ، ليصل إلى (يقين الايمان).

والعلم يستخدم التجربة والحواس ، وهو غير الممكن في الدين.

لكن الصلة التي تبدو مستحيلة في الظاهر العام ، سرعان ما انعقدت عبر منهجية أرسطو التي وجدت قبولاً لدى رجالات اللاهوت سواء في عصر الآباء الذين مازجوا بين العقيدة المسيحية والفلسفة الإغريقية ، أو العصور الوسطى ممثلاً بالفلاسفة المدرسيين مثل توما الأكويني (1225- 1274م). (ويرى كثير من المؤرخين أن أهم عوامل – النهضة الأوربية- كانت المزج الفريد بين فكر اليونان وفكر الكتاب المقدس (جورج صامويل) وكان مؤسسو العلم الحديث إما من رجال الدين أو العلماء الأتقياء) / ص20.

•

من الفلسفة المثالية إلى الوجودية

تزاوج الدين بالفلسفة ، أسفر عن سمتين رئيستين :

عودة الاهتمام بالكليات بدل الجزئيات ، واستمرار الاهتمام بالجانب الاجتماعي والإنساني. والسمة الثانية هي : هيمنة النزعة المثالية على الفلسفة. فكان لابدّ من ظهور لودفيج فويرباخ / (1872 -1804] [L. Feurbach) [•] ، بدعوته للاهتمام بالإنسان بقوله : إن الشعور الديني يتولد عن أماني الإنسان، وأن الدراسة الفلسفية الصحيحة هي دراسة الإنسان نفسه ! ، وبذلك تنتقل الفلسفة من المثالية المطلقة لدى هيجل إلى الإنسانية.

وهكذا دشّن (القرن التاسع عشر روح قرن جديد يسعى حثيثًا إلى خلق فلسفة جديدة عن طريق تفتيت النتيجة التي انتهت إليها الهيجلية ، وتتمثل هذه الروح الجديدة في تيارين عظيمين لا يزالان يتقاسمان الفكر المعاصر حتى يومنا هذا هما : الوجودية التي ترتكزعلى الفرد ، ممثلة بالدانماركي سرن كيركجورد [1813- 1855م] ؛ والماركسية التي ركزت اهتمامها على الحياة الاجتماعية

• لودفيج فويرباخ في كتابه (جوهر المسيحية)- Essence of Christianity.

والاقتصادية المحيطة بالإنسان) / ص 8.(•)

فيما حاول جان بول سارتر [1905- 1980م] التوفيق بين التيارين في مشروعه الانثروبولوجي (بكسر ما في الماركسية من جمود وشكلية ، وقوالب جاهزة ، ويجعلها تهتم بالفرد).

وغير هؤلاء ، ساهم مفكرون وفلاسفة عديدون في إغناء تراث الوجودية وتثبيت معالمها ، أمثال هيدجر وسيمون دي بوفوار وكامي ويسبرز وكولن ولسن وآخرين. إلا أن الفضل الأول يبقى لرائد الوجودية بمختلف اتجاهاتها المؤمنة والملحدة ، وهو الذي نحت مصطلح الوجودية (Existentialism).

أدارت الوجودية ظهرها للموضوعات الأكاديمية والمعارفية المأثورة لدى المدارس الفكرية وما قبلها ، وعنيت بموضوعات الحرية والمسؤولية والإرادة ، مما يشغل جوهر الوجود الشخصي للفرد. ناهيك عن موضوعات اليأس والاغتراب والقلق والموت والتناهي والإثم والخطيئة والتطهير.

وهي على العموم توصف بأنها (أسلوب جديد من التفلسف يتسم بسمات خاصة ، منها أنها تبدأ من الإنسان لا من الطبيعة ، وأن التفلسف ينصبّ على الذات لا على الموضوع ، وأن الذات الوجودية ليست ذات مفكرة وإنما ذات فاعلة).

•

- سرن كيركجورد

"لقد منحني الله القدرة على أن أعيش لغزًا".- يوميات 1848.

يقول سقراط :(إن الحياة التي لا يتم فحصها ، غير جديرة بأن يحياها الإنسان). ويبدو أن هذه العبارة هي ما دفع كيركجورد لدراسة حياته ، التي شكلت الأساس الذي بنى عليه فلسفته. ويقول في المعنى : المهم أن أفهم مصيري أنا ، وأن

• كارل ماركس (1818- 1883) - في كتابه: نقد فلسفة هيجل السياسية.

أدرك ما يريد مني الـلـه أن أفعله ، أو أجد الحقيقة التي تكـون كـذلك بالنـسبة لي أنـا أن أجد الفكرة التي أكرّس لها حياتي ومماتي.!

ولد كيركجورد في أسرة غريبة الملامـح ومـضطربة الـسمات ، وقـد عـبَّر عـن تلـك الأسرة بكلمة (اللغز !). أما عن نفسه فقال (ذلك الفـرد) وطلـب أن تـنقش فـوق قـبره. كـان والده الأوسط بين تسعة أبناء ، في عائلة فقيرة ، وكان هـو (ميخائيـل كيركجـورد) راعيـا حتى الثانية عشرة من عمره ، وقد ضاق بفقره ذات يوم ووقف على ربوة مكلمًا الـلـه وشاكيًا ، ثم لاعنًا. وكان له عمٌّ يعمل تاجرًا في المدينة ، فجاء هذا ذات يـوم لزيـارتهم ، واختاره لمرافقته للمدينة ومساعدته في العمل.

عمل كيركجورد الأب مع عمه ثم استقل لحسابه تاجرًا في النسيج ، ثم افتتح فرعًا آخـر وفروعًا أكثر وصارت الأمـوال تنـساب بـين يديـه بـدون حـساب. وذاع صيته في الـبلاد وانتقل من تجارة الداخل للتجارة الخارجية.

وصادف أن ألمَّت بالبلاد أزمة مالية أصدرت الحكومـة عـلى أثرهـا أوراقـا ماليـة بـدون غطاء نقدي ، مما ترتـب عنـه انخفـاض قيمـة العملـة إلى عـشر القيمـة. ولم يـنج مـن الخراب إلا الدفوعات والصكوك الأجنبية.

انتبه الأب لثرائه المفاجئ ، وتذكر طفولته وفقره ، وحديثـه مـع الـلــه وشـتائمه ، فهـل استجاب الـلـه لشكواه ، أم أن الـلـه يريد أن ينتقم منه للعناته ؟.

مــن المهــم هنــا التنويــه أن كلمــة كيركجــورد (Keirkegaard) الدانماركيــة تعنــي (لعنة).

لم يتـزوج الأب لانـشغاله بالتجـارة والـلــهو ، حتـى قـارب الـسابعة والثلاثـين (1794م). وعندما تزوج ماتت زوجته بعد عامين دون أن تنجـب. وبعـد ثـلاث سنوات اعتزل العمل ، ليعيش عـلى أموالـه المكدسـة. ثـم تـزوج مـن الخادمـة (1797م) التي ربطته بها علاقة سرية. أنجبت الخادمة له سـتة أطفـال ، ثلاثـة

بنين وثلاثة بنات. وتوقفت عن الإنجاب مع بلوغها الخامسة والأربعين وكان هو في السادسة والخمسين. ولكن الأقدار تتدخل بطريقة غير مفهومة ، وتهمس الزوجة لزوجها في غمرة الفرحة بالنجاة من الخراب المالي الذي حاق بالبلاد ، بأنها تنتظر حدثًا سعيدًا.

وفي الخامس من مايو تضع الطفل الذي سوف يخلد الأسرة ،[Sören Aabye Kierkegaard].

لكن مخاوف الأب استيقظت من جديد خوفًا من حادثة المولود الجديد. مات ابنه الخامس في الثانية عشرة من عمره متأثرًا بمرض عصبي ، وماتت ابنته الكبرى في الثانية والعشرين. وازدادت قناعة الأب أن الله كان يعاقب بني إسرائيل في ذريتهم ، وهو (يعاقبه في أبنائه. فيحرمه منهم واحدًا أثر واحد حتى يتركه وحيدًا في النهاية يعاني من يأس قاتل) / 77. (•)

لم يسمح الأب لابنه الأصغر بمغادرة البيت ، وكان يأخذه من يده ويدور به في الحجرة يوميًا ، وهو يحدثه عن أجواء المدينة ، متوقفًا هنا وهناك ، كما لو كان عيانا. وكتب على الطفل أن يرث مخاوف الأب ، وقلقه وتدينه.

وكان يجتمع إليه في منزله جماعة من طائفة المورافيين (•) في نهاية الأسبوع. يبالغون في الصلاة وطقوس العبادة والتضرع المصحوبة بالبكاء والحزن والندم الشديد والتوبة.

وبفعل تأثير مخاوف الأب ، لم يمارس كيركجورد الابن عملاً في حياته ولم يتزوج ، مستفيدًا من ثراء والده ، وكان يعاني من تشوه شكله ويصف نفسه بالكانغرا لقصير اليدين. ولكنه إلى ذلك اشتهر بروح النكتة والدعابة ، التي

- د. فوزي إلياس- الكتاب المقدس والعلم الحديث- 1987- دار الثقافة- القاهرة.
- المورافيين طائفة بروتستانتية أنشأها المصلح الديني جون هس في القرن الخامس عشر في بوهيميا ومورافيا.

يخفي تحتها آلامه وضيقه بنفسه. وهو ما دفعه للانطواء والعزلة ودراسة تاريخ أسرتـه وحياتــه الخاصــة ، مــستفيدا مــن علــوم الفلــسفة واللاهــوت ، مؤسِّــسًا للوجوديــة (المسيحية) بمناقشاته الحادة وآرائه الجريئة.

•

- كيركجورد و الكتابة

في تأملاته التي لخَّص فيها جوهر مؤلفاته المستعارة كلها تحت عنوان : خاتمة محتملـة لجميع أعمالي ذات الأسماء المستعارة بقلم نيكولاس نوتابن (Nicolaus Notabene) ، يقول : سوف أخبر الجمهور الكريم الآن كيف أصبحت مؤلفًا ؛ القضية بسيطة للغاية : لقد أنفقت بعض سنوات عمري طالبًا كـسولاً مـتعطلاً إلى حـدٍّ مـا...أقـرأ قلـيلاً وأفكـر قليلاً.

غير أن سنوات المراهقة كان لها عندي اليد الطولى. وقد حـدث أن جلـست بعـد ظهـر يوم من أيام الآحاد ، في مقهى فردريك سرج ، أدخِّن سيجارًا وأتأمل الفتيات العاملات ، وفجأة خطر لي خاطر فقلت لنفسي : أنت لا تزال تضيع وقتـك عبثًـا ، مـع أن العبـاقرة قد ظهروا في كل جانب ، واحدًا أثر واحد ، وحاول كل منهم أن يجعل الوجود والحيـاة ، ووسائل الاتصال عبر التـاريخ ، والاتـصال بالـسعادة الأبديـة... أسـهل وأسـهل ، فـماذا تفعل أنت ؟... ألا يمكن أن تكتشف طريقـة مـا تـستطيع بواسـطتها أن تعـين الأجيـال وتساعدهم ؟.

عندئذٍ سألت نفسي... لِمَ لا أجلس وأجعل كل شيء أكثر صعوبة ؟ !. إذ لا بـدّ أن أكـون نافعًا بطريقة م !ا.

•

- من دروس المعلم كيركجورد

– كل إنسان ينـتقم لنفـسه مـن العـالم ، وانتقـامي يكمـن في محـافظتي عـلى آلامـي وهمومي داخل نفسي عميقة مطمورة ، وأن أُسلِّي الآخرين جميعًا بضحكي.

– عزائي أن أحدًا لن يستطيع بعد وفاتي أن يجد تفسيرًا واحدًا لما كان يملأ حياتي كلها ، لن يجد الكلمات التي تفسِّر له كل شيء.

– لم أعش قطّ ، بالمعنى الإنساني للكلمة ، لقد كنت فِكرًا ؛ من البداية إلى النهاية.

– ليس لي سوى صديق واحد : هو الصدى ، ولِمَ كان صديقي ؟... لأني أُحـب آلامـي ، وهو لا يحرمني منها. وليس لي إلا مستودع واحد لسري ، هو سكون الليل ، ولِمَ؟... لأنه صامت.

– أنني أقول عن آلامي ما يقوله الإنجليز عن بيوتهم ، أن ألمي هو قلعتي.

– أنني آمل ؛ بفضل العذاب الذي أتحمله ؛ أن أكون شوكة في جنب العالم.

– لقد ذقت الفاكهة من شجرة المعرفة ، واستمتعت بمـذاقها ، غـير أن هـذه اللـذة لم تمكث إلا لحظة المعرفة فحسب ، ثم تمضي دون أن تخلف بصماتها العميقة داخـل نفسي ، وأنه ليبدو لي أننـي لم أشرب مـن كـأس الحكمـة ، لكنـي سـقطت في هـذه الكأس.

– الإنسان ينبغي له أن يعرف نفسه ، قبـل أن يعـرف أي شيء آخـر. وبعـد أن يفهـم الإنسان نفسه من الناحية الداخلية ، ويتبين طريقـه عـلى هـذا النحـو ، هنـا فقـط سوف تنعم الحياة بالسلام والمعنى.

– اللـه لا يفكِّر ، إنه يخلق... اللـه لا يوجـد ، أنـه أبـدي... أمـا الإنـسان فهـو يفكِّـر ويوجد ، والوجود الفعلي للإنسان Existence هو الذي يفصل بين الفكـر والوجـود العام Being.

– أريد أن أكتب قصة ، يصبح أحـد أبطالهـا مجنونًـا ، وأظـل أكتـب وأكتـب... حتـى أتحدث أخر الأمر بلسانه ، أو أجعله يتحدث بلساني.

– الخوف... يعني أنك تعرف الشيء الذي تخاف منه ، فهو خوف من وجود متعين... أما القلق فهو الخوف من مواجهة الواقع كله ، الخوف من الوجود بأسره.

– آه ، اندلعت النيران في كل شيء... لا يمكن أن يحترق ، اندلعت داخل نفسي.

•

- كيركجورد و المسيحية

يرى الكاتب إمام عبد الفتاح إمام أن أحد أسباب عزوف كيركجورد عن الزواج من خطيبته ريجينا كان (شعوره بأن مهمته في هذه الدنيا روحية ، وأن عليه أن يقوم برسالة دينية كالمسيح والقديس بولس ، ومن ثم لا بدّ أن يكون مثلهما عازبًا) / 138. (•)

يرى المؤرخون أن كيركجورد كان لديه ميل خفي لإقامة (مذهب مسيحي) رغم معارضته الشديدة للمذاهب وللنسق الفلسفي بصورة عامة فقد استهوته (المذهبية الهيجلية) رغمًا عنه ، ولهذا كان في كثير من الأحيان يعالج تصورات مجردة ومفاهيم عامة ، ثم يحاول الربط بينها ، مثل (مفهوم القلق)، و(رسالة في اليأس) ، و(العبقرية والجنون) ، و(بين الحقيقة والجنون) ، حيث تشيع المذهبية والتعميم.

ويقول هربرت ماركيوز : إن أعمال كيركجورد تمثل آخر محاولة كبرى ، لاسترجاع الدين بوصفه أداة نهائية لتحرير الإنسانية ، من الأثر الهدام لنظام اجتماعي غير عادل.

أما ديفيد روبرتس (D. E. Roberts) فقد قال عنه : في أي مناقشة للوجودية المسيحية ، سوف يكون سرن كيركجورد ، الشخصية الرئيسية بلا جدال. لم

• د. إمام عبد الفتاح إمام- سرن كيركجورد رائد الوجودية- ط2- 1983- دار التنوير للطباعة- بيروت.

يقتصر أثره على ميـدان اللاهـوت ، وإنمـا امتـدَّ إلى أولئـك الكُتَّـاب المعـروفين بكـونهم ممثلين للوجودية غير المسيحية ، كالوجودية اليهودية ، وكذلك الوجودية الملحدة.

•

- العـولـمـة

تتعدد تعريفات العولمة وتتفاوت شرقًا وغربًا ، بيد أنها بصياغتها الأمريكية ليست غـير عنوان لإمبراطورية إمبريالية كشرَّت عن أنيابها عقب الحرب العالمية الثانيـة (1945م) ، واستأسدت باستفرادها الهيمنة الدولية عقب انهيار النظام الاشتراكي (1989م).

اقترنت العولمة بانتشار ثورة الاتصالات التقنية المتمثلة بأطباق البثّ الفضائي الدوليـة ، وشبكة الإنترنت وشبكات الهواتف الخلوية ، وكلها من العابرة للقارات والحـدود ، مـع مركزيتها الخاضعة لاحتكار أمريكي.

وعلى غِرار الثورة الإلكترونية الاتـصالية ، عمـدت الولايـات المتحـدة الأميركيـة لاعـتماد نظام عالمي اقتصادي جديد ، يهدف إلى جعل العـالم وحـدة اقتـصادية ، تقودهـا قمـة الدول الـصناعية الثمانيـة بزعامـة أميركيـة ، مدعومـة بـالأطر الـسياسية التـي توفرهـا جمعيـة الأمـم المتحـدة ، التـي تحولـت إلى مكتـب تـابع للخارجيـة الأميركيـة منـذ التسعينات.

إن إعادة تقسيم العالم إلى مجموعتين ، صـناعية منتجـة ، وتنمويـة مـستهلكة ، بـإدارة صندوق النقد الدولي ومؤسسة البنك الدولي ، لا يترك آثارًا سياسية واقتصادية فحـسب ، وإنما يتعداه إلى ما هو أبعد منه ، ممثلاً في الأثر الاجتماعي والنفسي والثقافي للـسلعة الاقتصادية والسياسة الدولية.

بعبارة أخرى ، أن العولمة ليست سوى (أمركة) (•) مباشرة وعارية. وأن العالم منذ عقد ونيف ، موغل في التأمرك على صعيد اللغة والثياب وألعاب الأطفال والأكلات السريعة وطراز العيش الأمريكي ، وما يعنيه كل هذا من عقدة الانتماء والهوية ، والنزعة المادية والاستهلاكية.

وعلى صعيد الخطاب الثقافي السياسي ، انحسار تام للفكر الاجتماعي اليساري ، وانجراف كامل نحو اليمينية (القومية والدينية) ، والثقافة الإلكترونية المسطحة ، والإعلانات التجارية. بكلمة واحدة ، أن الأمركة الإمبريالية تعني ، تقزيم الفرد وسحق الكيان الإنساني ، وإنتاج قناة اقتصادية إلكترونية ، لا تعرف غير خدمة ماكينة الاقتصاد بالعمالة الرخيصة والاستهلاك المفرط.

لم يتنازل أحد عن جهازه المحمول ، ولن يتردد عن شراء هاتف جديد ، يطرح غدا تروج له الإعلانات ، بوجود خاصة إضافية أو شكل مختلف ، وهو ما ينطبق على موضات ومجالات حياتية أخرى ، شغلت الكثيرين عن مشاكلهم الحقيقية ، ومشاكل بلادهم.

إن معظم العوائل اليوم تشكو من أوضاع أطفالها وانجرافهم للألعاب الإلكترونية العنيفة وانشغالهم بالتفكير بالمادة والماديات ، على حساب الثقافة والدين والأخلاق.

وأن الأغلبية يفضلون اليوم كرة القدم (•) والرقص وعروض الأزياء على دراسات الطب والهندسة والتخصصات الأكاديمية. وتشكو عموم البلاد الغربية

- د. أحمد البغدادي- أحاديث الدين والدنيا- الواقع المفارق للنص الديني- دار الانتشار العربي- بيروت- 2005- ص275 : إن نظرية صدام الحضارات التي عرضها المفكر الأميركي صمويل هنتنغتون ، وأحد الحادي عشر من سبتمبر 2001 ، وما رافق ذلك من تأسيس نظام دولي دولي جديد ، من خلال العولمة الي أمسكت الولايات المتحدة بزمام تام لتدرو فيها ، حتى وصفها البعض بالأمركة بدلاً من العولمة.
- توفيق الحكيم- الكاتب والفيلسوف المصري في وصفه تغير مضمار الحياة : جاء عصر القدم وانتهى عصر القلم !.

من انخفاض نسبة الدراسات العليا والأكاديمية ، لصالح زيادة مساحة العمالة الوسيطة والمحدودة الثقافة والوعي وتفاقم أزمة المهاجرين.

•

- الوجود في زمن العولمة

كيف يجيب شباب اليوم على سؤال أرسطو القديم : اعرف نفسك ؟...

وماذا يحدثون سقراط الذي يقول أن الحياة التي لا يتم فحصها غير جديرة أن تعاش !.

ما المقصود بالفحص في ضوء ثقافة اليوم الاستهلاكية ؟...

هل هي فحص الهاندي أم الكمبيوتر أم الدعاية الإلكترونية ؟...

ما هي الأُسس الثقافية والفكرية التي تؤهل الناشئة لطرق أي موضوع سياسي أو ثقافي خارج لغة الإعلام الاستهلاكية ؟...

وماذا تعني الفلسفة والوجودية لكثيرين اليوم ؟.

عقب الحرب العالمية الثانية كتب كولن ولسن عن سقوط الحضارة : وانتشر تيار التشاؤم في غرب أوربا وتحولت وجودية سارتر إلى مزيد من الاهتمام بالإنسان.

إن الإنسان اليوم في أزمة ، وهي أزمة ذات ، قبل أن تكون أزمة هوية أو دين. والحضارة الجديدة - إذا اعتبرنا العولمة حضارة بالقياس التاريخي - قد انقلبت ضد الإنسان. وكما في العصور الأولى والوسطى ، مرة أخرى تلتقي الفلسفة والدين على بساط واحد ، لمقاومة الحضارة الجديدة بوصفها الشرّ ، أو الخراب.

اليوم أكثر من أي وقت... نحن بحاجة لاستذكار الفيلسوف الروسي ليو تولستوي والشمال أفريقي ترليان في موقفهما من الحضارة.

ولكن قبلهما ، علينا إعادة قراءة أرسطو وفويرباخ وكيركجورد وروسو.

الفرد والعالم

- في معاني الحرية والإتكالية -

المرحلة الراهنة التي يمرّ بها العالم ، هي مرحلة انتقالية نوعية.

والمرحلة الانتقالية عندما تتعلق ببيئة ثقافية غير متجانسة ، ومتفاوتة حضاريًا ومدنيًا ، فأنها تقع أسيرة الفوضى ، أكثر مما يمكن تسميته بالاضطراب وعدم الاستقرار. وعدم الاستقرار هنا لا يقتصر على أنماط الحياة والمعيشة والفكر ، وإنما يتعداها إلى منظومة القواعد والقوانين والقيم التي تنظِّم حركتها.

واصطلاح نظام عالمي جديد ، أو نظام اقتصادي عالمي ، كما ظهر إبان السبعينيات المنصرمة ، كان تعبيرًا إعلاميًا ضبابيًا ، ليس من تشيئاته الأوضاع التي تتكشف وتتجلى يومًا بعد يوم كمعجزات سلبية ، لا يُستكنه مآلها.

وكما سبق القول ، في مكان آخر ، لم تضع هذه المرحلة ، الشعوب وثقافاتها في مواجهة امتحان صعب ، وإنما وضعت الأفراد individual في مواجهة العالم ومواجهة أنفسهم.

•

- البحث عن الذات

الضياع هو الصفة الأكثر اقترانًا بالفوضى.

الضياع هو الحالة الأشدّ فظاعة ورعبًا في الوعي الإنساني.

الضياع ، ليس باعتباره فقدان الهوية والخطاب ، وإنما فقدان الوسائل والأساليب التي بواسطتها يستطيع تحقيق ذاته.

وفي المستويات الشديدة هو فقدان الرغبة والإرادة لتمثيل ذاته في المجتمع.

أن تكون أو لا تكون ، ذلك هو السؤال !.

عندما يفقد المرء الرغبة في الكؤون ، يعني انه تجاوز تساؤل (يكون) ، للوصول إلى التجرد التام من الذات ، أو الانسلاخ عن البشرية ، أو الانسلاخ عن الحياة وإقنومها بالنتيجة ، أي الانتحار (النفسي والجسدي) ، والانتقال إلى عالم آخر.

بلوغ هذه النتيجة يقتضي مراحل نوعية من التفكير ووعي العالم.

وبقصد أو بغيره ، فليس التفكير ديدن الجميع ، أفرادًا أو ثقافات.

وكذلك التضحية التي يتضمنها (الانتحار) ، ليست دين الجميع.

لأن التضحية بكلّ الأشياء ، أفضل لديها من التضحية بالحياة.

فمن أجلها (الحياة)... يضحي المرء بكل شيء ويقبل المهانة والعبودية.

فلا غرو ، أن يكون عدد المنتحرين قليلاً ، مقابل المستعدين للمسايرة والتقمص.

•

- ركوب الموجة أو (الموضة)

فئتان تركب الموجة العالية أو (الموضة) السائدة... الأولى ، فئة انتهازية آلت على نفسها ركوب كل موجة والسعي لكل مكسب وتصدّر كلّ مشهد... وفئة أخرى ، هي الناشئة أو جيل الشباب الذين يجدون أمامهم نمط حياة مختلف عن (حياة الآباء) ، بكل ما يشدّهم إليه من مغرَيات ومميزات ، تمنحهم مزيدًا من الاستقلالية عن الجيل السابق ، والاندفاع للغرف من سمات عصرهم ، وما يتيحه لهم من مزايا وفرص.

•

- موجة عالية... وموجة دانية

ثمة مستويان للتفاعل مع الموجة العامة (المحيط) : التفاعل التام والمتناهي ، التفاعل الجزئي والمحدود.

التفاعل التام هو ما يحدث مع الموجة العالمية ، أيّان كان مصدرها أو اتجاهها

وقوتها ، كما حصل مع موجات الشيوعية والماركسية والوجودية والنازية وتشيفارا والبيتلز والتشارلستون والهيبيز (التخنث والاسترجال) والميني والماكسي والريجيم (القاسي) والجينز أواسط القرن الماضي.

ويقابلها اليوم منتجات العولمة من موضات الأطعمة (السريعة) والثياب واللكنة (الأميركانزم) والهاتف الجوال والنت وثقافة العنف والاستفزاز.

في هذه الفئة ، تكون المرجعية المحلية أضعف ما يكون ، بحيث يتنكر لها الشخص ويستعلي عليها ، محققا ذاته ضمن نسيج أوسع وأكثر شمولية وعالمية (جغرافية).

يختلف عن هاته فئة ، أكثر وعيًا وانحيازًا للهوية المحلية ، وفي الغالب ، على خلفية موقف أو تنشئة سياسية أو دينية ، تقف بالمرصاد ، للموضة (العالمية) ، محتمية بموضة محلية ، مضفية لها كل ما يليق من كبرياء وفخر وبطولة واستماتة من أجل الحياة.

شكّلت الحركات الوطنية والقومية في القرن الماضي صدى هذا الاتجاه ، مع ما يوافقه من انحياز للتراث والقبيلة.

ومع تراجع مفاهيم الوطنية (لصالح النظام العالمي) والقومية (لصالح عولمة الثقافات) ، ظهرت الهوية الإسلامية مع بدايات القرن الحادي والعشرين ، المشتركة مع الحركات القومية (العربية) في ناصية (التراث والقبيلة) ، كسمة أو موضة بديلة للتيار الوطني والقومي محليًا ، ومواجهة الأمركة والعولمة على الصعيد الأوسع.

•

- موضات محلية

(الموضة) مفهوم سائد في كل مكان وزمان ، وليس ميزة لما يحدث اليوم إطلاقًا.

والحق ، أن (الناس على دين ملوكها !) ، كما يـذكر الـتراث. النـاس هـم النـاس ، ولكـن أشكالهم ولغاتهم وثيابهم تتبدل وتتلـوّن. ولـو تهيّـأ للـبعض ، ألبـوم تـاريخي مـصور ، لأجيال سلالاتها عبر قرون ، لكانت أكثر من يـضحك مـن نفـسها ويـسخر مـن أفعالهـا. ولكن للطبيعة حكمة ، والنسيان نعمة.

إنهم يفعلون اليوم ما اسـتنكره بعـضهم قبـل قـرن أو أقـل أو أكـثر. وكلّـما كـانوا أكـثر اندفاعًا اليوم في هذا الاتجاه ، كانوا أكثر عصبية في اتجاه مقابل ونقيض له.

فالعصبية والاندفاع والانفعال آفة ، لا تأكـل غـير نفـسها ، وتـأتي عـلى محامـدها ، فـلا تشعر من نفسها بشيء ، ولا ترتضي غير ما تراه سبيلاً.

من أسوأ الخلق ، اتباع الدول والحكام والأمراء ؛ في سُـبل المعيـشة والوظيفـة والحيـاة. فإذا انقلب الحكم وتغير الحاكم ، انقلبت معيشتهم واختلفت ألـسنتهم ، وكـانوا مثـل الراقصة والزمّار.

•

- الأهـواء و الأمـراء

من مواضع الجدل الصراع القديم بين الفرد والجماعة ، بين الشخـصية والحكـم. والتـي كان من نتائجها تقنين جُملة قواعد وأوامر ، للنهي عن الهوى والأهواء ، وفـضيلة اتبـاع أولي الأمر والأمراء.

قد لا يكون التفرّد والتمرد صفة الجميع.

فالذات المـستكينة ، أو المجبولـة عـلى الاسـتكانة والمـسخ عـاجزة عـن تحقيـق ذاتهـا ،

لذلك ترتجي ما تسعى في أثره وتتوخى تقليده.

ولكن وجود قانون يحظر بواعث التفرد والإبداع ، ويسمها بالبدعة أو الصبأ أو الزندقة ، هو مما يقتل سنّة التطور والتغيير في حركة الأفراد والمجتمعات.

والحق، أن كثيراً من الأفكار والمظاهر، جرى استنكارها ومحاربتها في بداياتها ثم وجدت مسراها التاريخي ، واكتشف البشر محاسنها وجوانب الفائدة فيها.

•

- المركزية والديمقراطية... القانون والحاجة

في حالات معينة ، تقهر السلطات شعوبها على تقليد نمط معين من الزي أو الرأي وطرائق المعيشة ، فيعتذر الناس بعسف الدولة وطاعة الجور (ولو كره الكارهون).

وفي أحوال أخرى ، تعصى سبل المعيشة على البعض ، فلا يجدون غير سبل الشرّ مفتوحة أمامهم ، فيلجونها. وحجتهم فيه أن (الجوع كافر) ومقولة (لو كان الجوع رجلاً لقتلته). والصحيح أن هؤلاء المدّعين ، يتملقون ملك الجوع وحكم التجويع والترغيب ، حتى يطمئنوا لأسفل بطونهم.

في هذا المجال تبرز ظاهرتان : الانخراط في أجهزة العنف الأهلي كالشرطة والجيش والأمن والمخابرات وما إلى ذلك ، وهي أدوات تمارس العنف بالاستعاضة تحت غطاء سلطة حامية ، وتجني من عملها مكاسب ، منها ما يدخل بطونها ويثخن أحشاءها.

ويناظر هذه الحالة أو الفئة ، ما يحدث أثناء القلاقل والفوضى مثل ظروف الحرب الأهلية في لبنان وأفغانستان وعراقستان. ضمن موضة الانخراط في الجماعات المسلّحة لممارسة العنف ضد البيئة والإنسان لقاء الحصول على مكاسب مادية وحماية وظيفية.

إن الإنسان هو الأسلوب. والأسلوب هنا هو عمل يمارسه ، أو فكر يجتهد فيـه ، فيبـدع ويجود.

•

- من تنازل عن كرامته... لا يستحق إنسانيته

نتوقف هنا عند حالة الشحاذ (الكدية)...

"المال مال اللـه ، والسخي حبيب اللـه".

إنـه يقتعـد موضـعًا مـن الـسوق ، قريبًـا مـن مطعـم أو متجـر ، أو (بنكومـات) في الكوينزوي ، يمدّ يـده للـمارة ، مـستخدما هيئـة جـسده ، والتـواءات لـسانه لاسـتدرار قروش. بعـضهم ، ومـا أكـثرهم مـع موسـم الـصيف والـسياحة ، يـدورون مـع المـارّة ، يدخلون بين المرء وذويـه ، ولهـم في ذلـك عليـه حجـة في لـسانه ، فانطلقـت ألـسنتهم تسخر اللغة القومية للاستجداء والكدية. لا تخلو مدينة أو دولة عربية أو مـسلمة مـن (المكادي) والشحاذين والمشعوذين وتنابلة المال.

أمَّا أفظع مظاهر الكديـة ، كـالتي في بلـدان تعتـاش عـلى الـسياحة وتفتخـر بتاريخهـا وحضارتها. حيث تتولى فرق من الشحاذين والمكادي اسـتقبال الـسُيَّاح (الأجانـب) مـن عتبات المطار إلى فنادقهم وأسواقهم ومراكزهم السياحية. وكم مرة أعرب (سُيَّاح) عـن (امتعاضهم) أو (تعاطفهم) من كثرة المكادي في البلد الفلاني ، سيما مـن فئـة الأطفـال. وعلى مثل هاتيك البلاد أن ترفع شعار [الكدية (ولـيس الـسياحة) مـورد مـن مواردهـا القومية].

أما وأن الحال ضاق ، والمكـادي زادوا في الـبلاد ، فقـد عـرف بعـضهم طريـق الهجـرة ، وسـاهموا بنقـل مظـاهر حـضارتهم إلى العاصـمة الإنجليزيـة ، فأضـفوا عليهـا الطـابع الشرقي والعروبي والإسلامي للندن ، ملامح تزيد من تماهيها مع بلـدان المنـشأ ، وتقلـل من غلواء حنين الممنوعين من السفر إلى أجواء بلدانهم.

ومـن ملامـح تـدني الكرامـة الشخـصية وارتفـاع شـأن المـادة ، أن أصـبحت العلاقـات الاجتماعية سـبيلاً للاسـتعطاء غـير المبـاشر ، باسـم العلاقـة أو الـصداقة أو الحـب بـين الجنسين. وغالبا تكون الشكوى من الحياة ومتطلباتها أو الحاجة الراهنة لـدفع فـاتورة أو أجرة تاكسي أو دين قديم ، قصة مكررة تحت غطاء العلاقة الاجتماعية ، سيما حـين يلمح طيبة الآخر واندفاعه في إخراج النقود. فهناك أشـخاص يـستعطون باسـتمرار بـلا خجل أو حرج ، بل هم يحرجون سواهم ، وهؤلاء فئة شائعة في متروبوليتان لندن. وفي مواسـم الـسياحة التـي تتعـدد أغراضـها وأنمـاط شخوصـها ، تجتمـع فئـات المـانحين والمستعطين في لندن.

على سبيل المثال... ومن أمثلتها ، سيدة مقيمة في الغرب ، تحضر إلى لندن في الـصيف ، وتتجول في المناطق التي يتواجد فيها الخليجيون وعـوائلهم ، وهـي تجيـد عـدة لغـات بينها أطراف العربية ؛ محاولة التعرف على أفراد الأغنياء وعـوائلهم ، أمـلا في الحـصول على وظيفة لديهم تنقلها إلى فردوس الخليج.

ومن بنات هـذا الـصنف مـن في سـن الـشباب ، مـن يـستخدم سـنارة الحـب والغـزل لاصطياد أو تصيد مصادر المال. وفي يوميات لندن أمثال وقصص لا تخلـو مـن الطرافـة والأسى والحرج بين المقيمين والسياح عـلى حـد سـواء. منهـا مـا تـسلل إلى عـوالم الأدب القصصي والروائي بشكل أو آخر كما في رواية حنان الشيخ: إنها لندن يا عزيزي !.

ولا شك ، أنه قبل عقـدين مـن الـسنين ، لم تكـن صـورة بلـدان تعتـاش عـلى القـروض واضحة ومفضوحة كما اليوم. فما عادت العلاقات الخارجيـة لكثـير مـن بلـدان الـشرق الأوسط غير نماذج استعطاء واستجداء الأموال والأسلحة والمساعدات الإنسانية والأمنية ، علنًا.

•

- حدود الذات وجغرافيا الآخر

لا يوجد كائن بلا ذات ، مهما بلغ صغر الكائن وضعته. وأبرز علائم الذات هي الفردية. وهي تحقق فرديتها بالشعور والانفعال ، وهما صنو الرغبة والإرادة. فالكائن يشعر ، وهو سيد شعوره ، وشعوره ملكه المحض الذي يشكِّل علاقته بالآخر.

الطفل المولود حديثا ، لا يرتبط بهذا العالم ، رافض له. ولكنه بعد حين يشعر بالجوع أو البرد ، فيلتقم الثدي ويلتصق بدفء الصدر. فالشعور / الحاجة حققت وحددت علاقته مع المحيط الجديد ، وهي العلاقة التي ستستمرّ ردحًا من الزمن، حتى يتحقق التآلف التام والانتماء الجديد.

من الناحية النظرية ، إن الكائن ، عبر قناة الحاجة المادية أو المعنوية ، فقد فرديته الخاصة وبدأ في الذوبان في بوتقة العام (المحيط والبيئة). ولكن من الناحية العملية ، إن درجة العلاقة ، الانتماء ، الذوبان ، تبقى رهن فردية الشخص أو ذاته.

إن مقدار حاجة الفرد للطعام (مثلاً...) أمر يقع تحت سيطرته وتحكّمه. وكذلك حاجاته الأخرى ومتطلباته الجسدية والروحية والبيئية.

ان الذات (الخليقة !) هي مركب ضعفات وحاجات ، وقرينة اجتهاد وسعي ، للوصول ثانية إلى استعادة استقلاليتها (فرديتها) التامة ، عبر سيرورة وصيرورة التكامل والتسامي والنمو العقلي والروحي.

•

- ذات بلا جسد...

تجتهد الأفكار والفلسفات في التمييز أو الفصل بين الروح والنفس والجسد والعقل. كما تختلف في تفسير وتصنيف لواحقها وإفرازاتها.

من غير اليقيني هنا مدى صحة الفصل أو جدواه بالمنظور الوجودي أو الروحـي. لكـن المؤكد أن البذور الأولية زادت من شقاق الفكر وشقاء البشر في فوضى مـن المعتقـدات والهلوسات التي لا يعرف خيرها من شرِّها.

لا يهمنا من ذلك في هذا المجال ، غير ما يتعلق بالجسد ، وسيما زاوية الارتزاق به.

النظر للجسد كسلعة صالحة للاتجـار ، البيـع والـشراء في الفكـر البـشري ، قـديم قـدم الأديان نفسها. وبغض النظر عن تلك المفارقة الاجتماعية التي تتكشف عنهـا الـديانات المختلفة في الحطّ من قيمة المتاجرين بها ونبذ أساليبها وآثارها.

ومع تأكيد فن التسويق والإعلان على تأنيث كوادرها وطواقم خدمـة الزبـائن ، مميـزة بخفة الدم والمرونة والكلام المحمل بالإيحاءات ، دخل التبشير والدعاية الدينيـة سـوق توظيف / اسـتغلال جـنس النـساء لاجتـذاب الآخـرين في الـساحات العامـة والـشوارع وواجهات التسوق. فالعولمة بالمفهوم الـشرقي هـي تـسويغ وجـود الفـرد خـارج بلـده بغض النظـر عـن العنـوان والأسـلوب ، مـما لا يخـرج عـن مـنهج تفكيـك المجتمعـات والهويات والقيم.

(مومس / بغي) هـي الكلمـة المـسخّرة هنـا لتوصـيف هـذه المهنـة. ولا يعـرّف سـبب اقتصارها على الأنثى في الغالب ، إزاء وجود طبقة مترفة من نساء القـصور ، الباحثـات عن اللذة السريعة خارج الخمور والقصور.

البغاء ، مهنة اقتصادية اجتماعية قائمة على فنٍّ دراسة علـم نفـس المـستهلك ، ومبدأ إشباع الحاجات العصية على الإشباع بالمفاهيم الشائعة. ويتحفنا التـاريخ بأمثلة بارزة وخالدة في هذا المجال. لكن ما يجمـع بينهـا ، تلـك الاتفاقيـة غـير المكتوبـة - عـلى غـرار القـانون الإنجليـزي - ، في الفـصل الفظيـع بـين الـنفس والجسد التي تمارسه البغي خلال العمل. فهي إذ تسلِّم جسدها أو جزء منه أو تسخر بعضه لتلبية حاجة الزبون ، تبقـى حـرّة الـنفس ، أبيّـة في الانحطـاط أو

التبذل معه. بعبارة أخرى ، أن البغي التـي تتعـرى بالكامـل لزبونهـا ، لا تـترك لـه كـل جسدها ، إلا بتحديدات تقنية وسعرية محددة ومعروفة في الـسوق. فكـل جـزء وكـل حركة لها أجر.

والأهـمّ مـن ذلـك أنهـا تحـتفظ بحـق المبـادرة والعمـل ، أمـا الزبـون فعليـه التلقـي والاستقبال (استهلاك المتعة). وفي كل ذلك ، صغر أو كـبر ، تـسلِّم البغـي جـسدها، ولا تسلِّم نفسها التي تبقى ملك يدها.

•

- ذات بلا عقـل

ثمة حالة بغاء قريبة مـن هـذا ، ولكنهـا تنحـصر في ذلـك الجـزء مـن الجـسد المـسمى بالعقل. عندما يضع البعض إمكاناته العقلية والفكرية في خدمة جهة أو شخص معين ، مقابل مبلغ من مال أو حصة في جاه.

إن المال كغاية مقدّسة هنا ، (ضرورة) تبيح المحظورات.

وتسخير الجسد أو الفكر ، كلاً أو جزءًا ، لقـاء المـال أو المعيـشة ، مـن قبيـل الاسـتهانة بالجزء للفوز بالكلّ ، أمر ، تشرعنه كثير من الأفكار والعقائد. ولكنه في حقيقة الحـال ، بغاء ، وعهر. وقد تمَّ النهـي عـن بغـاء الجـسد في الفكـر الاجتماعـي والـديني ، وغـض النظر عن الثاني ، أو تمَّ التشجيع فيه ، طالما ، أن المؤسسة الاجتماعية والدينيـة ، بأشـدّ حاجة ، لمن يدافع عنها ويروّج لأفكارها وممارساتها.

اصطلح "علي الوردي" على أولئك بـ"الوعَّاظ" وسمَّاهم (وعَّاظ السلاطين) ، مـن حاشية القصر والقائمين على ديوان الأمارة ، كنايـة عـن العلاقـة الجوهريـة بـين الدين والسلطة وبالعكس. ووعَّاظ السلاطين في التاريخ العربي أكثر ازدهارًا مـن أيمَّا تجارة أو صناعة غيرهـا ، فهـي تبـدأ بـشعراء التكـسب ولا تنتهـي بمنظـري الأحـزاب والطوائـف وسـماسرة الفكـر ، وصـولاً إلى مرتزقـة الـصحافة والـرأي

والمهن الدينية المجانية. ولا يمكن التطرق لفترة سياسية أو تاريخية مـن غـير ذكـر أبـرز مروجيها من الكُتّاب والصحفيين والمنظِّرين. إنهم لسان الحاكم وفلسفة السلطة ، كـما الجيش والأمن أذرع الحكم وأطرافه.

وفي الحالين ، تزني المومس بجسدها ، ويزني المثقف بفكـره ، أمـا ذاتـه وروحـه فتبقـى نقية نزيهة.

•

- طريق ضيق و جادة و اسعة

من الأسـئلة الجـديرة بكـل (ذات) ، هـو مـدى اسـتعدادها للعمـل والمثـابرة ، للخلـق والإبداع والاجتهاد ، مدى اعتمادها على ذاتها في كل ذلك.

هذا الاستعداد ، بمثابة الحصانة الذاتية لتحقيـق الفرديـة المـستمرة. كـذلك التهـاون أو الـضعف ، بالمقابـل ، هـو تنـازل عـن (الفرديـة) ، عـبر الاعـتماد عـلى الآخـر والتبعيـة المتدرجة له.

معنـى هـذا ، أن الأفـراد ، متفـاوتون في انـتمائهم إلى (فـرديتهم) و(ذاتهـم) ، لـيس في الوعي فحسب ، وإنما في استعدادهم لتحقيـق (فـرديتهم / ذاتهـم) والعمـل المتواصـل والمميز من أجلها. وكلّما كان الفرد أكثر عصامية وجدّيـة ، أمكـن لـه تحقيـق ذاتـه... و العكس بالعكس ؛ فالشخصية الإتكالية الفقيرة في قدراتها وسعيها ، تستـسهل الاعـتماد على غيرها لتأمين حاجاتها الخاصة ، ولا تتورع أن تضع نفسها في خدمـة مـصالح الغـير لقاء القليل من تأمين حاجاتها وضعفاتها.

والعبودية [slavery] من حيث المنشأ ، قامت عـلى أسـاس وجـود أشـخاص ، يرهنـون وجودهم وحياتهم في يد (الآخر) لقاء تأمين المأكل والمبيت والملبس.

لا حكمة من القـول بوجـود علاقـة ارتجاعيـة بـين الفئتـين ، ولكـن نمـط الفئـة (الإتكالية) إذا توفرت ظروف مشابهة ، وضاقت السبل والخيـارات ، يكـون لهـا

الاستعداد النفسي للتحول إلى نمط العبودية التامة ، أي فقدان استقلالية ذاتها الفردية.

•

- الإتكالية ، السلبية ، الحُمق

الـشائع ، نـسبة درجـة مـن الـذكاء الـشعبي ، للشخـصية الإتكاليـة أو الانتهازيـة (البراغماتية) ، باعتبارها ، تحصل عـلى مبتغاهـا بأقـل الأجـور والجهـود ، أو بالخديعـة ومعسول الكلام. لكن متابعة تفاصيل العلاقة تكشف عن كثير من الاستخذاء والامتهان ، لقاء (الهبات) الباهظة.

يقول المتنبي... (مَنْ يهُنْ يسهُلُ الهوانُ عليهِ !).

إن مجرد قبول (الهوان / المهانة / الامتهان) هو (سقوط) في (فقدان الذات).

وبالتالي ، فما نفع المكاسب – مهما بلغـت كميتهـا ونوعيتهـا- ، إزاء ذات مفقـودة ، أو شخصية فاقدة لنفسها وذاتها. وهي بالتالي مسلوبة الإرادة والمصداقية ، مهـما حاولـت تفنيد وضعها ومراوغة المقابل.

"ما جدوى أن تربح العالم وتخسر نفسك !".

ولو أنها بذلت نفسها لنفسها ، ما تبذله من جهد (مستخذية) لأجـل الغـير ، لكـان لهـا سمت الإبداع والعصامية.

إن قيمة الحياة بذاتها ، وقيمة الذات ، بجدارتها بنفـسها ، واعتمادهـا عـلى إمكانياتهـا وقدراتها ، وترفعها عن مستوى السوقة والغوغاء.

•

- الأنانية و الأنا العليا

إذا كان الجسد ممثلاً للكيان الفردي والذات مقترنة بالنفس ، فيمكن تمثيلهما بالأنانية ، كحاجة ملأزمة لا بدّ منها.

والأنا العليا ، رمز للضمير ، على اختلاف تعريفاته وتناقضها فيما بينها.

وكما أن الصراع بين الخير والشرّ ، الله والشيطان ، تمثل بالصراع بين حاجات الجسد الأرضي ، ونزوع الروح السماوية ، فالصراع بين الأنانية الفردية وتجليات الأنا الأعلى ، صورة أخرى لهذا الجدل البيزنطي.

ومن هذا المفترق الفلسفي ، اختلفت الأديان في تصور درجة العلاقة وتضادّاتها.

فبينما رحّبت البوذية وحركات الزهد والرهبنة بنبذ الجسدي والتمتع بالروحي والسماوي ، تعاملت الأديان عامة بتحفظ كبير مع طرَفي الموضوع.

وفي العموم ، كان الفصل بين الأرضي (الجسدي) ، والسماوي (الروحي) عبر شاكلة (الموت) ، مراوغة ذهنية ، نحو يوتوبيا طوباوية ، تصوّر مشاهد النشور (الحكم) في عالم ميتافيزيقي [جحيم وفردوس].

وهو أمر خارج خطاب العقل والفكر البشري ، وأن لم يبتعد عن تخريجات منطق أرسطوطاليس.

•

- الكوميديا الإلهية

يوقع الفكر الديني نفسه ضحية تخبّطات عرجاء ، وهو يزوغ من هنا ، ويقارب من هناك ، لوضع أطر خلقية محدّدة ، للفكر والسلوك ، دون الوقوع في الخطيّة.

ففي مرة يتم التحدث عن زنا الفكر أو زنا العين ، يتم التحلل وإباحة آثام مادية ، بدعوى الضرورة الحياتية أو المشيئة السماوية ، والتبرير بالكفارة والغفران أو التوبة.

وفي القصص الديني يتحول خطاة ومجرمون إلى رسل وقديسين وأنبياء ، بينما يحكم باللعنة على أبرار مثل أيوب أو بسطاء قطفوا ثمرة من بستان أو تأخروا في الصلاة للملك أو أخطأوا في التسبيح والمديح ، فاتهموا بالتجديف أو المروق.

إن المرء ، رهين اثنتين ، لا خيار له فيهما... فهو ، المخلوق من طين وضعفات أرضية ، عليه التعفف والترفع عن حاجات الجسد والأرض والانطلاق في رؤيته للسماوي والنزيه والنبيل والمقدّس.

البرّ ، كمفهوم ديني ، هو الإخلاص التام للمشيئة العليا.

والمقدّس من وضع كل كيانه في خدمة الذات المقدّسة ، حتى لو انتهى بها الأمر للموت والتضحية بالحياة والجسد.

إن العبودية (المطلقة) ، والطاعة ، هي رسالة الدين للبشر.

أما مرجعية هذه العبودية ، فهي تبدأ من أرباب السماء وتستمر نزولاً لأرباب الأرضين ، وآخر عامل في سلك العسس.

وهكذا يتم الفصل بين الإنسان وإنسانيته ، وبين خلقه ، وامتيازه عن بقية الخلق ، والاستهانة بالعالمين ، لسوقها قطيعًا من قرابين ذبيحة في مجزرة سماوية.

•

- الإبداع ... تجديد وتطوير الحياة

يقول باول أردن: " لقد دفع للمبدعين ليكونوا مبدعين. ولتأكيد استحقاقهم لأجورهم ، هم بحاجة لتبيان أفكارهم الذكية.

ثمة كتاب ظهر في الخمسينيات من القرن الماضي ، لكنه ما زال حيويًا لليوم. عنوانه (تقنية لإنتاج الأفكار) [Technique for Producing Ideas] لمؤلفه [James Webb- Young]. إنه لا يقدِّم أفكارًا ، ولكنه يساعد في توضيح ما

تريد قوله ويساعد في الوصول إلى حل حاسم وعملي."

إن القيمة الاجتماعية للأفكار والعقائد والسياسات ، هي في تحفيز مكامن الإبداع وتشجيع مظاهره ، خارج الوصايا والتحديدات المخذلة. كما أن إسهام الذات الإنسانية الحقيقي في الحياة والوجود ، هو فيما تضفيه وتضيفه ، لتحسين حركة الحياة وصورة الوجود ، لتكونا أكثر إنسانية وجدارة بالعيش والاستمتاع.

وفي غير هذا القياس ، فإن صور الخذلان والهزيمة ، هي الشائعة اليوم ، والمسؤولة ، عن تغذية مظاهر التردي والرداءة العامة في مجالات الحياة المختلفة.

•

To be or not to be -

رواج النزعة الاستهلاكية ، مضادّ لديناميكية وتطوير الإنتاجية.

شيوع الإتكالية ، مضادّ لمبادئ الاعتماد على الذات والتمتع بأهلية القرار والاستقلالية.

إن النُظم السياسية العامة ، وهي تفكّ ارتباط الفرد بالعائلة ، عبر آلية الاقتصاد وارتفاع التكاليف ، تدفع مجتمعاتها للمزيد من تبعية الاقتصاد الاستهلاكي ، وعبودية دولة المؤسسات. ومنذ سني الدراسة التمهيدية ، يجد الفرد نفسه ، بين مخالب فلسفة سياسية ، عبودية اقتصادية ، تستمر معه حتى اليفاعة والبلوغ ، وتحديد دوره المهني والسياسي ومستواه المعيشي وصولاً إلى حافة الشيخوخة والموت الرحيم.

وهنا ، تتخذ الدولة ، الدور الذي سبق للدين أن احتله طيلة أزمان طويلة ، أي خلافة الخالق في التحكم في تسيير شئون خلقه. (رفعت الأقلام وجفت الصحف).



صدر للمؤلف

▪ **في مجال الشعر :**

1- وطن الحب... وطن الكبرياء / 1988م
2- ما قالته النخلة للعشاق / 1991م
3- تأملات قبل السفر / 1991م
4- سلطان الكلام / 1999م
5- أغنية الغبار / 2000م
6- منفيون من جنة الشطان / 2003م
7- دخول في خبر كان / 2004م
8- صدفة نجوت / 2006م
9- صعود اليشا / 2010م
10- أزهار حكمة البستاني / 2013م

▪ **في مجال السرد :**

- كركجورد العراقي- رواية- 2009م
- سنكسارا- رواية / 2016م

▪ **في مجال النقد الأدبي والانطولوجيا :**

1- يوسف عزالدين... شعره وتجديده / 1993م
2- جنى الاوراق من أدب عبد الرزاق / 1999م
3- أحفاد جلجامش (انطولوجيا الشعر العراقي 1980- 2000م) / 2003م
4- سعدي يوسف... صورة في الثمانين / 2014م

▪ في مجال الفكر والفلسفة :

- في علم اجتماع الفرد... خمسون حديثا عن اللغة واللامعقول والواقع / 2017م

▪ في اللغات غير العربية :

1- الاثار الإنسانية للحصار الاقتصادي الدولي على العراق (معهد العلوم السياسية في جامعة سالزبورغ / النمسا) / 1999م

2- أغنية الغبار (مجموعة شعرية باللغة الإنجليزية)- ت : جواد وادي / 2004م

3- صدفة نجوت / مجموعة شعرية باللغتين الألمانية والعربية / 2006م

▪ في الإعلام والصحافة :

1- برنامج اذاعي أسبوعي باللغة العربية في مدينة لنز / النمسا العليا / 1998م

2- مجلة الساري... فصلية ثقافية بالعربية والألمانية / 1998- 1999م

3- مجلة ضفاف... فصلية ثقافية باللغتين العربية والألمانية / 1999- 2005م

4- مساهمات متنوعة في الدوريات والانطلوجيات باللغات العربية والألمانية والإنجليزية.

5- له صفحات خاصة (website) في عدة مواقع إلكترونية منها : موقع الحوار المتمدن ، الشبكة العربية الدولية ، موقع ديوان العرب ، جماليا للثقافة والفنون ، موقع الشعر للشاعر قاسم حداد ، موقع واتا للترجمة والإبداع العربي ، موقع الكتاب العربي ، موقع القصة السورية ، صفحة الاتحاد العام لأدباء العراق ، معارج الفكر ، صوت العروبة ، جذور ، دروب ، مجلة المهجر ، وغيرها.

▪البريد الإلكتروني : wdobd14@gmail.com



Tel :(+2) 01288890065

www.shams - group.net